

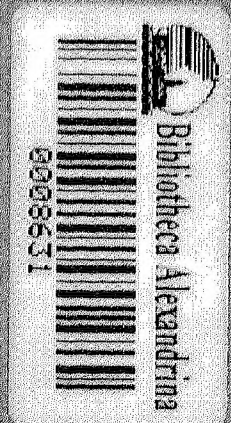
عبد الرحمن الرافعي

شعراء الوطنيات ونصر

تراجمهم وشعرهم الوطني
والمناسبات التي نظموا فيها قصائدهم



دار المعارف



شعراء الوطنيت ومصر

تراجمهم وشعرهم الوطفي
والمناسبات التي نظموا فيها قصائد لهم

بقلم

عبد الرحمن الراجحي

« أن في قيشارة الشعير سلوى للقلب »
« وغذاء للروح، وأنها لتوحى إلى النفوس »
« أسمى معاني الانسانية، وما أجمل هذه »
« القيشارة حينما تغرد للناس ألحان الوطنية »

الطبعة الثالثة



دار المعارف



عبد الرحمن الراقعي

ولد في ٨ من فبراير سنة ١٨٨٩ - وتوفي في ٣ من ديسمبر سنة ١٩٦٦

مقدمة الطبعة الثالثة

هذه هي الطبعة الثالثة من كتاب المغفور له والدنا عن شعراء الوطنية في مصر تطابق تماما الطبعة الأولى التي ظهرت سنة ١٩٥٤ ، ولاشك أن جهد دار المعارف بأعضائها جميعا كان له أثره في ظهور الطبعة الثالثة التي هي الآن في متناول القارئ ..

والله ولي التوفيق ..

كريمات المؤلف

عبدالرحمن الرافعى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

أقدم الطبعة الثانية لهذا الكتاب طبق الأصل للطبعة الأولى التي أخرجتها سنة ١٩٥٤ وهي ضمن ما أخرجته من سلسلة تاريخ حركتنا الوطنية - أحمد الله وأشكره على نعمائه، وكم كنت أتمنى أن أضيف إلى تراننا الشعري الوطني ما جادت به قرائح شعرائنا الجدد في المناسبات الوطنية تمثيلاً مع روح الاشتراكية والتطور في عهدنا الحديث خاصة وقد لا يست الأمة المصرية ظروف وضحت فيها معالم القومية والوطنية والكفاح والجهاد، وليس أدل على ذلك مما ظهر عقب الاعتداء الثلاثي من قصائد لشعراء وطنيين وغير ذلك من المناسبات الوطنية المعروفة لولا - مرضى الذى منعى عن جمع وتسجيل قصائد هؤلاء الشعراء فلهم منى صادق اعتذارى.

والله ولى التوفيق..

عبد الرحمن الرافعى

يوليه سنة ١٩٦٦

مقدمة

عندما أرخت الحركة القومية في أدوارها المتعاقبة، تبينت مبلغ ما للشعر الوطني من أثر عميق في التمهيد لها وبعثها، وإذكاء الروح الوطنية في نفوس المواطنين، وتسجيل الحوادث الهامة في تاريخ مصر القومي، ومن يومئذ وأنا تَوَاق إلى أن أخصص لشعراء الوطنية سفراً منفرداً، يجمع معظم ماجادت به قرائحهم من الشعر الوطني، مع التعريف بشخصياتهم، وذكر المناسبات التي أنشأوا فيها قصائدهم الوطنية.

ولقد كنت أرجو أن أضمن ما أخرجته من سلسلة تاريخ الحركة الوطنية قصائد أولئك الشعراء، وعנית فعلاً بأن أقتبس في شتى المناسبات، ولكنني وجدت أن هذا الاقتباس لا يكفي للتنويه بفضلهم، وإبراز مبلغ مساهمتهم في غرس الشعور الوطني في نفوس الأجيال المتعاقبة، فواعدت نفسي أن أتفرغ يوماً لإخراج كتاب خاص بهم وبأشعارهم الوطنية، وها أنذا أوفى بوعدى.

وإني لأشعر أنى باخراج هذا الكتاب، أودى واجبا نحو أولئك الشعراء، ونحو الحركة الوطنية ذاتها، فالشعراء الذين استلهموا وحى الوطنية في قصائدهم، واهتزت لها مشاعرهم، واستجابوا إلى نداء الوطن في عالم الشعر والفن والخيال، وتجاوبوا مع الحركة الوطنية، وكانوا مرآة صادقة لعصرهم، ومصدر إلهام وتوجيه لمواطنيهم، وترجمانا لهم في آمالهم وآلامهم، وأحاسيسهم وأهدافهم، هؤلاء خليقون جميعاً بتقدير الوطن وثنائه، وإن من أبسط علامات التقدير لهم أن تجمع قصائدهم في سجل واحد.

على أنى لا أقصد تقديراً لهم فحسب، بل أقصد إلى تغذية الروح الوطنية بمدد من شعرهم وإلهامهم، وإذا كان مما تعمد إليه الأمم أن تغذى نفوس أبنائها بالأناشيد الوطنية، فأجدد بنا أن نشيع الشعر الوطني ونجعله في متناول المواطنين جميعاً، رجالاً ونساء، شبيا وشباناً، فكلنا في حاجة إلى أن نستذكر تلك القصائد الغر التي تملأ النفوس وطنية وإيمانا، وتغرس فيها فضائل الصدق والإخلاص والشجاعة، والتفاني في أداء الواجب الوطني، فلعلها تدفعنا إلى السير دائما إلى الأمام، غير متوانين ولا متنازحين، مستمسكين بالمثل العليا في حياتنا القومية.

إن حياة هؤلاء الشعراء وقصائدهم الوطنية - إلى جانب أنها عماد للأدب وتاريخه - هي قطعة من تاريخ الحركة الوطنية، وعنصر من عناصر بعثها وتطورها، ولا غرو فالشعر فرع من دوحة الأدب، والأدب الوطني له الأثر الذي لا ينكر في تكوين المواطن الصالح، والشعر بما

بطبع في نفس الشاعر من التحليق في سماء الخيال، والتطلع إلى المل العليا، يمهّد للنهضات الوطنية وبعنها وبغديها، إذ يهيب بالأمة أن تتمسك بالحرية والكرامة، ويستحها على النفور من الذل، وإباء الضيم، ويحبب إليها الثورة على الاستعمار والاستبداد، وسعراء الوطنية في مصر لهم في هذه الناحية فضل عميم، فكم ناصروا الحركة الوطنية في مختلف عهودها، وغذوها بقصائدهم وروائع شعرهم، وسجلوا حوادثها الهامة، وأشادوا بمفاخر الشعب، وأهابوا به أن ينهض ويستعيد مجده القديم، وكم استصرخوا الإنسانية أن تهب لنصرته، وتنتصف له من المظالم التي حاقت به، وإن كثيراً من روائع الأدب التي جادت بها قرائح أولئك الشعراء كانت معالم للحركة الوطنية، وكان السبب يحفظها عن ظهر قلب، فتذكى في نفوسه روح الوطنية والإخلاص والإقدام والتضحية.

وكم من قصيدة أو بيت من الشعر قد حركت المشاعر في نفوس المواطنين وستحركها على الدوام، مهما تقادم عليها الأعوام، ألسنت ترى إلى نشيد المارسلين؟ كيف أنه رغم تقادم العهد على وضعه لا يزال يلهب شعور الفرنسيين ويتير في نفوسهم روح الجهاد والفداء، ويفدرون له قدسيته الفنية والوطنية.

ولعل في جمع عيون الشعر الوطني في كتاب واحد ما يبرز لنا فضل أولئك الشعراء في إمدادهم الروح الوطنية بغذاء معنوي يتجدد على تعاقب العهود والعصور، ولعلنا بذلك نكون أكثر عرفاناً لفضلهم، وتقديراً لذكرياتهم، وما أجمل وفاء الأمم للمجاهدين السابقين من بنبها، في مختلف الميادين، ولا غرو فالحركة الوطنية ليست وليدة الجيل الحاضر، ولا هي وف عله، بل هي سمة الجهود المتواصلة التي يتوارثها المواطنون جيلاً بعد جيل، وما أضعف الروح الوطنية إذا حدد مولدها بجيل واحد، لأنها بذلك تكون رخوة البناء، مقفرة المعالم، أما الوطنية الوطيدة الأساس، العالية الذرى، فهي التي تجمع بين مجد الماضي، وجهاد الحاضر، وأمل المستقبل.

إن في قينارة الشعر سلوى للقلب، وغذاء للروح، وإنها لتوحى إلى النفوس أسمى معانى الإنسانية، وما أجمل هذه القينارة حينما تغرد للناس ألحان الوطنية.

هذه المعانى والخواطر هي التي أهتمنى إخراج هذا الكتاب، وكم يطيب لى أن أنسر فيه صفحات لشعراء تكاد أحداث الزمان تنسينا شعرهم، بل تنسينا أسماء بعضهم، في حين أن فضلهم لا يصح أن ينسى وآثارهم في بعث الوطنية لا تمحى، والأدب في حاجة إلى استذكار أسعارهم، فإنها حصاً عماد الأدب الرفيع وكيانه، وهذه الأسعار هي في ذاتها سبيل لنسر السفاقة الوطنند بن أفراد الشعب في مختلف طبقاته.

من أين نبدأ

لقد ساءلت نفسي قبل أن أرسم. خطوط الكتاب: من أين نبدأ تاريخ الشعر الوطني؟ أنبدأه من يوم أن قرأنا قصائد سوفى وحافظ وسمعناها ووعيناها وكان لها صداها في أحياء مساعرنا الوطنية؟ إننا إذ نحدد هذه البداية نكون قد اجتزأنا تاريخ الشعر الوطني، وأغفلنا مرحلة سبقت سوفى وحافظ، وهذا ما لا يقره الحق والإنصاف ولا يرضاه تنوفى وحافظ، على علو كعبهما وبلوغهما الذروة بين شعراء الوطنية.

فلنبحث إذن عن بداية سابقة على سوفى وحافظ.

إننى عندما أرخت مصطفى كامل بحثت في بداية الحركة الوطنية الحديثة، وتساءلت هل تبدأ هذه الحركة بظهور مصطفى كامل فيكون تأريخه تاريخاً لها، أم أن لها بداية سبقت ظهوره؟ وعلى أننى تلميذ لمصطفى كامل وكان تتلمذى له هو من البواعث على إخراجى لتاريخه، كما نوهت إلى ذلك في مقدمة كتابى عنه، فإنى قد وجدت من الإنصاف أن أبحث عن الأدوار التى تقدمت عصر مصطفى كامل، لأقف عند حدّ يصح اعتباره مبدأ الحركة القومية الحديثة، وانتهى بى البحث إلى أن بدايتها - فى تاريخ مصر الحديث - ترجع إلى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر، وأن أول دور من أدوارها هو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر، ومن ثم تطورت الفكرة عندى من تأريخ لمصطفى كامل إلى تأريخ للحركة القومية، وعلى هذا الأساس أخرجت سلسلة هذا التاريخ.

وأرانى فى تأريخ الشعر الوطنى أميل إلى سلوك مثل هذا المنهج، فرجعت فى بدايته إلى الماضى، ووجدت أن روح الوطنية - بمعناها الحديث - قد بدأت تدخل الشعر المصرى، وتبعث فيه من حياتها وبهائها، وتضفى عليه من جمالها، وجلالها منذ أوائل القرن التاسع عشر، وأول رائد لهذه النهضة هو رفاة رافع الطهطاوى، فالى هذا العهد يجب أن نرجع ظهور الشعر الوطنى فى مصر، وهكذا يبدو التقارب بين ظهور الحركة الوطنية وظهور الشعر الوطنى فى تاريخنا الحديث.

فلنبداً إذن برفاة رافع الطهطاوى ولندرس تطور الشعر الوطنى من بعده إلى وقتنا الحاضر. ويطيب لى فى صدد التنويه بشعراء الوطنية، أن أعتذر عما فاتنى من تأريخهم، وأعوزنى الحديث عنهم، فأنى أفصد من ساعر الوطنية من تغلب عليه النزعة الوطنية فى شعره، فإذا كان فاتنى أن أتحدث عن بعض الشعراء الممتازين، فالأمر لا يعدو أن يكون رأياً تقديرياً، وأن يكون شعرهم الوطنى قد بدا لى مغموراً فى بحر شعرهم الفياض، وهذا لا يغض بداهة من

منزلتهم في عالم الشعر والأدب، وحسبى عذرا لى أن رأبى التقديرى فى تخير شعراء الوطنية كان نتيجة دراسات مستفيضة، عكفت عليها سنين عديدة، ولم أقتصر على ما وعته ذاكراتى من الشعر الوطنى فى مختلف المناسبات، ولا على دواوين الشعراء، بل ذهبت أستقصى الشعر الوطنى فى مجاميع الصحف والمجلات، عاما بعد عام، قرابة نصف قرن من الزمان، بحيث اكتملت لدى مجموعة من أشعار الوطنية، بعضها لم ينشر من قبل فى كتاب أو ديوان، ومع ذلك فإذا نبهنى القارئ الكريم إلى شاعر فاتنى الحديث عنه، ضمن شعراء الوطنية، فانى على أتم الاستعداد لتدارك هذا النقص فى الطبعة التالية من الكتاب، لأننى أود حقا أن أستكمل أى نقص بدا منى فى هذه الناحية، وليس أحب إلى نفسى من أن أسجل فى كتابى كل قصيدة بل كل بيت من الشعر الوطنى.

والله أسأل أن يكون فى هذه الدراسة ما يعين على نشر الأدب الوطنى وإذاعته، وتعميمه بين المواطنين، والحمد لله أولا وأخيرا.

تدته سنة ١٩٥٤

عبد الرحمن الراقى

رفاعة رافع الطهطاوى

١٨٠١ - ١٨٧٣



مصريٌ صميم، من أقصى الصعيد، ساء نشأة عادية، من أبوين فقيرين، قرأ القرآن، وبنى العلوم الدينية كما يتلقاها عامة طلبة العلم في عصره، ودخل الأزهر كما دخله غيره، وصار من علمائه كما صار الكثيرون، ولكنه بدأ الأقران، وتفرد بالسبق عليهم، وتسامت شخصيته إلى عليا المراتب، ذلك أنه كان يحمل بين جنبيه نفساً عالية، وروحاً متوثبة، وعزيمة ماضية، وذكاء حاداً، وشغفاً بالعلم، وإخلاصاً للوطن وبنيه، تهيأت له أسباب الجهد والنبوغ، فاستوفى علوم الأزهر في ذلك العصر، ثم صحب البعثة العلمية الأولى من بعثات محمد علي، وارتحل إلى معاهد

علم في باريس، واسنروح نسيم الثقافة الأوروبية، فزادت معارفه، واتسعت مداركه، ونفذت بصيرته، لكنه احتفظ بشخصيته، واستمسك بدينه وقوميته، فأخذ من المدنية الغربية أحسنها، ورجع إلى وطنه كامل الثقافة، مهذب الفؤاد، ماضى العزيمة، صحيح العقيدة، سليم الوجدان، عاد وقد اعتزم خدمة مصر من طريق العلم والتعليم، فبرّ بوعده، ووفى بعهده، واضطلع بالنهضة العلمية تأليفاً وترجمة، وتعليماً وتربية، فملا البلاد بمؤلفاته ومعارفاته، وتخرج على يديه جيل من خيرة علماء مصر، وحمل مصباح العلم والعرفان يضيء به أرجاء البلاد، وينير به البصائر والأذهان، وظل يحمل نيفاً وأربعين سنة، وانتهت إليه الزعامة العلمية والأدبية في عصر محمد علي، وامتدت زعامته إلى عهد اسماعيل، ذلك هو رفاعة رافع الطهطاوى^(١).

ولد في طهطا بمديرية جرجا سنة ١٨٠١ (١٢١٦ هـ)، وبدت عليه مخايل الذكاء والنباهة منذ صباه، ودخل الأزهر سنة ١٨١٧، ولم يمض عليه به بضع سنوات حتى صار من طبقة العلماء، وتولى التدريس فيه سنتين، وصنف وألف ودرس وهو في الحادية والعشرين من سنه، ثم عين واعظاً وإماماً في أحد أليات الجيش المصري، ولما جاء عهد البعثات العلمية كان من حسن

(١) عن ترجمته في كتابنا تاريخ الحركة القومية الجزء الثالث - عصر محمد علي.

التوفيق أن اختاره محمد على ضمن أعضاء البعثة الأولى التي سافرت إلى فرنسا سنة ١٨٢٦، فجمع إلى ثقافته الأزهرية ثقافة أوروبا وعلومها وآدابها، فاقتبس منها الشيء الكثير، وازدهرت روحه الأدبية على ضوء الحضارة الغربية، ولما عاد إلى مصر سنة ١٨٣١ تولى عدة مناصب في التعليم، وأنتسأ مدرسة الألسن سنة ١٨٣٦، وكانت أسنبه ما تكون بكلية الآداب والحقوق في مصر، وكان رفاة يتولى نظارتها ويلقى فيها دروسه على الطلبة، فكانت أكبر معهد لنشر الثقافة في مصر، وتنقل في المناصب العلمية، وكان لا يفتأ يؤلف ويخرج من حين لآخر مصنفاته ومعرباته في العلوم والآداب إلى أن أدرسته الوفاة سنة ١٨٧٣^(٢).

وهو أول رائد لهضة العلم والأدب في النصف الأول من القرن التاسع عشر، كان شاعراً رقيقاً بالقياس إلى عصره، أشربت نفسه الوطنية منذ نعومة أظفاره، تلقاها من إيمانه الصادق (وحب الوطن من الإيمان)، ومن فطرته السليمة، وخلص نيته، وقد استنار رحيله عن مصر إلى فرنسا. عاطفته الوطنية العميقة المتأصلة في نفسه الحساسة، فجادت قريحته وهو في باريس بقصيدة عبر فيها عن الحنين إلى الوطن وأهله، والإشادة بمفاخره، قال في مطلعها:

ناح الحمائم على غصون البانٍ فأباح شيمته مغرمٍ ولهان

وانتقل إلى التغنى بمصر وذكر محاسنها وقال:

هذا لعمري إن فيها سادة قد زُينوا بالحسن والإحسان
يا أيها الخافي عليك فخارها فإليك أن الشاهد الحسنان
ولئن حلفت بأن مصر بجنة وقطوفها للفائزين دوان
والنيل كوثرها الشهي شرابه لأبر كل البر في أيماني

وله قصائد ومنظومات وطنية قالها في مناسبات مختلفة.

فانظر إلى القصيدة الآتية تجدها تعبر عما يجيش في نفسه من أكرم العواطف وأنبهها، وقد قدمها هو بقوله «وقلت أيضاً وطنية»، فالروح الوطنية تتمشى حتى في تقديمه لقصائده، قال:

يا صاح حب الوطن جلية كل فطين

محبّة الأوطان من شعب الإيما

في أفخر الأديان آية كل مؤمن

مساقط الرؤوس تلذ للنفوس
تذهب كل بوس عنا وكل حزن

ومصر أبهى مولد لنا وأزهى محتد
ومربع ومعهد لروح أو للبدن

شدت بها العزائم نيطت بها التمام
لطبعا تلائم في السر أو في العلن

مصر لها أياد عليها على البلاد
وفخرها ينادى ما المجد إلا ديدنى

الكون من مصر اقتبس نورا وما عنه احتبس
فخر قديم يؤنر عن سادة ويُنسر
زهور مجد تنر منها العقول تجتنى

دار نعيم زاهية ومعدن الرفاهية
أمرة وناهية قدما لكل المدن
فوة مصر القاهرة على سواها ظاهرة
وبالعمار زاهره خصت بذكر حسن

أبنائها رجال لم يسنهم محال

وَجُنْدُهُمْ صَنْدِيدٌ وقلبه حديد
وخصمه طريد بل مُدْرَجٌ في كفن

وقال من قصيدة أخرى يدعو إلى افتداء الوطن بالنفس والمال:

وعزيز الموطن نخدمه برضا في النفس نحكمه
مألُ المصري كذا دمه مبدول في شرف الوطن
تفديه العين بناظرها والنفس بخير ذخائرها
تهدى في نيل نظائرها بشرا العليا أعلى ثمن

وقال يصف الجيش المصري ويشيد بمفاخره:

تَنْظُمُ جُنْدَنَا نَظْمًا عجبيا يُعجز الفهما
بأسدٍ تُرْعِبُ الخصما فمن يقوى يناضلنا؟

* * *

رجالُ مالها عددُ كمال نظامها العُدُ
حُلاها الدرع والزرْدُ سنان الرمح عاملنا

* * *

وهل لخيولنا شِبةٌ كرائم ما بها شِبةٌ
إليها الكل منتبهُةٌ وهل تخفى أصائلنا؟

* * *

لنا في الجيش فرسان لهم عند اللقا شان
وفي الهيجاء عنوان تهيم به صواهلنا
فها الميدان (والشقرا) سَقَّتْ أذن العدا وَقْرا
كأنا نرسل الصقرا فمن يبغى يرسلنا

* * *

مَدَافِعِنَا القضا فيها وَحُكْمِ الحُتفِ في فيها
وأهوتها وجافِيتها تجوّدُ به معامِلنا

* * *

لنا في المدن تحصين وتنظيم وتحسين
وتأييد وتمكين منيعات معاقلنا

وهذه الأبيات لمن خير ما قيل في وصف الجيش المصري، ولا شك أن رفاة قد استلهم شعره من مفاخر الجيشفى عهده، فهو يصور العصر الذى عاش فيه تصويراً صحيحاً، لا مبالغة فيه ولا إغراق، وإن قصيدته لتشبه أن تكون لوحة فنية يجيل لمن ينظر إليها أنه يلمح فيها كتائب الجيش المصرى تسير إلى ميادين الحرب، تحف بها أعلام النصر والظفر، تخوض غمار القتال، بقلوب ملؤها الشجاعة والإقدام، وتجاهه الأخطار قوية الإيمان، ثابتة الجنان، مجهزة بالسلاح والمدافع «تجود به معاملنا»، ولو لم يشهد رفاة مفاخر الجيش المصرى فى ذلك العصر، لما جادت قريحته بهذا الشعر، وهكذا يتأثر الشاعر والأديب بالعصر الذى يعيش فيه، والبيئة التى تحيط به، ويصور الحياة على عهده فكأنما هو قطعة من عصره، أو امرأة تنطبع فيها مشاهد الحياة السياسية والاجتماعية، ومظاهر الحالة الفكرية والأخلاقية.

وإنك لتلمح أيضاً عظمة الجيش المصرى من قول رفاة فى قصيدة أخرى يخاطب فيها الجنود:

يا أيها الجنودُ والنفادة الأسود
إن أممكم حسودُ يعودُ هامى المدمع
فكم لكم حرورُ بنصركم توروبُ
لم تثبتكم خطوبُ ولا اقتحامُ معمع

* * *

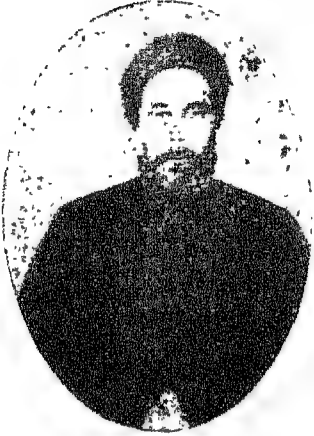
وكم شهدتم من وغى وكم هزتم من بغى
فمن تعدى وطغى على جماكم يصرعُ

وتتجلى روحه الوطنية المتطلعة إلى الحرية فى تعريبه نشيد الحرية (المارسلينز)، فإن النفس لا تميل إلا إلى ما هو محبب إليها، فهذا النشيد قد استثار ولا شك إعجاب رفاعه، حتى مالت نفسه إلى تعريبه، وإظهار ما احتواه من العواطف الوطنية الفدائية فى حلة عربية قشبية. وإذا تأملت فى شعر رفاعه الذى نقلنا طرفاً منه وجدت فيه تقدماً نسبياً إذا قارنته بأسلوب شعراء المدرسة القديمة التى سبقته، كالشبراوى والخطاب وغيرهم، ويعد شعره دور الانتقال إلى دولة الشعر الحديثة التى حمل لواءها البارودى، وإسماعيل صبرى، وشوقى، وحافظ.

حقاً إننا إذا وضعناه إلى جانب شعر سنوفى مثلا، لجاء في المرتبة الثالثة، أو الرابعة، ولكن
مجب ألا ننسى أن رفاعة رافع نمنأ في عصر كانت اللغة العربية وآدابها في دور تأخرها
واضمحلها، فله على نهضة الشعر والأدب فضل لا ينكر.

عبد الله نديم

١٨٤٥ - ١٨٩٦



ظل التنصر في مصر بعد وفاة رفاة رافع الطهطاوى
خلوًا من المعاني الوطنية، إلى أن نجدت في نعر عبد الله
نديم.

هو خطيب السورة العرايية، وهو أيضًا شاعرها،
انطبت في خطبه وقصائده روح الوطنية المتدفقة، وروح
النورة.

ولد سنة ١٨٤٥ بالإسكندرية، وبدأ عليه منذ صباه
مخايل الذكاء اللامع، وظهرت مواهبه في الترسل في
الكتابة والشعر والزجل، والقدرة الخطابية، مع خفة في
الروح، وميل إلى الفكاهة، وجرأة وإقدام، واستخفاف
بأحداث الزمان.

ولما ظهرت النورة العرايية أوائل ١٨٨١، انضم إليها بطبعه، إذ كانت نفسه تتأجج وطنية،
وتتطلع إلى الحرية والمجد، وتجلت مواهبه الخطابية، فصار خطيب النورة العرايية.

ومما يذكر عنه في صدد الحديث عن نعره الوطني أنه لما سافر الألاى السودانى الذ كان
يقوده الأمير الألاى عبد العال حلمى أحد زعماء النورة من القاهرة إلى دمياط، في أوائل أكتوبر
سنة ١٨٨١. كان سفره يومًا مشهودًا، فاحتشدت الجموع في محطة العاصمة لتحية الألاى حين
سفره. وكان من بين المودعين عرابى والبارودى وعبد الله نديم، فوقف النديم وسط هذا الجمع
الحاسد وألقى خطبة حماسية فياضة، بدأها بقوله مخاطبًا رجال الجيش:

«حماة البلاد وفرسانها!

«من قرأ التواريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والنوازل عرف مقدار ما وصلتم
إليه من السرف وما كتب لكم في صفحات التاريخ من الحسنات.

إلى أن قال: وهذا وطنكم العزيز أصبح يناديكم ويناجيكم ويقول:

إليكم يُرَدُّ الأمر وهو عظيم
إذا لم تكونوا للخطوب وللردى
وإن الفتى إن لم ينازل زمانه
فرُدُّوا عنان الخيل نحو مخيم
وشدوا له الأطراف من كل وجهة
إذا لم تكن سيفاً فكن أرض وطاءً
فإني بكم طول الزمان رحيم
فمن أين يأتى للديار نعيم؟
تأخر عنه صاحبٌ وهميم
تقلبه إبين البيوت نسيم
فمشدود أطراف الجهات قويم
فليس لمغلول اليدين حريم

وختم خطبته بقوله: وأحسن ما يؤرخ به اسم الجهادية عند التوازل أن يقال (مات شهيد الأوطان!)، فنادى الجميع (رضينا بالموت في حفظ الأوطان!).

ولما شبت الحرب العراقية لازم النديم عرابي كفر الدوار ثم في التل الكبير، وكانت مجلته (الطائف)، تصدر في معسكر الجيش المصرى.

وبعد أن وقعت الهزيمة، ظل مخلصاً للثورة في محنتها، فبرهن على وفاء نادر ووطنية أصيلة عميقة، وكان ممن أمرت الحكومة باعتقالهم، وعجزت عن التعرف إلى مقره والقبض عليه، وظل مختفياً عن عيونها وجواسيسها نحو تسعة أعوام، وأعيا الحكومة أمره، وجعلت ألف جنيه لمن يرشد عنه، ولكنها لم تهتد إليه.

وقد وصف ما لقيه من الشدائد أثناء اختفائه في قصيدة تفيض وطنية وإيماناً وفخراً وشجاعة، وهى من غرر قصائده. قال:

أتحسبنا إذا قلنا بلىنا
نعم للمجد نقتحم الدواهى
تناوشنا فتقهـرنا خطوب
سواء حربها والسلم إننا
بلىنا أو يروم القلب لينا
فيحسب خامل أنا دُهينا
ترى ليث العرين لها قرينا
أناس قبل هدنتها هدينا

إلى أن قال:

إذا ما الدهر صافانا مرضنا
لنا جلد على جلد يقينا
ألفنا كل مكروه تفدى
فأعيا الخطب ما يلقاه منا
فإن عدنا إلى خطب شفيـنا
فإن زاد البلا زدنا يقينا
له فرسانه بالراجلينا
ولكننا صحاح ما عينا

بأنا الصلب صلنا أو صلينا
نزلت اليوم أعلى طور سينا
عليه الروح لا الدنيا رهينا
وهل تلقى بلا كدر مدينا؟
فيظهر حين ينظرنا حيننا
عن الباكي ونسينا الحزينا
نعم يلقي القضا قلبا رزينا
بما يرضى الإله لنا رضينا
ولكننا تُهيننا أن نهينا

سلينا يا خطوب فقد عرفنا
وقرى فوق عاتقنا وقولى:
علينا للعللا دين وضعنا
فهل يمسى رهين في سرور
إذا ما المجد نادانا أجبنا
يغنينا فيلهينا التغنى
ولسنا الساخطين إذا رزنا
فإننا في عداد الناس قوم
إذا طاش الزمان بنا حلمنا

إلى أن قال:

تركنا في منصتها فطينا
ألا هبى بصحيتك فاصبحينا
يسوق البر نحو المعوزينا
وإن متنا نفحنا الزائرينا

سلوا عنا (منابرنا) فإننا
لحكمتنا تقول إذا هذرتم
سرى فينا من الآباء سر
فإن عشنا منحنا سائلينا

وقال يصف إحاطة الجند بالمنزل الذي كان فيه يريدون اعتقاله فنجاه الله من شرهم:

تطاردتى ولا ألقى معينا
أخاف الشهم والحبر السميننا
فلما جاء مغربه هُجينا!
بلا علم وقد كنا فجيننا
وصرنا بين أيدي الباحثينا
وخلف البيت كم وضعوا كميننا
قريباً من فخاخ الطالبينا
رآه بعد حيرته مكيننا
وكننا للعساكر ناظرينا
يحطم هاويًا منه متينا

أنسى يوم مصر والبلايا
فكنت^(١) الغوث في يوم كربه
مُدحنا فيه في إشراق شمس
وهل أنسى هجوم الجند عمراً
أحاطوا بي وسدوا كل باب
وكان السطح مملوءاً بجند
فأدركت الوحيد وكان صيداً
وأرشدت التديم إلى مكان
وأعمى الله عنا كل عين
وصرنا فوق سطح فيه علو

(١) الخطاب هنا وفي الأبيات التالية موجهة إلى الرسول ﷺ، والتديم شريف النسب

فلم أرهب ونوبى من طمار
ويوم الغيظ كنت لنا مجيرا
فقد كنا بلا ستر يرانا
وكم سرنا بلا خوف جهارا
وإنى الآن فى خطب عظيم
أتانا مخبرٌ عن قوم سوء
وخاف الضّرُّ أحببى جميعاً
فعجل بالرحيل بلا توان
فأدرك يا أبى نجلا دهاه
فما خفت المنون ولا الأعادى

* * *

فسرتُ الليل يصحبنى نبات
ورافقنى خليل كان قبلا
وأدركنا القطار بغير خوف
وألقى الله ستر الخفظ فضلا
وكان الخل منتظراً قدومى
ونجى الله بعد اليأس عبدا

وإنك لترى هذا الشعر أقوى فى الروح والأسلوب من شعره فى إبان الثورة. وهكذا يبدو أن الهزيمة لم تنل منه، بل زادته قوة وحيوية، وصلابة وبلاغة، وأن السدائد صقلت مواهبه كما تصقل المعادن ونجلى جواهرها فى لهب النار، فاحتفظ النديم فى سنى المحنة بما حباه الله من إيمان صادق، وعزم نابت، وصمود على الأيام، وكذلك السدائد والمحن، يختلف أنرها فى نفوس الناس، فبينما تبعت اليأس والجزع فى النفوس الضعيفة، نراها على العكس تزيد النفوس الكبيرة تباتاً وصبراً، وسجاعة وإيماناً، ومن هنا جاء شعر النديم بعد هزيمة الثورة أقوى منه فى أوج انتصارها.

وفى الحق أن النديم هو الزعيم الوحيد بين الزعماء العربيين الذى استمر فى جهاده ضد الانجليز ونضاله عن مصر فى عهد الاحتلال، وتلك لعمرى ميزة كبرى جدية بأن تحيط اسمه بهالة من المجد والخلود، وقد اهدت الحكومة إلى مكانه سنة ١٨٩١ وقررت نفيه إلى خارج

القطر، وفي أوائل عهد الخديو عباس الثاني عُفي عنه ورخص له بالعودة إلى مصر، فعاد إليها، وأنشأ مجلة (الأستاذ) سنة ١٨٩٢ فتجلت فيها روحه الوطنية التي لم تضعفها الهزيمة ولم تنل منها السدائد، مما أحفظ عليه الإنجليز وصنائعهم، فتدخل اللورد كرومر، وأمر بإبعاده عن مصر ثانية، فاضطر إلى تعطيل صحيفته سنة ١٨٩٣، وودع قراءه وداعاً مؤثراً في آخر عدد صدر منها (في ١٣ يونيه سنة ١٨٩٣) قال:

«ما خلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب، والعاقل يتلذذ بما يراه في فصول تاريخه من العظمة والجلال، وإن كان المبدأ صعوبة وكدراً في أعين الواقفين عند الظواهر، وعلى هذا فإني أودع إخواني قائلاً:

أودعكم والله يعلم أنسى أحب لقاكم والخلود إليكم
وما عن قلى كان الرحيل وإنما دواعٍ تبدت فإلسلام عليكم ا

وانتهى به المطاف في منفاه إلى الآستانة حيث توفي سنة ١٨٩٦، وشيعت جنازته في احتفال مهيب مشى فيه كثير من العلماء والكبراء، يتقدمهم السيد جمال الدين الأفغانى، ودفن هناك.

بالأمس كان غريباً في ديارهم واليوم صار غريب اللحد والكفن ا

محمود سامي البارودي

١٨٤٠ - ١٩٠٤



محمود سامي البارودي هو إمام الشعراء المحدثين قاطبة، وباكورة الأعلام في دولة الشعر الحديث، وأول من نهض به وجارى في نظمه فحول الشعراء المتقدمين، فبعث النهضة الشعرية من مرقدتها بعد طول الخمود.

ولد سنة ١٨٤٠، وهو ابن حسن بك حسنى من ضباط المدفعية في الجيش المصري، وحفيد عبد الله الجركسى أحد الكشاف في عهد محمد على، وسمى البارودي نسبة إلى إيتاي البارود التي كان أحد أجداده الأمير مراد البارودي ملتزماً لها في عهد الالتزام.

وقد تلقى العلم أول ما تلقاه على أيدي أساتذة

خصوصيين في سراي والده بغيط العدة (القريبة من باب الخلق) والمعروفة بسراي البارودي. ولما بلغ الثانية عشرة من عمره انتظم في المدرسة الحربية، وتخرج منها سنة ١٨٥٥، والتحق بخدمة الجيش المصري، وأخذ يترقى حتى بلغ رتبة أميرالاي، وخاض غمار الحروب في ثورة كريد سنة ١٨٦٦، إذ كان ضابطاً في الجيش الذي أنفذته مصر لإخماد تلك الثورة وانتصر على الثوار في مواقع عدة.

ولما شبت الحرب بين تركيا والروسيا سنة ١٨٧٧ أنفذت مصر جيشاً لنجدة تركيا كان البارودي من ضباطه، وأبلى في الحرب بلاء حسناً، وصقلت المعارك مواهبه الشعرية، ولما عاد إلى مصر رقى إلى رتبة اللواء، وعين مديراً للشرقية، وكان محافظاً للعاصمة حين أُلّف شريف باشا وزارته الثانية سنة ١٨٧٩ في أوائل عهد الخديو توفيق، فاختره فيها وزيراً للمعارف والأوقاف، واشترك في حوادث الثورة العرابية، وكان من زعمائها المشار إليهم بالبنان، وتولى رئاسة وزارة الثورة سنة ١٨٨٢، ثم كانت الهزيمة، ونفى مع زملائه إلى جزيرة سيلان (سرنديب) وظل في منفاها نيفاً وسبعة عشر عاماً، وإسبغ عليه النفي سمات التضحية والبطولة^(١).

(١) راجع ترجمته تفصيلاً في كتابنا (الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي).

الحنين إلى الوطن

كانت حياة زعماء الثورة العراقية في متفاهم حياة ألم وحزن، إذ انقطعت صلتهم بالناس، وطال اغترابهم عن أرض الوطن، وبعدت الشقة بينهم وبين أهليهم ومواطنيهم، ولم يكثر لهم أحد، ولم يعطف عليهم أحد (والناس مع الغالب)، وجادت قريحة البارودي بشعر مؤثر في الحنين إلى الوطن، والحزن على فراقه، مما يعد آية في البلاغة، وبلغت سليقته الشعرية في منفاه ذروة العظمة والجلال.

قال يصف الرحيل عن أرض الوطن:

مَحَا البينُ ما أبقت عيون المها مني
عَنَاءٌ وبأسٌ واشتياقٌ وغربةٌ
فشبتُ ولم أقض اللبانة من سنِّي
ألا شدُّ ما ألقاه في الدهر من غبن

إلى أن قال:

ولما وقفنا للوداع وأسبلتُ
أهبت بصبري أن يعود فيزني
وما هي إلا خطوة ثم أقلعت
فكم مهجة من زفرة الشوق في لظي
وما كنت جربت النوى قبل هذه
ولكني راجعت حلمي ووردني
ولولا بنيات وشيب عواطل
مدامعنا فوق الترائب كالمزن
وناديت حلمي أن يشوب فلم يغن
بنا عن خطوط الحنن أجنحة السفن
وكم مقلة من غرزة الدمع في دجن
فلما دهنتي كدت أقضى من الحزن
إلى الحزم رأى لا يحوم على أفن
لما قرعت نفسي على فائت سنِّي

الصبر على الشدائد

وتجلت في منفاه صفاته العالية من الشمم، وعلو النفس واحتمل آلام النفي بشجاعة وإباء، وصبر وإيمان، وله في ذلك شعر يفيض بهذه المعاني السامية.

قال وهو في سرنديب (سيلان):

لم أقترف زلّة تقضى علىّ بما
فهل دفاعي عن ديني وعن وطني
فلا يظن بي الحساد مندمة
أصبحت فيه فماذا الويل والحرب؟
ذنب أدان به ظلماً وأغترب؟
فإنني صابر في الله محتسب

أيسدى الحوادث منى فهو مكتسب
ولا يمتد بذكر الخامل النشب^(١)

خُذْ لى بحقى من ىدى ماطلى
من كسبى الحرب بلا ناطل^(٢)
ذى رونق كالصارم القاطل^(٣)
ففضل ربي حلية العاطل

أثريت مجدا فلم أعبا بما سلبت
لا يخنض البؤس نفسا وهى عالية
وقال متشيرا إلى مصادرة أملاكه:

ياناصر الحق على الباطل
أخرجنى عما حوته ىدى
من غير ماذهب سوى منطق
فإن أكن جردت من ثروقى

وقال من قصيدة أخرى فى مقاومة الظلم والصمود أمام المحن والخطوب:

عليه فلا بأسف إذا ضاع مجده
أضر عليه من حمام يؤده
يسىء ويثلى فى المحافل حمده
أيفرح فى الدنيا بيوم يعده؟
بها بطلا يحمى الحقبقة شده

إذا المرء لم يدفع يد الجور إن سطت
ومن ذل خوف الموت كانت حياته
وأقتل داء رؤية العين ظالما
علام يعيش المرء فى الدهر خاملا
عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعيش

وقال فى هذا المعنى:

ب) وفيضى آبار (تكرور) تبرا
وإذا مت لست أعدم قبرا
نفس حر ترى المذلة كفرا

أمطرى لؤلؤا جبال (سرندى)
أنا إن عشت لست أعدم قوتا
همتى همة الملوك ونفسى

ومن قوله فى الحنين إلى الوطن والصبر على الشدائد:

ويابنات الأيك نوحى معى
مرى برىاك على مربعى
بالله غنى طربا واسجعى
بذمه الدمع فلا تهجعى

فيا دموع القطر سبلى دما
وأنت يانسمة (وادی) الغضا
وأنت يا عصفورة المنحنى
وأنت ياعين إذا لم تفسى

(١) النشب: المال والعقار.

(٢) الناطل: الشيء القليل.

(٣) القاطل: القاطع

أبين أرعى النحم في سدفة ضلَّ بها الصبح فلم يطلع

فهل إلى الأنسواء من غاية أم هل إلى الأوطان من مرجع؟
لا تأس يا قلبُ على ما مضى لابد للمحنة من مقطع

يتمنى أن يرى مصر

وقال في منفاه يتمنى أن يرى مصر:

يا حبذا جرعةٌ من ماءٍ محنيةٍ ونسمةٌ كسميم الخلد فد حملت
ياهل أرانى بذاك الحى مجتمعاً
وضجة فوق برد الرمل بالقاع^(١)
رياً الأزاهر من ميثٍ وأجرع^(٢)
بأهل ودى من قومي وأساعى؟

وقال في هذا المعنى:

أبيت حزيناً في (سرنديب) ساهراً إذا خطرت من نحو (حلوان) نسمة
شبابٌ وإخوانٌ رزئتُ ودادهم
طوال الليالى والخليون هُجِّدُ نَزَتْ بين قلبى شعلة تتوفد
وكل امرئٍ في الدهر يشقى ويسعدا

ومن قصيدة له في هذا المعنى قالها في منفاه يتشوق إلى الوطن:

هل من طبيبٍ لداء الحب أوراقى قد كان أبقى الهوى من مهجنى رمقاً
وفيهما يقول:
يتشفى عليلاً أخا حزن وإيراق^(٣) حتى جرى الينُّ فاستولى على الباقي

باروضة النيل لأمستك بائقةٌ ولا برحت من الأوراق في حُلَلٍ
يا حبذا نسَمٌ من جوها عبيقٌ مرعى جيادى وماوى جيرتى وجمى
ولا عدتك سماءً ذات إغداق^(٤) من سندس عبقرىّ الوشى برّاق
يسرى على جدول بالماء دفّاقى قومى ومنسبتُ آدابى وأعراقى

(١) المحنية، ما اتحنى من الأرض

(٢) الميب، جمع ميناء الأرض اللينة

(٣) الراعى، اسم فاعل من رقاها يرفيه أى عوده فهو راق.

(٤) البائقة الداهية والبليّة ولا عدتك أى لا يجاوزتك

أصبوا إليها على بُعدٍ ويعجبنى
وكيف أنسى دياراً قد تركتُ بها
أنى أعيش بها فى ثوب إملاق
أهلاً كراماً لهم ودى وإشفاقى

* * *

فيا بريد الصبا^(١) بلغ ذوى رحى
وأنت يا طائراً بيكى على فنن
أذكرتى ما مضى والشمل مجتمع
وقال أيضاً فى منفاه:

ردوا على الصبا من عصرى الخالى
ماض من العيش مالاحت مخايله
أدهى المصائب غدر قبله ثقة
وهل يعود سواد اللمة البالى؟
فى صفحة الفكر إلا حاج بلبالى
وأصبح الظلم صد بعد إقبال

* * *

لا عيب فى سوى حرية ملكت
قلبى سليم ونفسى حرة ودى
بلوت دهرى فما أهدت سيرته
حليت شطريه من يسر ومعسرة
لم يبق لى أرب فى الدهر أطلبه
وأين أدرك ما أبغيه من وطره؟
لا فى (سرنديب) لى إلف أجاذبه
أبيت منفردا فى رأس شاهقة
إذا تلفت لم أبصر سوى صور

أعتنى عن قبول الذل بالمال
مأمونة ولسانى غير ختال
فى ابق من لياليه ولا تالى
وذقت طعميه من خصب وإحمال
إلا صحابة حر صادق الخال
والصدق فى الدهر أعياء كل محتال
فضل الحديث ولاخل فيرعى لى
مثل القطامى فوق المربأ العالى
فى الذهن برسمها نقاش آمالى

* * *

علام أجزع والأيام تشهد لى
راجعت فهرس أنارى فما لمحت
فكيف ينكر قومي فضل باردق
بصدق ما كان من وسمى وإغفالى
بصيرتى فيه ما يُزرى بأعمالى
وقد سرت جكمى فيهم وأمثالى

(١) الصبا بالفتح. ربح معروفة.

وإن غدوت كريم العمم والخال
تلوح في وجنة الأيام كالخال
وهتدى بسناها كل قوال
في صفحته فقولي خط تمثالي
بين الأنعام فليس التبع كالضال
مركب من عظام ذات أوصال

فميلا إلى (المقياس) إن خفتما فقدي
شفائى من سقمى وبرئى من وجدى

أين من (مصر) من أقام (بكندى)^(١)
رونق السيف واهتزاز الفرند
كالعذارى يسحبن وشى الفرند
هى أهبى من كل عقد ويند
وهى تسقى به سلافة قند
قدح الشوق فى الفؤاد بزند

الحنين إلى الأهل والولد

وقال فى منفاه وقد رأى فى المنام ابنته الوسطى:

وما الطيف إلا ماتريه الخواطر
بأوراقه والنجوم بالأفق حائر
محيط من البحر الجنوبى زاخر
سوى نزوات الشوق حادٍ وزاجر
أقام ولو طالت على الدياجر

أنا ابن قولى وحسبى فى الفخار به
ولى من الشعر آيات مفصلة
ينسى لها الفاقد المحزون لوعته
فانظر لقولى تجد نفسى مصورة
ولا تغرنك فى الدنيا مشاكلة
إن ابن آدم لولا عقله شبحُ

ومن قصيدة له يتشوق إلى مصر:

خليلى هذا الشوق لاشك قاتلى
ففى ذلك (الوادى) الذى أثبت الهوى
وقال فى هذا المعنى:

طال شوقى إلى الديار ولكن
حبذا (الثيل) حين يجرى فيدى
تثنى الغصون فى حافتيه
قلدهما يد الغمام عقودا
كيف لا تهتف الحمام عليه
كلما صورته نفسى لعينى

تأوب^(٢) طيف من (سميرة) زائر
طوى سدفة^(٣) الظلماء والليل ضارب
فيالك من طيف ألم ودونه
تخطى إلى الأرض وجداً وما له
ألم ولم يلبث وسار وليته

(١) كندى مدينة صغيرة فى جزيرة سيلان (سرنديب).

(٢) تأوب. أى أتى ليلاً.

(٣) السدفة. الستر.

وعهدى بمن جادته به لا تخاطر
ولم تنحسر عن صفحتها الستائر
ويأقرب ما التفتت عليه الضمائر
لما طار لي فوق البسيطة طائر
فكل امرئ يوماً إلى الله صائر

وصلت لما أرجوه بما أحاذر
وتنهض بالمرء الجدود العوائر
ويُشرق وجه الظن والخطب كاشراً
يحاذره من دهره فهو خاسر
فليس له في معرض الحق ناصر
فما هو إلا طائش اللب نافر
ولا ذنب لي إن عارضتني المقادر

تقاسمها في الأهل بإدٍ وحاضر
وكم سيّد دارت عليه الدوائر
وتنزو^(٣) بعوراء الحقود السرائر
غيابتها والله من شاء ناصر
ترامت بأفلاذ القلوب الحناجر

إلى غاية تَنفَّت فيها المرائر
على فلكة الساقين فيها المآزر

تحمل أهوال الظلام مخاطرا
«خاسية^(١)» لم تدر ما الليل والسرى
فيا بُعد ما بيني وبين أجبتى
ولولا أمانى النفس وهى حياتها
فان تكن الأيام فرّقن بيننا

إلى أن قال:

فلا يشمت الأعداء بي فلربما
فقد يستقيم الأمر بعد اعوجاجه
ولى أمل في الله تحيا به المنى
إذا المرء لم يركن إلى الله في الذى
وإن هو لم يصبر على ما أصابه
ومن لم يذق حلو الزمان ومُرّه
على طلاب العزّ من مستقره

إلى أن قال:

فان كنت قد أصبحت فل^(٢) رزية
فكم بطل فلّ الزمان شبّاتهُ
فسوف يبين الحق يوماً لناظري
وما هى إلا غمرة ثم تنجلي
فقد حاظني في ظلمة الحبس بعدما

فمهلاً بنى الدنيا علينا فإننا
تطول بها الأنفاس هراً^(٤) وتلتوى

(١) أى بنت خمس سنوات.

(٢) فل. أى منهزم.

(٣) تنزو: تطمح يقال: نزا به قلبه طمح.

(٤) هرا بالضم تنابع الأنفاس من الإعياء في اللسان.

هنالك يعلو الحق والحق واضحٌ ويسفُّل كعب الزور عانر
وعبا قليل ينتهى الأمر كله فما أولٌ إلا ويتلوه آخر

يشيد بعظمة الأهرام

قال يصف (الأهرام) ويشيد بعظمتها:

سل (الجيزة) الفيحاء عن (هرمى) مصر لعلك تدرى غيب ما لم تكن تدرى
بناء ان رَدًّا صولة الدهر عنهما ومن عجب أن يغلبا صولة الدهر
أقاما على رغم الخطوب ليشهدا لبانيهما بين البرية بالفخر
فكم أمم في الدهر بادت وأعصر خلت وهما أعجوبة العين والفكر
تلوح لآثار العقول عليهما أساطير لا تنفك تتلى إلى الحشر
رموز لو استطلعت مكنون سرها لأبصرت مجموع الخلائق في سطر
فما من بناء كان أو هو كائن يدانيهما عند التأمّل والخبر

وختمها بقوله:

فيا نسمات الفجر أذى تحيى إلى ذلك البرج المظل على النهر
وبالمعات البرق إن جرت بالحوى فصوبى عليها بالنشار من القطر
عليها سلام من فؤاد متيم بها لا بربات القلائد والشذر^(١)
ولا برحت في الدهر وهى خوالد خلود الدراى والأوابد من شعرى

شعر القتال

ومن قصيدة له فى إحدى المعارك التى خاضها، ويبدو منها مبلغ شجاعته وصبره على أهوال القتال.

ولما تداعى القول واشتبك القنا ودارت كما تهوى على قطبها الحرب
وزَّين للناس الفرار من الردى وماجت صدور الخيل والتهب الضرب
ودارت بنا الأرض الفضاء كأننا سقينا بكأس لا يفيق لها شرب
صبرت لها حتى تجلت سماؤها وإنى صبور إن ألم بي الخطب

(١) الشذر: صفار اللؤلؤ.

الفساد في عهد إسماعيل

وقال من قصيدة يصف سوء الحكم وظلم الحكام في عهد إسماعيل، وينصح قومه بالمطالبة بحقوقهم والمبادرة بإصلاح شؤونهم قبل أن تسوء العقبى، وهى من شعره السياسى الوطنى الرائع:

قامت به من رجال السوء طائفة
من كل وغد يكاد الدست يدفعه
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت
إلى أن قال:

فبادروا الأمر قبل الغوث وانتزعموا
وطالبوا بحقوق أصبحت غرضاً
حتى تعود سماء الأمن ضاحية
شكالة الريث فالدنيا مع العجل
لكل منتزع سهماً ومختل
ويرفل العدل في ضفاف من الحلل

الجيش والدستور

وقال فى أوائل عهد الخديو توفيق يدعو إلى الشورى وتقوية الجيش:

أمران ما اجتمعاً لقائد أمة
إلا جنى بهما ثمار السؤدد
(جمع) يكون الأمر فيما بينهم
(شورى) وجند للعدو بمرصـد

يندد بالفسائس

وقال من قصيدة يشكو فيها من الفسائس التى كانت تحت حوله:

نقموا على حميتى فتألبوا
حزباً على وجمعوا ما أجمعوا
وسعوا بفريتهم فلما صادفوا
سمعا يميل إلى الملام توسعوا
لا عيب فى سوى حمية ماجد
والسيف يغليه المضاد فيقطع

يحث على الاعتدال، ويستنكر الذل

قال فى هذا المعنى:

إذا شئت أن تحيما سعيداً فلا تكن
ولا تحترق ذا فاقة فلربما
لدوداً ولا تدفع يد اللين بالقسر
لقيت به شهماً يبرّ على المشرى

فَرُبُّ فَقِيرٍ يَلَأُ الْقَلْبَ حِكْمَةً وَرُبُّ غَنِيٍّ لَا يَرِيشُ وَلَا يَبْرِي^(١)
 وَكُنْ وَسَطًا لَا مَشْرَبًا إِلَى السُّهَى وَلَا قَانَعًا يَبْغِي التَّزْلِفَ لِلصُّفْرِ^(٢)
 فَأَحْمَدُ أَخْلَاقَ الْفَتَى مَا تَكَافَأَتْ بِمَنْزِلَةٍ بَيْنَ التَّوَاضِعِ وَالْكَبْرِ
 وَلَا تَعْتَرِفُ بِالذَّلِّ فِي طَلَبِ الْغَنَى فَإِنَّ الْغَنَى فِي الذَّلِّ شَرٌّ مِنَ الْفَقْرِ

العودة إلى الوطن

وقد عاد إلى الوطن سنة ١٩٠٠ بعد أن فقد نور عينيه في منفاه، فاستقبل مصر بقصيدته التي مطلعها:

أبابل مرأى العين أم هذه مصر فإني أرى فيها عيونًا هي السحر
 فإن يك موسى أبطل السحر مرة فذلك عصر المعجزات وذا عصر
 إلى أن قال:

وإني أمرؤ تأبى لي الضيم صولة مواقعها في كل معترك حمر
 أبي على الحدثان لا يستفزني عظيم ولا يأوى إلى ساحتي ذعر

عبرة الحوادث

ومن قصيدة له قالها بعد عودته من المنفى تفيض توجعًا لحالة البلاد بعد أن جثم الاحتلال على صدرها، وقد تذكر عندما مر بقصر الجزيرة أيام إسماعيل حين كان في أوج سلطانه، وما انتهى إليه أمره من خلع وخسران، وتذكر أخطائه التي كان لها أثرها في التمهيد للاحتلال، فلم يترحم على عهده، ونظم هذه القصيدة معتبرًا ومذكرًا، وهي من آيات الشعر في العظة والاعتبار، وقال:

هل بالحمى عن سرير الملك من يزع؟ هيات قد ذهب المتبوع والتبع!
 هذى (الجزيرة) فانظر هل ترى أحدًا يتأى به الخوف أو يدنو به الطمع؟
 أضحت خلاء وكانت قبل منزلة للملك منها لو فقد العزم مرتبع
 فلا مجيب يرد القول عن نبأ ولا سميع إذا ناديت يستمع
 كانت منازل أملاك إذا صدعوا بالأمر كادت قلوب الناس تتصدع
 عاثوا بها حقيقة حتى إذا نهضت طير الحوادث من أوكارها وقعوا

(١) أي لا ينعم ولا يضر.

(٢) القانع هنا: السائل المتذلل، والصفير: الذهب.

يد الحوادث ما شادوا ولا رفعوا
أيدي سبا وتخلت عنهم التسيع
كيد العدو فما ضرروا ولا نفعوا

لو أنهم علموا مقدار ما فغرن
دارت عليهم رحى الأيام فانشعبوا
كانت لهم عصب يستدفعون بها

أين المناصل والخطية الشرع؟
أحداثه أو بقي من شر ما يفع
ولا تعطلت الأعياد والجمع
وإنما صفوه بين الورى لمع
ما شاب أخلاقه حرص ولا طمع
من لم يزل بغير العيش ينخدع
مار تمر وأيام لها خدع
وليس يعلم ما يأتي وما يدع

أين المعامل بل أين الجحافل بل
لا شيء يدفع كيد الدهر إن عصفت
زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم
والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر
لو كان للمرء فكر في عواقبه
وكيف يدرك ما في الغيب من حدث
دهر يغر وآمال تسر وأعد
يسعى الفتى لأموار قد تضر به

مهلا فإنك بالأيام منخدع
لعل قلبك بالإيمان ينتفع
وكل ثوب إذا مارت ينخلع

يا أيها السادر المزور من صلف
دع ما يريب وخذ فيما خلقت له
إن الحياة لثوب سوف تخلعه

وظل البارودي بعد عودته من المنفى في عزلة من الناس، لا يجتمع إلا بالصفوة المختارة من
الأدباء والشعراء والحافظين لعهد، إلى أن كانت وفاته سنة ١٩٤٠، فخلف مجداً لا يبلى على
الزمان.

اسماعيل صبرى

١٨٥٤ - ١٩٢٣



شاعر بطبعه وسليقته، وطنى بفطرته وحسن سيرته، أدرك عهد الاحتلال فى إبان قوته وسطوته، فتحررت شاعريته، تجاهد الاستعمار، وتمجد المعانى الوطنية، وتخلدها فى قصائد غرّ تشبه أن تكون تغاريد من نبع القلب الصافى وفيض الإحساس المرهف والذوق الرفيع.

كان شاعراً رقيقاً مجيداً، عميق الوجدان، مقلاً فى شعره، محتاطاً فى نشر ما تجود به قريحته، كان علماً من أعلام الطبقة الأولى من شعراء العصر الحديث، وثانيهم بعد البارودى.

ولد سنة ١٨٥٤ بمدينة القاهرة، والتحق بمدرسة الابتدائية سنة ١٨٦٦، ثم بمدرسة التجهيزية والإدارة (الحقوق)، وأتم دراسته بمصر سنة ١٨٧٤، ثم التحق بالبعثة المصرية إلى فرنسا، ونال شهادة الليسانس فى الحقوق من كلية «أكس» سنة ١٨٧٨، ولما عاد إلى مصر التحق بالمناصب القضائية حتى عين وكيلاً لوزارة الحفانية (العدل) سنة ١٨٩٩، واعتزل الخدمة فى سنة ١٩٠٧.

ظهرت مواهبه الشعرية منذ نعومة أظفاره، وظلت تنمو وتزدهر طول حياته، وكانت شاعريته ووطنيته عنوان مجده وموضع فخاره.

كان معاصروه يلقبونه (شيخ الشعراء)، واعترف له بذلك زملاؤه، شوقى وحافظ ومطران وعبد المطلب ونسيم وغيرهم، وإنك لتلمح تقدير شوقى لزعامتة من قوله فى رثائه:

أيام أمرح فى غبارك ناشئاً تهج المهار على غبار خصاف^(١)
أتعلم الغايات كيف ترام فى مضمار فضل أو مجال قواف

(١) المهار: جمع مهرة وخصاف فرس مسهور فى العرب

ومن قول حافظ في رثائه أيضاً:

لقد كنت أغشاه في داره وناديه فيها وزدهم
وأعرض شعري على مسمع لطيف يحس نبو السوتر

تتجلى في شعره القومي روح الحب الخالص للوطن، والشجوة الحزين على مآسيه، والاستمسك بالعزة والكرامة، والشمم والإباء، ولقد عبر بأرق القصائد عن شعور مواطنيه، وترجم عن آمالهم وآلامهم.

كانت وطنيته عميقة الجذور، عاش حياته لم يزر إنجليزياً قط، ولم يذهب يوماً إلى الوكالة البريطانية، في حين أنها كانت مع الأسف مقصد الكبراء والعظماء في ذلك العهد، وطالما استماله اللورد كرومر إلى زيارته ليكسبه إلى صف المناصرين للاحتلال، فاستعصم وأبى، ولما قيل له لعلك لو فعلت كنت اليوم رئيساً للوزارة، قال: وماذا تفيدني رأسة الوزارة غير اغضاب ضميري وإرضاء ذوى المطامع وأصدقاء الجاه^(١).

كان صديقاً صدوقاً للزعيم مصطفى كامل، أيده في جهاده منذ الساعة الأولى ولم يكن يكتف مناصرته إياه في أى منصب تولاه.

كان محافظاً للاسكندرية سنة ١٨٩٦ - ١٨٩٩، وأراد مصطفى كامل أن يلتقى بها خطبة من خطبه الوطنية الكبرى، فأوعزت إليه الحكومة أن يمنع إقامة الاجتماع الذى أعد لإلقاء الخطبة، بحجة المحافظة على الأمن والنظام، فأبى صبرى على الحكومة ما أرادت، ورخص بإقامة الاجتماع، وصارح الحكومة بأنه مسئول عن الأمن والنظام، وألقى مصطفى كامل خطبته.

ولما عين وكيلًا لوزارة الحقانية (العدل) في نوفمبر سنة ١٨٩٩ ظل على مودته لمصطفى، وكان في غالب الأيام يخرج من الوزارة ويعرج بدار اللواء المقابلة لها ليزور صاحب اللواء ويقضى معه الوقت الطويل، ولم يمنعه منصبه من المجاهرة بصداقته له ومناصرته إياه في الوقت الذى كان الكبراء من الموظفين وغيرهم يخشون عواقب الاتصال به، وإلى ذلك يشير شوقى في رثائه لاسماعيل صبرى إذ يقول:

وَسَّحَ الشَّبَابَ وَقَدْ تَخَطَّرَ بَيْنَهُمْ هل متعوا بتمسح وطواف؟
لو عاش قدوتهم ورب (لوائهم) نكس (اللواء) لثابت وقاف
فلکم سقاہ الودّ حين وداده جَرَّبَ لأهل الحكم والاشراف

(١) ذكر هذه الواقعة الأستاذ أحمد الزين في مقدمته لديوان إسماعيل صبرى ص ٣٢.

دعوته إلى الدستور

وإنك لتجد في شعر إسماعيل صبري انسجاماً مع سياسة مصطفى كامل وتمجيذاً للوطنية
ومناصرة للأمة في جهادها للحرية والاستقلال.
قال في قصيدة وجهها إلى الخديو عباس حلمي الثاني يوم عيد جلوسه سنة ١٩٠٨ يدعو إلى
الدستور.

سدد سهام الرأي (بالشورى) يحط بك منه في ظلم الحوادث فيلق
واسبق به واضرب به وأفتح به ما شئت من باب أمامك يُغلق

حادثة دنشواى

وقال فيها يصور حادثة دنشواى ويصف فظائع الإنجليز فيها والعفو الذى أصدره الخديو
عن مسجونيهـا.

وأقلت عثرة قرية حكم الهوى
إن أن فيها بائس مما به
وارحمتا لجناتهم ماذا جنوا؟
ما زال يُقذى كل عين ما رأوا
حتى حكمت فجاء حكمك آية
نزلت ترفرف حول كاتب نصها
شكرتك مصرُ على سلامة بعضها
ذكرت لك الصفح الجميل ولم تنزل
قانون (دنشواى) ذاك صحيفة
هل يرتجى صفو ويهدأ خاطر
ومضاجع القوم النيام أو اهل

في أهلها وقضى قضاء أخرق
أورن جاوبه هناك مطوق^(١)
وقضاتهم^(٢) ما عاقهم أن يتقوا؟
فيها ويؤذى كل سمع ما لقوا
للناس طي صحيفة تتألق
زمرأ ملائكة الرضى وتحلق
شكرأ يغرب في السورى ويشرق
ترمى إلى أمر أجل وترمق^(٣)
تتلى فترتاع القلوب ونخفق
والموت حول نصوصها يترقق؟
بمعذب يردى وآخر يرهق

(١) المطوق. السجن.

(٢) قضاتهم أى قضاة المحكمة المختصة التى حكمت عليهم.

(٣) يريد الدستور.

لن تبلغ الجرحى سفاءً كاملاً ما دام جارحها المهند يبرق
فاحكم بغير العنف واكسر سيفه فالحلم أجمل والمكارم أليق

رثاؤه لمصطفى كامل

وقد جزع لوفاة مصطفى كامل جزعاً شديداً، وشيع جثمانه إلى مرقدہ الأخير (يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٨)، ووقف على قبره يلقي قصيدته في وداعه، ولم يكد يلقى البيت الأول منها وهو:

أداعى الأسى في مصر ويحك داعياً هددت القوى إذ قمت بالأمس ناعيا
حتى ظهر عليه التأثير الشديد والإعياء، ولم يستطع أن يتم القصيدة، وقد ألقاها في حفلة
تأبينه، وتدل هذه القصيدة على مبلغ حبه له وإخلاصه لصداقته، وإعجابه به، وشدة حزنه عليه،
فجاءت آية في بلاغة الرثاء، ورقة التعبير عن الحزن والألم، وكان كل بيت فيها دمعة وفاء
تذرفها عين الصديق على صديقه الحميم. قال:

أجل أنا من أرضاك خلا موافياً وبرضيك في الباكين لو كنت واعياً
وقلبي ذاك المورد العذب لم يزل كما ذقت منه الحب والود صافيا
يسوى أنه يعتاده الحزن كلما رآك عن الحوض المهتد نائيا
ويعثر في بعض الخطوب إذا مشى إلى بعض ما يهوى فيرجع داميا
وإن رامه سرب المسرات لم يجد محلا به من لاعج الهم خاليا
ألا علالني بالتعازي وأقنعا فؤادي أن يرضى بهن تعازيا
وإلا أعيناني على النوح والبكا فشأنكما شأنى وما بكما بيا
وما نفاعى أن تبكيا غير أننى أحب دموع البر والمرء وأفيا

* * *

أيا (مصطفى) تالله نومك رابنا أمثلك يرضى أن ينام اللياليا
تكلم فإن القوم حولك أطرقوا وقل ياخطيب الحى رأيك عاليا
لقد أوشكت من طول صمت وهجرة تخالك أعواد المنابر فانيا
وتبكيك لولا أن فيها بقية تغلها من ذلك الصوت داويا
فهل ألت ما بين جفك والكرى محالفة أم قد أمنت الأعاديا؟

* * *

فقدناك فقدان الكميّ سلاحه
وبتنا وقد باتت رفاتك في الثرى
ولولا ترات من أمانيك عندنا
طواك الردى طيء الكتاب تضمنت
مضاءً إذا البيض انتمت لأصولها
ورأى يجلى اليأس واليأس ضارب
إذا ما تقاضينا ولم تك بيننا
فليتك إذ أعيت كل مساجل
وليتك إذ ناضلت عن مصر لم تفض

وسارى الدياتي كوكب القطب هاديا
سقاها الحيا^(١) نستبىء الدمع هاميا
كريمٌ بكينا إذ بكينا الأمانيا
صحائفه من كل فخر معانيا
غضبنا إذا سَمَاك قوم يمانيا
على الأفق ليلا فاحم اللون داجيا
ذكرناها حتى نجيد التقاضيا
قنعت فلم تعي الطبيب المداويا
مع الحبر قلبًا يعلم الله غاليا

* * *

لقد ضاع إخلاص الطبيب وحذقه
ولم تنتهز تلك العقاقير فرصة
نحييك سيفًا بات في التراب مغمدًا
سدى فبكي الفخر الذي كان راجيا
ترى الناس فيها فضل (بقراط) باديا
تقلّده فيما مضى الحق ماضيا

مواساته لجرحي الحرب

ولقد كان له شعر حماسي يملأ القلوب أملا وشجاعة.
قال من قصيدة له مخاطبًا الأمير عمر طوسون يشكره على مواساته جرحى الحرب:
وكم تعهدت جرحى من أسود وغى
مستنجدًا من بنى مصرٍ إلى شمم
مستهميًا هاميًا و (النيل) في وجل
من أن تجود به أيانكم حذر
إذا رأوا ثلمة في حوضهم جبروا
إن يكشر الدهر عن أحداثه كشروا

الوحدة بين العنصريين

وقال داعيًا إلى الوحدة الوطنية بين عنصرى الأمة:
عنى فيك اليوم قبطية
ويأخذ البر وآى الوفا
تروى الأسى عن مسلم موجع
عن الكتاب الطبيب المشرع

ومن قصيدة له حين اشتد الخلاف بين المسلمين والأقباط سنة ١٩١١ يدعو إلى الوحدة الوطنية:

خففوا من صياحكم ليس في مصر لأبناء مصر من أعداء
دين عيسى فيكم ودين أخيه أحمد يأمراننا بالإخاء
مصر أنتم ونحن إلا إذا قا مت بتفريقنا دواعي الشقاء
مصر ملك لنا إذا تماسكنا وإلا فمصر للغرباء

تنديده بصنائع الاحتلال

وقال في نوفمبر سنة ١٩٠٨ يندد بسياسة مصطفى فهمي حين سقطت وزارته وكان مواليا للاحتلال خاضعا له:

عجبت لهم قالوا سقطت ومن يكن مكانك يأمن من سقوط ويسلم
فأنت امرؤ ألصقت نفسك بالثرى وحرمت خوف الذل ما لم يحرم
فلو أسقطوا من حيث أنت زجاجة على الصخر لم تصدع ولم تتحطم^(١)

في الإباء وعزة النفس

ومن قوله في الإباء وعزة النفس، والزراية بالمتكبرين:

أيها التائه^(٢) المدلّ علينا وبك قل لي من أنت؟ إني نسيت
لو فرشت الطريق درًّا لأخطو فوقه نحو داركم ما رضيت
أنا أغنى من أن يقال فلان وفلان تزاورا ما حييت!

وقال في الاستمساك بالكرامة:

لكسرة من رغيف خبز تؤدم بالملح والكرامة
أشهى إلى الحرّ من طعام يُختم بالشهد والملامة

(١) أى أن مصطفى فهمي كان في منزلة دانية لا يؤلمه السقوط منها، بحيث لو أسقطوا زجاجة من ذلك المكان المنخفض لم تنكسر.

(٢) التائه: المتكبر من التيه بكسر التاء.

يستنكر تعدد الزوجات

وقال يذم تعدد الزوجات:

يا من تزوج باثنتين ألا اتئدُ ألقىت نفسك ظالما في الهاوية
ما العدل بين الضرتين بممكن لو كنت تعدل ما أخذت الثانية!

التوحيد والحرية

وله في تمجيد التوحيد والحرية كلمات بليغة وإن لم تكن شعرا إلا أنها تشبهه في النغم والرنين
وقوة الأثر، وهي من الشعر المنتور البليغ. قال:

أحب التوحيد في ثلاثة: الله. والمبدأ. والمرأة.
وأحب الحرية في ثلاثة:

حرية المرأة في ظل زوجها
وحرية الرجل تحت راية الوطن
وحرية الوطن في ظل الله.

تنديده بالظلم والاستعمار

قال في قصيدة له يخاطب (الدواة):

وإذا الظلم والظلام استعانا يوم نحس بأجهل الجاهلينا
واستمدا من الشرور مدادا فاجعليه في قسمة الظالمينا

إلى أن قال:

وإذا كان فيك نقطة سوء كونت من خيانة تكويننا
فاجعليها قسط الذين استباحوا في السياسات حرمة الأضعفينا

تنديده بالمستعمرين

قال ينعى على إيطاليا عدوانها على طرابلس (ليبيا) سنة ١٩١١ ويندد بما في فعلتها من الغدر
ونقض العهود والمواثيق:

بعض هذا الجفاء والعدوان راقبى الله أمة الطليان!

قد ملأت الفضاء غدرًا وجهلاً
 وبعثت السفين ترمى طرايل
 تخرق البحر والمواثيق والعـ
 سيرتها أضغان قوم لقوم
 من رآها تجرى توهم أن الـ
 لا وربّ الأسطول ما حمل الأسد
 إن قوم الظليان أحرص من أن
 وتسنت غارب الطفيان
 سر بحرب مشبوبة النيران
 هدد جهارا وذمة الجيران
 سلموا من دناءة الأضغان^(١)
 قوم هموا للثأر للأوطان
 طول جيشًا إلى حمى الحبشان^(٢)
 يفضحوا مرتين في ميدان

الامتيازات الأجنبية

وقال في هذه القصيدة يشير إلى الامتيازات الأجنبية التي منحتها الدول الشرقية للأوروبيين فقابلوها بالغدر والعقوق واتخذوها وسيلة للعدوان على هذه الدول:

ويحهم ما لصنعهم أبطر القو
 ولماذا تمخض السلم عن حر
 منح قد بذرن في سر أيدي
 هكذا فلتك المروءات في عص
 م فعقوا ما كان من إحسان؟
 ب لظاها يشوى الوجوه عوان؟
 كن مذكن منبت الكفران
 ر البهاليل من بني الرومان!

القوة سياج الاستقلال

وقال فيها يدعو إلى التسليح بالقوة للدفاع عن الذمار وصد مطامع الاستعمار ويحذر أمم الشرق من غدر الدول الاستعمارية وعدوانها وتبنيها الشر تحت ستار الود والصداقة:

لا يثق بعضنا ببعض وهذا
 إن تسلّم على الغريب فسلم
 ربما أصبح العناق صراعًا
 ما أعد الإنسان للإنسان
 في ظلال السيوف والمسران^(٣)
 في زمان الآداب والعرفان^(٤)

(١) يريد بالذين سلموا من دناءة الأضغان العرب وهم المعتدى عليهم في هذه الحرب.
 (٢) يشير بهذا البيت والذي يليه إلى هزيمة الظليان أمام الأحباش في معركة عدوه المشهورة سنة ١٨٩٦ ويعيرهم بالسكوت عن الأخذ بتأرهم في هذه المعركة.
 (٣) يريد المران الرماح أى القوة المسلحة.
 (٤) في هذا البيت ينهكهم بالدول الأوربية وما تنطوى عليه من الغدر ونقض العهود في عصر المدنية والعلوم والآداب.

التغنى بعظمة مصر

وله قصيدة خالدة يتغنى فيها بعظمة مصر ومفاخرها، ويستحث مصر الحديثة على إحياء مجدها، قالها سنة ١٩٠٩ على لسان فرعون مصر يخاطب قومه ويبعث فيهم روح العمل لبناء مجد الدولة قال:

لا القوم قومي ولا الأعوان أعواني
إذا ونى يوم تحصيل العلاء واني
إلى أن قال:

لا تقربوا (النيل) ان لم تعملوا عملا
ردوا المجرّة كدّا دون مورده
وابنوا كما بنت الأجيال قبلكم
لا تتركوا مستحيلا في استحالتة
مقالة هبطت من عرش قائلها
مادت لها الأرض من دعر ودان لها
يبنون ما تقف الأجيال حائرة
من كل مالم يلد فكر ولا فتحت
ويشبهون إذا طاروا إلى عمل

فماؤه العذب لم يخلق لكسلان
أر فاطلبوا غيره ريبا لظمان
لا تتركوا بعدكم فخرا لإنسان
حتى يميظ لكم عن وجه إمكان
على مناكب أبطال وشجعان
ما في المقطم من صخر وصوان
أمامه بين إعجاب وإذعان
على نظائره في الكون عينان
جنا تطير بأمر من (سليمان)

(أهرامهم) تلك حيّ الفن متخذنا
قد مر دهر عليها وهي ساخرة
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى
جاءت إليها وفود الأرض قاطبة
فصغرت كل موجود ضخامتها
وعاد منكر فضل القوم معترفا
تلك الهياكل في الأمصار شاهدة
إذا أقام عليهم شاهدا حجر

من الصخور بروجها فوق كيوان
بما يضعضع من صرح وإيوان
ما يأخذ النمل من أركان نهلان
تسعى اشتياقا إلى ما خلد الفاني
وغض بنيانها من كل بنيان
يشئ على القوم في سرّ وإعلان
بأنهم أهل سبق. أهل إمعان
في هيكل قامت الأخرى بيرهان

كأنما هي والأقوام خاشعة
تستقبل العين في أثنائها صور
لو أنها أعطيت صوتا لكان له
وختما يقوله:

أين الأولى سجلوا في الصخر سيرتهم
بادوا وبادت على آثارهم دول
وخلفوا بعدهم حربا مخلدة
وُزحزحوا عن بقايا مجدهم وسطا
ويل له هتك الأستار مقتحما
للجهل أرجح منه في جهالته

وصغروا كل ذي ملك وسلطان
وأدرجوا طيِّ أخبار وأكفان
في الكون ما بين أحجار وأزمان
عليهم العلمُ ذاك الجاهل الجاني
جلال أكرم آثار وأعيان
إذا هما وزنا يوما بميزان

إلى شوقي في منفاه

وكان على ود صميم مع شوقي، وحينما نفى شوقي من مصر خلال الحرب العالمية الأولى ظل على صلته به، وكان شوقي قد أرسل إليه من منفاه بالأندلس سنة ١٩١٧ بيتين من قصيدة له مشهورة^(١) قال فيها:

يا سارى البرق يرمى عن جوانحننا
لما ترقرق في دمع السماء دماً
فأجابه صبرى بهذه الأبيات:

يا وارض البرق كم نبهت من شجن
فالماء في مقل، والنار في مهج
لولا تذكر أيام لنا سلفت
يا آل ودى عودوا لا عدمتكم
يا نسمة ضمخت أذيالها سحرا

بعد الهدوء ويهمى من مآقينا^(٢)
هاج البكا فخصبنا الأرض باكيننا
في أضلع ذهلت عن دائها حيننا
قد حار بينهما أمر المحبيننا
مايات يبيكى دما في الحى باكيننا
وشاهدوا ويحكم فعل النوى فينا
أزهار أندلس هبى بواديننا^(٣)

(١) سيرد ذكرها في الحديث عن شوقي.

(٢) يريد شوقي أن البرق قد اقتبس اشتغاله من نار جوانحه وتحيل أن ما يهمى به البرق من المطر مشتق من دموعه.

(٣) يخاطب صبرى نسمة الأندلس التي عطرها أزهاره ويعيش في جوها شوقي ويناجيها أن تهب عليه في مصر.

٤٣

وقد عاش اسماعيل صبرى كريم الخلق، صادقا عيوفا، أيبا وفييا لوطنه وأصدقائه، معتزا بكرامته، صريحا محبا للحق، بعيدا عن الزهو والخيلاء، وظل على هذه الأخلاق الفاضلة إلى أن توفى في ٢١ مارس سنة ١٩٢٣ بعد مرض طويل، وخلف كنوز من الشعر والوطنية، والفرائد النفسية، أضفت على اسمه هالة من المجد والخلود.

* * *

أحمد شوقي

شاعر الوطنية الأكبر

١٨٧٠ - ١٩٣٢



بلغ الشعر الوطني ذروته على لسان شوقي وحافظ، فلقد حملوا لواء النهضة الشعرية في العصر الحديث، وتغنيا بالوطنية، وكان للحوادث الكبرى التي وقعت في مصر والشرق صداها في شعرهما، وكلاهما كان له أثره وفضله في تغذية الحركة الوطنية بعيون الشعر الوطني، سطع نجمهما في عصر واحد، وغردا في جيل واحد، وانتقلا إلى جوار ربهما في عام واحد (١٩٣٢) ولم تمض على وفاة حافظ ثلاثة أشهر حتى لحق به شوقي في الرفيق الأعلى.

سمى شوقي أمير الشعراء، ولقب الأمير لم يعد يتفق والروح الديمقراطية، ولم تعد الامارة ترضى على صاحبها

منزلة محترمة، هذا إلى أن شوقي أكبر من أن يمجذ بهذا اللقب، فهل نسميه (سيد الشعراء)؟ إن كلمة السيادة لغير الأمة لم تعد أيضا تتفق والأوضاع الديمقراطية، فهل نسميه (زعيم الشعراء)؟ إنه ولا ريب أقدر شعراء عصره، ولم يكن ينازعه في زعامة الشعر أحد من أئداده ومعاصريه، فلقد عقدوا له لواء الزعامة وبايعوه عليها في المهرجان الذي أقيم له بمصر سنة ١٩٢٧ وجمع أقطاب الشعراء من العالم العربي وخاطبه فيه صنوه حافظ بقوله:

أميرَ القوافي قد أتيتُ مبايعا وهذي وفود الشعر قد بايعت معي

على أن لقب (زعيم الشعراء) لا يكفي للتعريف به والتنويه بمكانته، وخير لقب له أن يسمى (شاعر العربية الأكبر) وأن نسميه في هذا الكتاب (شاعر الوطنية الأكبر)

ولد أحمد شوقي في ١٦ أكتوبر سنة ١٨٧٠^(١) وتعلم في المدارس النظامية، ودخل مدرسة

(١) عن التاريخ الثابت في شهادة الليسانس التي نالها الفقيه من كلية الحقوق بباريس

الإدارة (الحقوق)، في أوائل عهد الاحتلال، وفي سنة ١٨٨٧ سافر إلى فرنسا لدراسة الحقوق والأدب، وأتم دراسته سنة ١٨٩٣.

أدرك شوقي الاحتلال الإنجليزي وهو شاب مهذب مثقف، وعرف كيف عصف الاحتلال باستقلال البلاد، وإذ كانت عبقريته الشعرية قد خلقت وولدت معه ولازمته منذ صباه، فقد قترنت بشعوره الوطني الذي تولد في نفسه بالفطرة، وزاده توهجاً ورسوخاً برؤيته الاحتلال لأجنبي يجهل على صدر البلاد، فامتزجت شاعريته بوطنيته، وكان لمصر وآلامها صدى بعيد وأثر عميق في شعره، وظل حبه للوطن يوجهه في قصائده ويلهمه التغريد له والحنو عليه. التحق منذ عودته إلى مصر بديوان المعية الخديوية، وعلت مكانته لدى الخديو عباس الثاني حتى سمي (شاعر الأمير) ولكن روحه الوطنية لم تتأثر كثيراً من صلته بالقصر هذا إلى أن لخديو عباس كان في أول عهده بالعرش يناوئ الاحتلال والاحتلال يناوئه، حتى إذا جنح بهادنة الاستعمار، لم يكن لهذا التحول أثر كبير في شعر شوقي، اللهم إلا هداة وقتية في الحرب لمشبوبة بين الأمة والاحتلال، على أن تأصل روح الوطنية في نفسه جعله لايجارى الخديو عباس انصرافه عن الحركة الوطنية، ثم في تنكره لها، فبقى شعره ينهل من منبع الوطنية الصافي. وانفصل عن منصبه في القصر بعد خلع الخديو عباس عن العرش في ديسمبر سنة ١٩١٤ بتحرر من المنصب الحكومي، فزادته الحرية قوة وإنتاجاً وتحليقاً في سماء الشعر والفن والخيال، استهدف لاضطهاد السلطة العسكرية البريطانية، إذ قررت نفيه وتركت له اختيار البلد الذي نفي إليه، فاختار أسبانيا (الأندلس)، وبقي على عهده للوطن، ثم عاد من منفاه في فبراير سنة ١٩٢٠، والبلاد في غليان الثورة، فاستقبلت مصر شاعرها الملمهم استقبالا حافلا رائعاً. ويمتاز شعر شوقي بقوة البيان، وروعة الموسيقى الشعرية، وسعة الأفق، والتعمق في استيعاب لحوادث التاريخية، قديمها وحديثها، ولقد جرى فحول الشعراء المتقدمين، وبذمهم في كثير من صائده، وجدد بعض التجديد في الشعر العربي بما اقتبسه عن شعراء الغرب، وعن الثقافة لأوروبية، وسار في التجديد شوطاً بعيداً وخاصة بعد عودته من المنفى، إذ وضع عدة مسرحيات معرية بلغت مبلغاً عظيماً من الفن والموسيقى والجمال، كمصرع كليوباتره، ومجنون ليلي، عنتره، وغيرها، وظل ينتج ويشدو ويبدع، إلى أن توفي في ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢.

الوطنية في شعر شوقي

في قصائد شوقي يسطع نور الوطنية، ويتأجج لهيبها، وهو أغزر الشعراء مادة وأوسعهم إنتاجاً في هذه الناحية، ولقد ظل يستلهم روح الوطنية طول حياته، شاباً وكهلاً وشيخاً، بل إن

سعره الوطني في شيخوخته كان أقوى منه في شبابه، وقد يكون مرجع ذلك إلى تجرده من الاتصال بالقصر بعد خلع الخديو عباس حلمي، كما أسلفنا، ثم إلى نفيه من مصر في أوائل الحرب العالمية الأولى، فأثار البعد عن الوطن شاعريته، وجاد بأبداع قصائده في الحنين إلى مصر وحبها لها والهيام بها إلى درجة التقديس، ومرجع ذلك أيضا إلى تأصل عبقرية الشعر في نفسه، فلم تضعفها السن، ولم ينل منها الزمن وظلت قوية تتدفق حيوية ونشاطا.

والوطنية في شعر شوقي هي فيض الفطرة والإلهام، وليست من صنع الظروف أو التكلف، ولذلك جاءت قوية جارفة، عميقة رائعة.

فتأمل في أول قصيدة له في ديوانه وهي التي قالها في المؤتمر الشرقي الدولي المنعقد بمدينة جنيف عام ١٨٩٤ ومطلعها.

هَمَّتِ الْفَلَكُ وَاحْتَوَاهَا الْمَاءُ وَحَدَاهَا مِنْ تَقَلُّ الرِّجَاءِ

تجدها آية في شعر الملاحم أو الشعر التاريخي، وتحس وأنت تقرؤها أنها قيس من نور الوطنية، فهي سجل ناطق (لكبار الحوادث في وادي النيل)، وقد بلغ عدد أبياتها ثلاثمائة بيت إلا قليلا (تسعين ومائتي بيت)، عرض فيها عرضا أخذها بديعا تاريخ مصر من أقدم العصور إلى عام نظمها، أشاد بعظمتها ومجد مفاخرها، وحنى عليها في كبواتها، واستنزل السخط على كل من اعتدى عليها.

فانظر إلى قوله عن عظمة مصر:

قُلْ لِبَانِ بَنَى فَشَادَ فَعَالِي لَمْ يَجْزُ مِصْرَ فِي الزَّمَانِ بِنَاءِ
لَيْسَ فِي الْمَكْنَاتِ أَنْ تُنْقَلَ الْأَجْبَالُ^(١) شُءًا وَأَنْ تُنَالَ السَّيَاءِ

ولما انتهى في سرد الحوادث إلى الحملة الفرنسية سجل إخفاقها وارتدادها عن مصر، قال:

وَأَتَى النَّسْرُ^(٢) يَنْهَبُ الْأَرْضَ نَهْبًا حَوْلَهُ قَوْمَهُ النَّسُورُ ظِلْمًا
يَشْتَهِي النَّيْلَ أَنْ يَشِيدَ عَلَيْهِ دَوْلَةَ عَرْضُهَا الثَّرَى وَالسَّيَاءِ
حَلَمْتُ رُومَةَ بِهَا فِي اللَّيَالِي وَرَأَاهَا الْقِيَاصِرُ الْأَقْوِيَاءِ
فَأَنْتَ مِصْرَ رُسُلُهُمْ تَتَوَالِي وَتَرَامَتْ سَوْدَانَهَا الْعِلْمَاءِ
وَلَوْ اسْتَشْهَدَ الْفَرَنْسِيْسُ رُومًا لِأَتَتْهُمْ مِنْ رُومَةَ الْأَنْبِيَاءِ
عَلِمْتُ كُلَّ دَوْلَةٍ قَدْ تَوَلَّتْ أَنَا سَمَهَا وَأَنَا الْوِبَاءِ

(١) الأحبال: جمع جبل.

(٢) يقصد نابليون.

قاهر العصر والممالك نابليون ولت قواؤه الكبراء
 جاء طيشاً وراح ومن قبل أطاشت أناسها العلياء
 وانظر كيف يصور في البيتين الآتين سكوت الأهرام وهي تواجه نابليون بأنه سكوت
 السخرية والاستهزاء وكأنها تتنبأ له بالهزيمة في ختام معاركه، قال:

سكتت عنه يوم عيرها الأهرام لكن سكوتها استهزاء
 فهي توحى إليه أن تلك (واتر لو) فأين الجيوش أين اللواء؟
 وتأمل كيف يعبر عن قناة السويس بأنها نكبة على مصر قال:

جمع^(١) الزاخرين كرها فلاكنا ولا كان ذلك الالتقاء
 أحرر عند أبيض للبرابا حصّة القطر منها سوداء
 والقصيدة كلها على هذا الغرار في الإجادة والإبداع، ولقد نظمها وهو في الرابعة والعشرين،
 وكأنما رسم فيها منهجه في الشعر، فهو يقتبس من عبقريته الشعرية، ومن روحه الوطنية معا،
 وقد لازمه هذا الامتزاج في شتى قصائده.

شوقى ومصطفى كامل

سارت نهضة الشعر في مصر إلى جانب النهضة الوطنية التي هبت لمقاومة الاحتلال، ومن هنا
 جاءت صلة الزعيم مصطفى كامل بشعراء عصره، وكانت دعوته الوطنية تلقى صدى وتأيدا في
 قصائدهم الغرّ، بحيث يمكن القول بأن الشعر لم يتألق في سبأ مجده مثلما تألق في عهد مصطفى
 كامل ومحمد فريد.

وقد ظهر التجاوب بين دعوة مصطفى كامل وشعر شوقى، وزاد في هذا التجاوب أن شوقى
 كان صديقاً حميماً لمصطفى، وكلاهما معجب بصاحبه أيما إعجاب، ولا غرو فهذا صنوان، وفرسا
 رهان، هذا في ميدان الوطنية والجهاد، وذلك في دولة الشعر والبيان، وكان شوقى يعتز بصداقته
 لمصطفى ومشاركته إياه في تعهده الروح الوطنية وغرسها في نفوس الجيل، وإلى ذلك يشير في
 قصيدته عن ذكرى مصطفى سنة ١٩٢٥ إذ يقول فيها مخاطبا الفقيده.

أتذكر قبل هذا الجيل جيلا سهرنا عن معلّمهم ونامأ؟
 مَهَارَ الحَقِّ بَغْضًا اليهم شكيم القيصريّة واللجاما^(٢)

(١) الإشارة هنا إلى سعيد الذي منح دلسيس امتياز القناة، ويريد بالزاخرين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر.

(٢) مَهَارَ جمع مهر، والمراد بالمهارة هنا الشباب، والمراد بشكيم القيصريّة ولجامها. بطش الاحتلال وجبروته.

(لواؤك) كان يسقيهم بجامٍ
من الوطنية استبقوا رحيقاً
وكان الشعرُ بين يديّ جاما
فضضنا عن معتيها الختاماً

وكان مصطفى يصف شوقي بأنه «الغدير الصافي في القاف الغاب، يسقى الأرض ولا يبصره الناظرون»، وكان يخصص لقصائده أسمى مكان في (اللواء)، وفي ذلك يقول شوقي في مرثاته الخالدة:

قد كنت تهتف في الورى بقصائدى
وتجلى فوق النيرين مكانى
وزاره وهو على فراش مرضه الأخير، فطلب إليه مصطفى أن يرتبه إذ أحس بدنو أجله، وفي ذلك يقول شوقي:

وجعلت تسألنى الرثاء فهأكه
من أدمعى وسرائرى وجنانى
ويبدو الانسجام بين دعوة مصطفى كامل وشعر شوقي في كثير من قصائده.

قصيدة شوقى فى وداع اللورد كرومر

فمن ذلك قصيدته المشهورة فى وداع اللورد كرومر سنة ١٩٠٧ حين اضطر إلى الاستقالة على أثر حادثة دنسواى، ففى أبياتها تتجلى الروح الوطنية والنعمة على الاحتلال، قال:

أيامكم أم عهد اسماعيلاً
أم حاكم فى أرض مصر بأمره
أم أنت فرعون يسوس النيلاً؟
لا سائلاً أبداً ولا مستولاً
يا مالكا رقب الرقاب ببأسه
هلا اتخذت إلى القلوب سبيلاً؟
لما رحلت عن البلاد تشهدت
فكأنك الداء العيأ رحيلاً
أوسعتنا يوم السوادع إهانةً
أدب لعمرك لا يصيب مثيلاً^(١)

إلى أن قال:

أنذرتنا رقاً يدوم وذلةً
أحسبت أن الله دونك قدرةً
تبقى وحالاً لا ترى تحويلاً
لا يملك التغيير والتبديلاً؟
الله يحكم فى الملوك ولم تكن
دول تنازعه القوى لتدولاً

(١) يشير إلى خطبة اللورد كرومر فى الحفلة التى أقامها صنائع الاحتلال بدار الأوبرا تكريماً له وأهان فيها المصريين.

وعونٌ قبلك كان أعظم سطوةً وأعزّ بين العالمين قبيلًا

* * *

اليوم أخلفت الوعود حكومةً
دخلت على حكما الوداد وشرعه
هدمت معالمها وهدت ركنها
كنا نظن عهدَها الانجيلا
مصرًا فكانت كالسلاسل دخولا
وأضاعت اعتقالها المأمولا

وقال:

قد مدَّ إسماعيل قبلك للورى
إن قيس في جود وفي سرف إلى
أو كان قد صرع (المفتش) مرةً
لا تذكر الكرباج في أيامه
ظلَّ الحضارة في البلاد ظليلا
ما تنفقون اليوم عدُّ بخيلا
فلكم صرعت بدنشواى قتيلا
من بعد ما أنبت فيه ذبولا

قصيدته في ذكرى دنشواى

وقصيدته سنة ١٩٠٧ أيضاً عن (ذكرى دنشواى)، بعد مرور عام على حادثتها، في سبيل طلب العفو عن سجنائها، وفيها وصف مؤثر لهذه المسألة.

قال:

يادنشواى على رُباكِ سلامٌ
شهداءً حُكمك^(١) في البلاد تفرقوا
مرّت عليهم في اللحد أهلة
كيف الأراملُ فيك بعد رجالها
عشرون بيتًا أفسرت وانتابها
ياليت شعرى في البروج حمائمٌ
(نيرون) لو أدركت عهد (كرومر)
ذهبت بأنسِ ربوعِك الأيامُ
هيهات للشملِ الشتينِ نظام
ومضى عليهم في القيود العام
وبأى حالٍ أصبح الأيتام؟
بعد البشاشة وحشة وظلام
أم في البروج منيةٌ وحمائم؟
لعرفت كيف تنفذ الأحكام!

* * *

نوحى حمائم دنشواى وروعى
إن نامت الأحياء حالت بينه
شعبًا بوادى النيل ليس ينام
سحرًا وبين فراشه الأحلام

(١) أى حكم المحكمة المختصة في قضية دنشواى.

متوجعٌ يتمثلُ البومَ الذى
السوطُ يعملُ والمشائقُ أربعُ
والمستشارُ^(١) إلى الفظائعِ ناظرُ
في كلِّ ناحيةٍ وكلِّ محلةٍ
وعلى وجوهِ الثاكليينِ كآبةٍ
ضجتُ لشدةِ هولهِ الأقدامِ
متوحشاتٌ والجنودُ قيامِ
تدمى جلودُ حولهِ وعظامِ
جزعاً من الملاءِ الأسيفِ زحامِ
وعلى وجوهِ الثاكلاتِ رغامِ

رثاء لمصطفى كامل

ولما توفي مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ رثاه شوقي بقصيدته الخالدة التي تعد أكبر مرثاة في تاريخ الأدب العربي، ترجم فيها عن شعوره بالحزن والألم بآيات بينات تجلت فيها حكمة الشعر وقوة الوطنية وروعة البيان، وقد نشرت يوم ٢٣ فبراير سنة ١٩٠٨ عقب وفاة الزعيم بثلاثة عشر يوماً، فأثرت في النفوس تأثيراً عميقاً، وجددت أحزان الأمة، وحفظناها وحفظها الشباب وقتئذ عن ظهر قلب، لأنها عبرت عن شعورنا جميعاً في الرزء الفادح، ننشرها كاملة لأنها قطعة من الشعر الوطني الخالد. قال في مطلعها:

المشرقان عليك ينتحبان
يا خدام الإسلام أجز مجاهد
لما نعتت إلى الحجاز مشى الأسى
السكة الكبرى^(٢) حيال رباهما
لم تألها عند الشدائد خدمةً
يا ليت مكة والمدينة فازتا
ليرى الأواخر يوم ذاك وسمعوا
جار التراب وإنك أكرم راحل

وقال عن مرضه الذى أودى بحياته:
أيكى صباحك ولا أعاتب من جنى
يتساءلون أبا لسلال قضيت أم

قاصيهما في ماتم والذاني
في الله من خلد ومن رضوان
في الزائرين وروع الحرمان
منكوسة الأعلام والقضبان
في الله والمختار والسلطان
في المحفلين بصوتك الرنان
ما غاب من قس ومن سحبان^(٣)
ماذا لقيت من الوجود الفاني؟

هذا عليه كرامةٌ للجاني^(٤)
بالقلب أم هل مت بالسرطان

(١) يريد الكبتن متشل مستشار وزارة الداخلية وكان يشرف على تنفيذ الحكم.

(٢) يريد سكة حديد الحجاز

(٣) قس وسحبان خطيبان من أبلغ خطباء العرب.

(٤) الجاني إشارة إلى مصطفى كامل أى أنه ضحى بحياته وشبابه في سبيل مصر.

والمجد والإقدام والعرفان

في هذه الدنيا فأت الباني
هل فيه آمالٌ وفيه أمانى
ولربِّ حىٍّ مَيِّتِ الوجدان

ومضللٌ يجرى لغير عنان
عليها المراتب لم تُتَّحَ لجان
ماتوا على دين ولا إيمان
جُعِلَتْ لَهَا الْأَخْلَاقُ كَالْعَنْوَانِ
قَصْرٌ يَرِيكَ تَقَاصِرَ الْأَقْرَانِ
إِنَّ الْحَيَاةَ دَقَائِقُ وَثَوَانِ
فَالذِّكْرُ لِلنَّاسِ عَمْرٌ تَانِ
ما شاء من ربح ومن خسران
وهى المضيق لمؤثر السلوان

يشقى له الرحماء وهو الهاني
في طيها سَجَنٌ مِنَ الْأَشْجَانِ
نعمى الحياة وبؤسها سيان

خطرات والإسرارِ والإعلان
غازٍ بغير مُهَنَّدٍ وسنان؟
أن العلوم دعائم العمران

جَزَعِ الْهَلَالُ عَلَى فَتَى الْفَتِيَانِ

الله يشهد أن موتك بالحجا

وقال يشيد بأخلاق الفقيد:

إن كان للأخلاق ركن قائم
بالله فتش عن فؤادك في الترى
وجدانك الحى المقيم على المدى

وقال في فلسفة الحياة:

الناسُ جارٍ في الحياة لغاية
والخلدُ في الدنيا وليس بهين
فلو أن رسلَ الله قد جبنوا لما
المجد والشرف الرفيع صحيفة
وأحبُّ من طول الحياة بذلة
دقات قلب المرء قائمة له
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
للمرء في الدنيا وجم شؤونها
فهى القضاء لراغب متطلع

الناس غادٍ في الشقاوة رائحٌ
ومنعمٌ لم يلق إلا لذة
فاصبر على نعمى الحياة وبؤسها

وقال مخاطباً الزعيم:

ياظاهر الغدوات والرُّوحاتِ والـ
هل قام قبلك في المدائن فاتح
يدعو إلى العلم الشريف وعنده

وقال في وصف الجنازة:

لَقُوكِ فِي عِلْمِ الْبِلَادِ مِنْكَسًّا

لكننا يبكى بدمع قاني^(١)
فكأنما في نعشك القمران
يختال بين بكى وبين حنان
ما ضم من عرف ومن إحسان
وجلالك المصدق يلتقيان

ما احمرّ من خجل ولا من ريبة
يُزجون نعشك في السناء وفي السنا
وكأنه نعش (الحسين) «بكر بلا»
في ذمة الله الكريم وبره
ومشى جلال الموت وهو حقيقة

وبكتك بالدمع والهتون غواني
إذ ينصتون لخطبة وبيان
بعد المنابر أم بأى لسان
دفنوك بين جوانح الأوطان
حملك في الأسماع والأجفان
كفن لبست أحاسن الأكفان
لم تأت بعد رثيت في القرآن

شقت لمنظرك الجيوب عقائل
والخلق حولك خاشعون كعهدهم
يتساءلون بأى قلب تُرتقى
فلو إن أوطاناً تصوّر هيكلها
أو كان يحمّل في الجوارح ميت
أو صيغ من غرّ الفضائل والعلی
أو كان للذكر الحكيم بقية

وقال يصف الفقيد في مرضه الأخير:

والداء ملء معالم الجثمان
قنط وساعات الرحيل دواني
دمع تعالج كتّمه وتعاني
ويداك في القرطاس ترتجفان
وأنا الذي هدّ السقام كياني
وعرفت كيف مصارع الشجعان
ما للمنون بدكهن يدان

ولقد نظرتك والردى بك محقق
يبغى وَيَطغى والطبيب مضلل
ونواظر العواد عنك أمالها
تملى وتكتب والمشاعل حمة
فهششت لى حتى كأنك عائدى
ورأيت كيف تموت آساد الشرى
ووجدت في ذاك الخيال عزائباً

من أدمعى وسرائرى وجناني
لنظمت فيك يتيمة الأزمان

وجعلت تسألنى الرثاء فهاكه
لولا مغالبة الشجون لخاطرى

(١) قاني: احمر.

وأنا الذى أرثى الشموس إذا هوت
فتعود سيرتها من الدوران

قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى
ماذا دهانى يوم بنت فعقتى
هون عليك فلا شمات ببيت
من للحسود ببيتة بلغتها
عوفيت من حرب الحياة وحربها
وتجلى فوق النيرات مكاني
فيك القريض وخانى إمكاني
إن المنية غاية الإنسان
عزت على كسرى أنو شروان
فهل استرحت أم استراح الشانى

وقال فى ختام القصيدة يذكر فضل مصطفى على مصر:

يا صب مصر ويا شهيد غرامها
اخلع على مصر شبابك غاليا
فلعل مصرًا من شبابك ترتدى
فلو أنابالهرمين من عزماته
علمت شبان المدائن والقري
مصر الأسيفة ريفها وصعيدها
أقسمت أنك فى التراب طهارة
هذا ثرى مصر فم بأمان
والبس شباب الحور والولدان
مجدًا تتيه به على البلدان
بعض المضاء تحرك الهرمان
كيف الحياة تكون فى الشبان
قبر أبر على عظامك حانى
ملك يهاب سؤاله الملكان

شهيد الحق

وكان سوقى لا يفتأ يذكر مصطفى بعد وفاته:

فمن ذلك قصيدته التى نظمها سنة ١٩٢٥ لمناسبة ذكراه بعنوان (شهيد الحق)، تناول فيها ما أصاب البلاد من انقسام وتشاحن وتناحر، ثم انتقل من ذلك إلى ذكرى مصطفى كامل، فوفاه حقه من التمجيد، قال فى مطلعها:

إلام الخلف بينكمو إلا ما؟
وفيم يكيد بعضكم لبعض
وأين الفوز؟ لا مصر استقرت
وهذه الضجة الكبرى علاماً؟
وتبدون العداوة والخصاماً؟
على حال ولا السودان داما

إلى أن قال:

ولينا الأمر حزباً بعد حزب
فلم نك مصلحين ولا كراما

ولم نَعُدْ الجزاء والانتقاما
بأهواء النفوس فما استقاما

جعلنا الحكم توليةً وعَزْلاً
وُسُسنا الأمر حين خلا إلينا

وقال ذاكرًا مناقب الفقيه:

بأرض ضُيِّعت فيها اليتامى
ومرّ على القلوب فما أقاما^(١)
كأن بمهجة الوطن السقاما
فغَطَّى الأرض وانتظم الأناما
وضمّ مروءةً وحوى زماما
طلعت حيا لها قمرًا تامًا
بعيني من أحب ومن تعامى
إذا هو في عكاظَ علا السناما
والطف حين تنطقه ابتساما
صراحًا ليس يتخذ اللثاما

شهيّد الحق قم تره يتيما
أقام على الشفاه بها غريبًا
سقيمت فلم تبت نفس بخير
ولم أر مثل نعشك إذ تهادى
تحمل همةً وأقلّ دينًا
وما أنساك في العشرين لما
يُشارُ إليك في النادى وتُرمى
إذا جئت المنابر كنت (قسًا)
وأنت ألدُّ للحق اهتزازًا
وتحمل من أديم الحق وجهًا

سهرنا عن معلّمهم ونامًا؟
شكيم القيصرية واللجاما
وكان الشعر بين يديّ جاما
فضضنا عن معتقها الختاما
بكل قرارة وزكا مُداما
كنفخ الصوّر حركت الرجاما^(٢)
بسورتها وساعت للندامي^(٣)
وكانت في حلاوتها بغاما^(٤)

أتذكرُ قبل هذا الجيل جيلًا
مهّار الحق بغضنا إليهم
لواؤك كان يسقيهم بجام
من الوطنية استبقوا رحيقًا
غرسنا كرمها فزكا أصولا
جمعتهمو على نبرات صوت
لك الخطبُ التي غص الأعادى
فكانت في مرارتها زئيرًا

(١) أى أن الحق تنطق به الأفواه ولا يستقر في القلوب.

(٢) الرجاء: القبور.

(٣) السورة: الحدة والشدة؛ والندامى جمع نديم والمراد بهم والأنصار والأصدقاء.

(٤) البغام: صوت الظبي.

حديثاً من خرافة أو مناماً
وصيرت (الجللاء) لها دعاماً

وحياةً من السير
بعدت غاية السفر
آبت الشمس والقمر^(١)
قد أتانا من الحفر
ميت الخبز والخبر
وإذا مات لم يضر
منه ظل ولا ثمر
ور إذا ذلت القصر

بك الوطنية اعتدلت وكانت
بنيت قضية الأوطان منها

وله قصيدة في ذكره سنة ١٩٢٦ قال:
لم يمت من له أثر
أدعه غائباً وإن
أيب الفضل كلما
رب نور مُتمم
إنما الميت من مشى
من إذا عاش لم يُفد
ليس في الجاه والغنى
قبح العز في القص

* * *

وإلى (مصطفى) افتقر
هبة الصارم الذكر
والذي يركب الخطر
واضع الأس والحجر
هى من آية الكبر
منبراً تحت محتضر
وهو يمشى إلى الظفر
زُمرًا إثرها زمر
لاترى البيض والسمر^(٢)
نفخ الروح في الصور

أعوز الحق ذائد
وقنت جياضه
الذى يُنفذ المدى
أيها القوم عظموا
أذكروا الخطبة التي
لم ير الناس قبلها
لست أنسى لواءه
حشر الناس تحته
وترى الحق حوله
كلما راح أو غدا

* * *

(١) أى يعود للفقيد فضل وتتجدد ذكره كلما آبت الشمس وعاد القمر
(٢) البيض: السيوف والسمر الرماح.

ياأخا النَّفْسِ فِي الصِّبَا لَذَّةَ الرُّوحِ فِي الصُّعْرِ
 وَخَلِيلَا ذَخْرْتِهِ لَمْ يَنْغَمُومَ بِمَدْخَرِ
 حَالِ بَيْنِي وَبَيْنِهِ فِي فُجَاءَاتِهِ الْقَدَرِ
 كَيْفَ أَجْزَى مَوَدَّةً لَمْ يَشُبْ صَفْوَهَا كَدْرِ
 غَيْرَ دَمَعِ أَقْوَلِهِ قَلَّ فِي الشَّانِ أَوْكُثْرُ
 وَفُؤَادٍ مَعَلَّلٍ بِالخَيَالَاتِ وَالذِّكْرِ
 لَمْ يَنْبِمْ عَنكَ سَاعَةً فِي الْآحَادِيثِ وَالسَّمْرِ
 قَمِ تَرِ الْقَوْمَ كَتَلَةً مِثْلَ مَلْمُومَةِ الصَّخْرِ
 جَدَّدُوا أَلْفَةَ الْهَوَى وَالْإِخَاءِ الَّذِي شَطِرِ
 لَيْسَ لِلْخُلْفِ بَيْنَهُمْ أَوْ لِأَسْبَابِهِ أَثَرِ
 أَلْفَتْهُمْ رَوَائِحُ غَادِيَاتٍ مِنَ الْغَيْرِ
 وَضَحَّوْا مِنْ مَنْوَمٍ وَأَفَاقُوا مِنَ الْخَدْرِ^(١)
 أَقْبَلُوا نَحْوَ حَقِّهِمْ مَا لَمْ يَغِيْرِهِ وَطَرِ
 جَعَلُوهُ خَلِيَّةً شَرَعُوا دُونَهَا الْإِبْرِ
 وَتَوَاصَوْا بِخَطِّةٍ وَتَدَاعَوْا لِمَوْقَرِ
 وَقَصَّارِي أَوْلَى النَّهْيِ يَتَلَاقُونَ فِي الْفِكْرِ
 أَذْنُونَا بِمَوْقِفِ مِنْ جَلَالِ وَمِنْ خَطْرِ
 نَسْمَعُ اللَّيْثَ عِنْدَهُ دُونَ آجَامِهِ زَأْرِ
 قَلْ لَمْ فِي نَدِيهِمْ^(٢) مِصْرَ بِالْبَابِ تَنْتَظَرِ

شوقي وفريد

لم تكن صلة شوقي بفريد كصلته بمصطفى، وعندما تولى فريد زعامة الحركة الوطنية سنة ١٩٠٨، بعد وفاة الزعيم الأول، كانت سياسة (الوفاق) بين الخديوي عباس الثاني والمعتمد البريطاني قد ثبتت قواعدها، وتكرر عباس للحركة الوطنية، ومع صلة شوقي بالقصر واشتداد الجفاء بين الخديوي وفريد، فإنه لم يتعرض له بسوء في أى قصيدة له، وكان هذا منه نعم الوفاء للوطنية.

(٢) يريد البرلمان.

(١) الخدر الكسل.

وبدا حب تنوقى للحزب الوطنى وتأبيده له من رثائه لعمر بك لطفى أحد أقطاب هذا
الحزب ومؤسس التعاون فى مصر، فقد نظم سنة ١٩١١ فى رثائه قصيدة بدبعة قال فى مطلعها:
قَفُّوا بِالْقُبُورِ نُسَائِلَ عَمْرٍ متى كانت الأرضُ مَثْوَى القمْرِ؟
وفىها يقول:

«نِقَابَاتُكَ» العُرُّ تَبْكِي عَلَيْكَ ويبكى عليك النَّدىُّ الأغرُّ^(١)
ويبكى التعاونُ من سَنِّهِ عشيةٌ ليس له من أثر
ويبكيك (حِزْبُ) نَحِيرَتِهِ شريفُ المَرَامِ شريفُ الوَطْرِ
ويبكى الأولى أنتَ عَلَّمْتَهُمْ وأنتَ غرستَ فكانوا الثمر

رثاؤه لفريد

ولما توفى فريد سنة ١٩١٩ رثاه بقصيدة من عيون شعره، ظهر فيها تقديره للزعيم الشهيد،
قال:

كُلُّ حَيٍّ عَلَى المنيَةِ غادى تتوالى الزكابُ والموتُ حادى^(٢)
ذهبَ الأولونَ قَرْنَا فقرنَا لم يَدُمَ حاضرٌ ولم يَبْقَ بادى^(٣)
هل ترى منهمو وتسمعُ عنهم غير باقى مآثرٍ وأ يادى؟

كُرَّةُ الأرضِ كم رَمَتْ صولجانَا وطَوَّتْ من ملاعبِ وجياد
والغُبَارُ الذى على صَفْحَتَيْهَا دَوْرانُ الرحى على الأجساد
كُلُّ قَبْرٍ من جانبِ القفرِ يبدو علم الحقِّ أو منار المعاد
وزمامُ الرُّكابِ من كلِّ فَجٍّ ومحطُّ الرُّحالِ من كلِّ وادى
تطلع الشمسُ حيثَ تطلع نضجًا وتُنحى كِمَنجَلِ الحِصَادِ
إلى أن قال:

أسألتهم حقيبة الموت ماذا تحتها من ذخيرةٍ وعتاد؟

(١) نادى المدارس العليا وكان عمر لطفى رئيسه.

(٢) الحادى هو الذى يغنى للماعلة فتتشط فى سيرها.

(٣) الحاضر ساكن الحضر، والبادى ساكن البادية.

وحوارِي نِيَّةٍ واعْتِقَاد
 وحَدَّهَا بالشَّهِيدِ دَارَ الرِّشَادِ
 حَاسِرًا قَدْ تَجَلَّلَتْ بِسَوَادِ
 رَاعِيهَا أَنْ تَرَاهُ فِي الْأَصْفَادِ
 فِي سَبِيلِ الْحَقِّ نِضْوَ سُهَادِ
 كَانَ لِلْحَشْدِ وَالنُّدَى وَالطَّرَادِ
 لَمْ يَدِنْ بِالْقَرَارِ فِي الْأَغْمَادِ

إِنْ فِي طَيْهَا إِمَامَ صُفُوفِ
 لَوْ تَرَكْتُمْ لَهَا الزَّمَامَ لَجَاءَتْ
 أَنْظَرُوا هَلْ تَرَوْنَ فِي الْجَمْعِ (مَصْرَا)
 تَاجُ أَحْرَارِهَا غُلَامًا وَكَهْلًا
 وَسُدَّوهُ التَّرَابَ نِضْوَ سِفَارِ
 وَارْكُزُوهُ إِلَى الْقِيَامَةِ رُجْمًا
 وَأَقْرُوهُ فِي الصَّفَائِحِ عَضْبًا

وقال مستيرًا إلى موته في منفاه:

وَانْتَهتْ بِحَنَّةٍ وَكَفَّتْ عَوَادِي
 وَشَفَى مِنْ أَصَادِقٍ وَأَعَادِي
 غَايَةَ الْقُرْبِ أَوْ قُصَارَى الْبُعَادِ
 وَافْقَدَ الْعَمْرَ لَا تَوْبَ مِنْ رُقَادِ
 فِي قَدِيمٍ مِنَ الْحَدِيثِ مُعَادِ
 سَ وَمَعْنَاهُ فِي صَدُورِ الصُّعَادِ
 كَتَحَلَّى الْقِتَالَ بِاسْمِ الْجِهَادِ

نَازَحَ الدَّارَ أَقْصَرَ الْيَوْمَ بَيْنَ
 وَكَفَى الْمَوْتَ مَا تَخَافُ وَتَرْجُو
 مِنْ دُنَا أَوْ نَأَى فَإِنَّ الْمَنَايَا
 يَسِرُّ مَعَ الْعَمْرِ حَيْثُ شِئْتَ تَوُوبَا
 ذَلِكَ الْحَقُّ لَا الَّذِي زَعُمُوهُ
 وَجَرَى لَفْظُهُ عَلَى أَلْسُنِ النَّاسِ
 يَتَحَلَّى بِهِ الْقَوِيُّ وَلَكِنْ

وَقِيَامَا عَلَى حَقِّوقِ الْعِبَادِ
 نَزَلَ الْأَقْوِيَاءُ فِيهِ عَلَى الضُّعْفَى
 وَحَلَّ الْمَلُوكُ بِالزُّهَادِ
 صَفْحَاتُ نَقِيَّةٍ كَقُلُوبِ الرَّسُلِ
 مَغْسُولَةٌ مِنَ الْأَحْقَادِ
 قَمِ إِنْ أَسْطَعْتَ مِنْ سَرِيرِكَ وَأَنْظَرِ
 هَلْ تَرَاهُمْ وَأَنْتَ مَوْفٍ عَلَيْهِمْ
 أُمَّةٌ هَيْئَتُهَا وَقَوْمٌ لَخِيرُ السُّدْهِرِ
 أَوْ شَرُّهُ عَلَى اسْتِعْدَادِ
 وَتَصَوُّغِ الرِّئَاءِ فِي كُلِّ نَادِ
 غُرَّةِ الْبِرِّ فِي سَوَادِ الْحَدَادِ
 رَجُلٌ مَاتَ فِي سَبِيلِ الْبِلَادِ
 لِلنَّجِيبِ الْجَرِيِّ فِي الْأَوْلَادِ

هَلْ تَرَى كَالْتَرَابِ أَحْسَنَ عَدَلًا
 نَزَلَ الْأَقْوِيَاءُ فِيهِ عَلَى الضُّعْفَى
 وَحَلَّ الْمَلُوكُ بِالزُّهَادِ
 صَفْحَاتُ نَقِيَّةٍ كَقُلُوبِ الرَّسُلِ
 مَغْسُولَةٌ مِنَ الْأَحْقَادِ
 قَمِ إِنْ أَسْطَعْتَ مِنْ سَرِيرِكَ وَأَنْظَرِ
 هَلْ تَرَاهُمْ وَأَنْتَ مَوْفٍ عَلَيْهِمْ
 أُمَّةٌ هَيْئَتُهَا وَقَوْمٌ لَخِيرُ السُّدْهِرِ
 أَوْ شَرُّهُ عَلَى اسْتِعْدَادِ
 وَتَصَوُّغِ الرِّئَاءِ فِي كُلِّ نَادِ
 غُرَّةِ الْبِرِّ فِي سَوَادِ الْحَدَادِ
 رَجُلٌ مَاتَ فِي سَبِيلِ الْبِلَادِ
 لِلنَّجِيبِ الْجَرِيِّ فِي الْأَوْلَادِ

(كفريد) وأين ثانی فرید
 الرئيس الجواد فیما علمنا
 أَكَلْتُ مَالَهُ الْحَقُّوقُ وَأَبْلَى
 لك فی ذلك الضنى رقة الرو
 علة لم تصل فراشك حتى
 صادفت قرحة يلائمها الصبر وتأبى عليه غير الفساد
 وَعَدَّ الدَّهْرُ أَنْ يَكُونَ ضِمَادًا لَكَ فِيهَا فَكَانَ شَرَّ ضِمَادٍ
 وإذا الروح لم تنفس عن الجسم (فبقراط)^(١) نافخ في رماذ

قصيدته في ذكراه

وفي سنة ١٩٢٤ نظم قصيدة في ذكراه الخامسة، وهى من أبلغ شعره ومن أروع ما قيل في تمجيد فرید ووطنيته وتضحياته، قال:

نُجِدُّ ذَكَرَى عَهْدِكُمْ وَنَعِيدُ
 وَلِلنَّاسِ فِي الْمَاضِي بَصَائِرُ يَهْتَدِي
 إِذَا أَلَمْتَ لَمْ يَكْرُمُ بَارِضُ ثَنَاؤُهُ
 وَنَحْنُ قِضَاةُ الْحَقِّ نَرعى قَدِيمَهُ
 وَنَعْلَمُ أَنَا فِي الْبِنَاءِ دَعَائِمُ
 فَرِيدُ ضَحَايَانَا كَثِيرٌ وَإِنَّمَا
 فَمَا خَلَفَ مَا كَابَدْتَ فِي الْحَقِّ غَايَةً
 تَغْرَبَتْ عَشْرًا أَنْتَ فِيهِنَّ بَائِسُ
 تَجْوَعُ بِلْدَانٍ وَتَعْرَى بِغَيْرِهَا
 أَلَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْحَقِّ طَارِفُ
 وَجُودِكَ بَعْدَ الْمَالِ بِالنَّفْسِ صَابِرَا
 وَنُدُنِي خِيَالَ الْأَمْسِ وَهُوَ بَعِيدُ
 عَلَيْهِنَ غَاوٍ أَوْ يَسِيرٍ رَشِيدُ
 تَحِيرٌ فِيهَا الْحَيُّ كَيْفَ يَسُودُ
 وَإِنْ لَمْ يَفْتَنَا فِي الْحَقِّ جَدِيدُ
 وَأَنْتُمْ أَسَاسُ فِي الْبِنَاءِ وَطِيدُ
 مَجَالِ الضَّحَايَا أَنْتَ فِيهِ فَرِيدُ
 وَلَا فَوْقَ مَا قَاسَيْتَ فِيهِ مَزِيدُ
 وَأَنْتَ بِأَفَاقِ الْبِلَادِ شَرِيدُ
 وَتَرْزَحُ تَحْتَ الدَّاءِ وَهُوَ عَتِيدُ
 مِنَ الْمَالِ لَمْ تَبْخُلْ بِهِ وَتَلِيدُ
 إِذَا جَزَعُ الْمُحْضُورِ وَهُوَ يَجُودُ

(١) بقراط هو أبو الطب.

فلا زلت تمثالا من الحق خالصا على سيره نبنى العلا ونشيد
يعلم نشء الحى كيف هوى الحمى وكيف يحامى دونه ويزود

حبه وتقديسه للوطن

إن حب شوقى للوطن يتمشى فى معظم قصائده، مما تراه فى ديوانه، وقد اقتبسنا طرفا منها، وله فوق ذلك أبيات بلغ فيها حبه للوطن درجة التقديس والعبادة مما يجعلها تسير مسرى الحكم والأمثال، على تعاقب السنين والأجيال، وتبعث فى نفوس المواطنين روح الإخلاص العميق للوطن والفناء فيه.

كقوله سنة ١٩٢٠ بعد عودته إلى مصر من منفاه:

ويا وطنى لقيتُك بعد يأسٍ كأنى قد لقيتُ بك الشبابا
ولو أنى دُعيتُ^(١) لكنتَ دينى عليه أقابل الحتم المجابا^(٢)
أدير إليك قبل البيت وجهى إذا فُهِتُ الشهادة والمتابا

ففى هذه الأبيات يقدم شوقى الوطن على الدين ويدير وجهه إلى الوطن قبل الكعبة عندما يلقى ربه.

وقوله سنة ١٩٢٤ مخاطباً الشباب:

وَجِّهْ الكنانة ليس يُغضب ربكم أن تجعلوه كوجهه معبودا
ولوا إليه فى الدروس وجوهكم وإذا فرغتم. فاعبدوه هجودا
إن الذى قَسَمَ البلادَ حياكمو بلدا كأوطان النجوم مجيدا
قد كان- والدنيا لُحودٌ كلها- للعبقرية والفنون مُهودا

وقوله وهو فى منفاه:

وطنى لو شغلتُ بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

أى أنه لو شغل عن الوطن بجنة الخلد وسكنها، لبقيت نفسه تهفو إلى الوطن وتنزع إليه.

وقوله من قصيدته سنة ١٩٢٦ فى نكبة دمشق من الاستعمار الفرنسى:

(١) أى دعيت إلى الموت.

(٢) الحتم المجاب هو الموت.

وللأوطان في دم كل حُرٍّ يدُ سَلَفَتْ ودينُ مستحقِّ
وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرِّجة تُدقِّ

وقوله:

لا تلوماها أليست حرة وهوى الأوطان للأحرار دين

وقال سنة ١٩٠٤:

أحبك مصر من أعماق قلبي وحبك في صميم القلب نام
وبلغ حبه لمصر أن جعلها كعبة أشعاره قال:

وإني لغيريِّد هذا البطاح تغذَّى جَناها وسلسالها
تَرى مصرَ كعبةَ أشعاره وكلُّ معلقة قائلها

ثورة سنة ١٩١٩

قال من قصيدة له بعنوان (الحرية الحمراء) يمجّد ثورة ١٩١٩:

يومُ البطولة لو شهدتُ نهاره لنظمتُ للأجيال ما لم يُنظَمْ
غُبِنتُ حقيقته وفاتِ جمالها باعَ الخيالَ العبقريَّ الملهم
لولا عوادى النفى أو عقبانِه والنفىُّ حالٌ من عذاب جهنم
لجمعتُ ألوانَ الحوادثِ صورةً^(١) مثلتُ فيها صورةَ المستسلم
وحكيتهُ متغيِّظًا لم يكظمْ وحكيتهُ متغيِّظًا لم يكظمْ
دَعَتِ البلادَ إلى الغمارِ فغامرت وطنيةً بمثقف ومعلم
ثارت على الحامى العتيد وأقسمت بسواه جَلُّ جلاله لا تحمى

* * *

يومَ النضالِ كَسْتِكَ لونَ جمالها حُرِّيَّةً صَبَغْتَ أديمك بالدم

(١) يشير إلى أنه كان منفاه حين شبت الثورة.

تعلقه بالجللاء

ويبدو في شعره مبلغ تعلقه بالجللاء، وإيمانه به، وهذا ولا ريب من فيض الوطنية التي يستلهم منها شعره.

قال في سنة ١٩٢٤ يخاطب الشباب الذين أفرج عنهم بعد الحكم عليهم في قضية المؤامرة الكبرى:

لَبَّا بَنَى اللَّهُ الْقَضِيَّةَ ^(١) مِنْهُمْ	قَامَتْ عَلَى الْحَقِّ الْمَبِينِ عَمُودًا
جَادُوا بِأَيَّامِ الشَّبَابِ وَأَوْشَكُوا	يَتَجَاوِزُونَ إِلَى الْحَيَاةِ الْجُودَا
طَلَبُوا (الْجَلَاءَ) عَلَى الْجِهَادِ مَثُوبَةً	لَمْ يَطْلُبُوا أَجْرَ الْجِهَادِ زَهِيدًا
وَاللَّهِ: مَا دُونَ الْجَلَاءِ وَيَوْمِهِ	يَوْمٌ تُسَمِّيهِ الْكِنَانَةُ عِيدًا
وَجَدَ السَّجِينَ يَدًا تُحَطِّمُ قَيْدَهُ	مَنْ ذَا يُحَطِّمُ لِبِلَادِ قِيودًا؟

وحدة وادى النيل

وقال في يولية سنة ١٩٢٤ عن وحدة وادى النيل من قصيدة له في استنكار حادث الاعتداء على المرحوم سعد زغلول ونجاته من محاولة اغتياله:

وَلَنْ نَرْضَى أَنْ تُقَدَّ الْقَنَاةُ	وَيُبَيَّرَ مِنْ مِصْرٍ سَوْدَانُهَا
فَمِصْرُ الرِّيَاضِ وَسَوْدَانُهَا	عَيُونَ الرِّيَاضِ وَخَلْجَانُهَا
وَمَا هُوَ مَاءٌ وَلَكِنَّهُ	وَرِيْدُ الْحَيَاةِ وَشُرْيَانُهَا
تَتَمُّ مِصْرَ يَنْبَائِعُهُ	كَمَا تَتَمُّ الْعَيْنَ أَنْسَانُهَا
وَأَهْلُوهُ مِنْذُ جَرَى عَدْبُهُ	عَشِيرَةُ مِصْرٍ وَجِيرَانُهَا

مشروع ملنر

هو مشروع المعاهدة الذى انتهت إليه مفاوضات سعد - ملنر سنة ١٩٢٠ ويحمل في طياته عناصر الحماية، وكان ممن عارضوه المرحوم الدكتور عبد الحميد أبو هيف، فلما توفي سنة ١٩٢٦ رناه سوقى في قصيدة أشار فيها إلى هذه المعارضة وأيدها، قال:

(١) يقصد القضية الوطنية.

بالأمس كانت لابن هيف غَضَبَةٌ
 مشت البلاد إلى رسالة (ملنر)
 فلمحتُ أعرجُ في زوايا الحق لم
 ارتدت العاهاتُ عن أخلاقه
 لما رأى (التقرير) ينفث سَمَه
 هتك الحماية والرجال وراءها
 للحق نذكرها يداً بيضاء
 وتحفزت أرضاً لها وساء
 أعلم عليه ذِمَّةً عرجاء^(١)
 لسموهن وحلت الأعضاء
 سبق الحواة فأخرج الرقطاء^(٢)
 يتلمسون لها الستور رياء

تصريح ٢٨ فبراير

وقال عن تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢^(٣).

ربحت من (التصريح) أن قيودها
 أوماترون على (المنابع)^(٤) عُدَّة
 يافتية النيل السعيد خذوا المدى
 قد صرن من ذهبٍ وكن حديدًا
 لا تنجلي وعلى (الضفاف) عديدًا
 واستأنفوا نفس الجهاد مديدًا

يدعو إلى التضحية ويهاجم الاستعمار

قال يدعو إلى الجِد والتضحية:

والمرء ليس بصادقٍ في قوله
 والشعب إن رام الحياة كبيرة
 حتى يؤيد قوله بفعله
 خاض الغمار دما إلى أماله

ومن قصيدته سنة ١٩٢٦ في نكبة دمشق من الاستعمار الفرنسي:

لحَاسها اللهُ أنباء توالَتْ
 يفصلها إلى الدنيا يريدُ
 على سمع الوليِّ بما يشقُّ^(٥)
 ويُجملها إلى الآفاق بَرُقُ

(١) أصيب المرحوم أبو هيف بمرض بترت فيه ساقه وكان يمشي على ساق صناعية.

(٢) الرقطاء.. الحية.

(٣) هو التصريح الذي أعلنته بريطانيا في ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وأقرت فيه بانتهاء الحماية على مصر وبالاعتراف باستقلالها واحتفظت فيه بتولى أمور أربعة تعصف بجوهر الاستقلال وهي (١) تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية في مصر (٢) الدفاع

عن مصر (٣) حماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات (٤) السودان.

(٤) منابع النيل بالسودان. وعدة أي جنودا. والضفاف قناة السويس.

(٥) الولي أي المحب والصديق.

وللمستعمرين وإن ألانوا
رماك بطيشه ورمى فرنسا
إذا ما جاء طُلابُ حقِّ
دُمُ الثوار تعرفه فرنسا
قلوبٌ كالحجارة لا تَرِقُّ
أخو حربٍ به صَلَفٌ ومُحِقُّ
يقول عصاةٌ خرجوا وشَقُّوا
وتعلم أنه نورٌ وحقُّ

إلى أن قال:

نصحتُ ونحن مختلفون داراً
ويجمعنا إذا اختلفت بلادُ
وقفتم بين موت أو حياةٍ
وللأوطان في دم كل حرِّ
ومن يَسْقَى وَيَشْرَبُ بالمنايا
ولا يبنى الممالك كالضحايا
ففى القتلى لأجيالٍ حياةٌ
وللحرية الحمراء بابٌ
ولكن كُننا فى الهمِّ شَرِقُ
بيانٌ غيرٌ مُخْتَلِفٍ ونُطْقُ
فإن رمتهم نعيمَ الدهر فاشقوا
يَدُ سلفت ودينٌ مستحقُّ
إذا الأحرار لم يُسَقُوا وَيَسْقُوا؟
ولا يُدنى الحقوق ولا يحقُّ
وفى الأسرى فِدَى لهم وعتقُ
بكل يدٍ مضرجة يُدَقُّ

يشفق على الوطن

من قصيدة له فى استقبال عيد الفطر يشفق على مصر ويقول أن لا عيد حتى تتحقق أهدافها.

وطنى أسفتُ عليك فى عيد المَلأ
لا عيدَ لى حتى أراك بأمةٍ
ذهب الكرامُ الجامعون لأمرهم
أيظلُّ بعضهم لبعض خاذلاً
وإذا أراد الله إشقاء القُرى
وبكىتُ من وجَدٍ ومن إشفاق
شاء راوية من الأخلاق
وبقيت فى خَلْفٍ بغير خلاق^(١)
ويقالُ شعبٌ فى الحضارة راقٍ؟
جعل الهداة بها دُعاةً شِفاق

يدعو إلى الأخلاق

إن بيته المشهور عن الأخلاق هو ديوان من الشعر تتجلى فيه الحكمة الأزلية فى أن الأخلاق

(١) الخلاق: النصيب الوافر من الخير.

هى أساس حياة الأمم وسبيلها إلى العظمة والمجد:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا
وقد أكد هذا المعنى الرائع في غير موضع.
قال:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم
فأقيم عليهم مأتماً وعويلًا
وقال:

وما السلاح لقوم كلُّ عُدتهم
حتى يكونوا من الأخلاق في أهب
وقال أيضًا:

على الأخلاق خُطوا الملك وابنوا
فليس وراءها للعز رُكنٌ
وفوله:

المجد والشرف الرفيعُ صحيفةٌ
جُعلت لها الأخلاقُ كالعُنوان
وقوله:

وإذا ما أصاب بُنيان قومٍ
وهي خُلِقَ فإنه وهى أسٌ
وقوله:

كذا الناس بالأخلاق يَبْقَى صلاحهم
ويذهب عنهم أمرهم حين تَذْهَبُ
وقوله:

ولقد يُقام من السيوف وليس من
عَثَرَاتِ أخلاقِ الشعوب قِسامٌ
ومن قصيدته (نهج البردة):

صلاحُ أمرِك للأخلاق مَرَجِعُهُ
والنفسُ من خيرها في خير عافية
وقوله:

وكان جنابهم فيها مهيبا
وللأخلاق أجدر أن تُهابا

وقال في هذا المعنى من قصيدة له سنة ١٩٢٠:

وليس بعامر بنيان قومٍ
إذا أخبالهم كانت خرابا

وقوله:

ولا المصائب إذ يُرمى الرجالُ بها بقاتلاتٍ إذا الأخلاقُ لم تُصَبِّ

يدعو إلى الوحدة الوطنية

من قصيدة له في رثاء بطرس غالى سنة ١٩١٠:

لو أن قومًا حَكَمُوا الأحلاما	الحقُّ أبلجُ كالصباح للناظر
للأرض واحدةً تروم مراما	أَعَهْدَتْنَا وَالقِبْطَ إِلا أمةً
ويوقِّرون لأجلنا الإسلاما	نُعَلِيّ تَعَالِيْمِ الْمَسِيحِ لِأجلهم
لو شاء ربك وَحَدَّ الأقسامَا	السِّدْنُ لِلدِّيَانِ جَلَّ جلاله
وخذوا الحقيقة وانبذوا الأوهاما	يا قومِ بَانَ الرَّشْدُ فَأَقْضُوا ما جرى
متقابلين نعالج الأياما	هذى ربوعُكُمْ وتلك ربوعنا
متجاورين جماجمًا وعظاما	هذه قبوركُم وتلك قبورنا
عيشوا كما يقضى الجوارُ كراما	فَبِحَرْمَةِ الموتى وواجب حقهم

وقال من قصيدة أخرى له في هذا المعنى سنة ١٩١٠:

ونبذ أسباب الشقاق نواحيا	تعالوا عسى نطوى الجفاء وعهده
وبينهما كانت لكل مغانيا	ألم تك (مصر) مهَدْنَا ثم لحدنا
و (موسى) و (طه) تعبد النيل جاريا	ألم تك من قبل (المسيح بن مريم)
وهلّا فديناه ضفأفا وواديا	فهلا تساقينا على حُبّه الهوى
وفي المسلمين الخير ما زال باقيا	وما زال منكم أهل ودّ ورحمة
فقدّمنا عرفنا القتل في الناس فاشيا	فلا يثنكم عن ذمة قتل (بطرس)

القوة في الاتحاد

صوت الشعوب من الزئير مجمعا فإذا تفرق كان بعض نباح

يستحث الشباب على العلم والجداد

قال مخاطبًا الشباب في قصيدة نظمها سنة ١٩٢٤:

يا شباب الغد وأبناء الفدى	لکم أکریم وأعزز بالفداء
هل يد الله لى العيش عسى	أن أراکم فى الفریق السعداء
وأرى تاجکم فوق السها	ورأى عرشکم فوق ذکاء
من رآکم قال مصر استرجعت	عزها فى عهد (خوفو) و (مناء).
أمة للخلد ما تبنى إذا	ما بنى الناس جميعا للعفاء
إنما مصر إليکم وبکم	وحقوق البر أولى بالقضاء
عصرکم حر ومستقبلکم	فى یمین الله خير الأمناء
لا تقولوا حطنا الدهر فما	هو إلا من خيال الشعراء
هل علمتم أمةً فى جهلها	ظهرت فى المجد حسناء الرداء
باطن الأمة من ظاهرها	إنما السائل من لون الإناء
فخذوا العلم على أعلامه	واطلبوا الحكمة عند الحكماء
<u>واقبروا تاريخکم واحتفظوا</u>	<u>بفصیح جاءکم من فصحاء</u>
أنزل الله على ألسنهم	وحیه فى أعصر الوحى الوضاء
واحكموا الدنيا بسلطان فما	خُلقت نضرتها للضعفاء
<u>واطلبوا المجد على الأرض فإن</u>	<u>هى ضاقت فاطلبوه فى السماء!</u>

يدعو إلى إنكار الذات

وقال مخاطبًا الشباب في قصيدة قالها سنة ١٩٢٤.

قالوا أتنظم للشباب تحية	تبقى على جيد الزمان قصيدا
قلت الشباب أتم عقد مآثر	من أن أزيد هو الثناء عقودا
قبلت جهودهم البلاد وقبّلت	تاجا على هاماتهم معقودا
خرجوا فما مدوا خناجرهم ولا	منّوا على أوطانهم مجهودا
<u>خفى الأساس عن العيون تواضعا</u>	<u>من بعد ما رفع البناء مشيدا</u>

حكيمه وعظاته

تنساب في شعر شوقي الحكم والعظات يخاطب بها مواطنيه ويصرهم بعبء التاريخ وعظات الحوادث، مما نذكر طرفاً منه.

جلال الخالدين

قال عن جلال الملوك وأنه إلى زوال ولا يبقى إلا جلال الخلود:
جلالُ الملك أيامٌ وتمضي ولا يمضي جلال الخالدين

الخلود للعمل الصالح

وقال سنة ١٩٢٣ عن الخلود وأنه للعمل الصالح:
من سره أن لا يموت فبالعلي خلد الرجال وبالفعل النباه
ما مات من حاز الثرى آثاره واستولت الدنيا على آدابه
قل للمدلل بما له وبجاهه وبما يحلّ الناس من أنسابه
هذا الأديم يصدّ عن حُضاره وينام ملء الجفن على غُيابه
إلا فتى يمشى عليه مجدداً ديباجتيه معمرًا لخرابه

العدل أساس الملك

وقال في العدل:
والعدل في الدولاب أسٌ ثابت يُفنى الزمان وينقذ الأجيالا

فلسفة الحياة

وقال من قصيدته في رثاء مصطفى كامل:
دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان
ومن قوله في ذكرى كارنارفون مكتشف كنوز توت عنخ آمون:
في الموت ما أعيان^(١) وفي أسبابه كل امرئ رهن بطي كتابه

(١) ما أعيان أي ما أعجز عن إدراك حقيقته. ورهن بطي كتابه، أي باق في الحياة حتى ينتهي أجله.

إن نام عنك فكل طبٌ نافع أو لم ينم فالطب من أذنايه
إلى أن قال منوهاً بفضل كارنارفون في اكتشافاته الأثرية:
أفضى إلى ختم الزمان ففضّه وحبّا إلى التاريخ في محرابه
وطوى القرون القهقري حتى أتى فرعونَ بين طعامه وشرابه

ومن قوله في العظة والاعتبار حين سقطت أدرنة وكانت من أمهات المدن الإسلامية في
مقدونية وغلبيها البلغار سنة ١٩١٢:

يا أخت أندلس عليك سلامٌ هوت الخلافة عنك والإسلامُ
إلى أن قال يندد بسياسة الترك:
رفعوا على السيفِ البناءَ فلم يدم ما للبناءِ على السيوفِ دوام
أبقى الممالكِ ما المعارفُ أسّه والعدلُ فيه حائطٌ ودعام
إن الغرورَ إذا تملك أمةً كالزهرِ يُخفى الموتَ وهو زوام

لا حقّ للضعيف

وقال سنة ١٩٢٣ أثناء انعقاد مؤتمر لوزان مشيراً إلى صلف الإنجليز مع مصر لأنها لم يكن لها
من القوة ما تسترد به حقها:

أتعلم أنهم صلفوا وتاهوا وصدّوا الباب عنا موصدينا؟
ولو كنا نجرُّ هناك سيفاً وجدنا عندهم عطفاً ولينا
سيقضى (كرزن) بالأمر عنا وحاجاتُ (الكنانة) ما قضينا

وقال في هذا المعنى:

يا طيرُ والأمثالُ تُض رب لليب الأمثل
دنياك من عاداتها ألا تكون لأعزل

الحكم للشعوب لا للمستبدين

قال سنة ١٨٩٤ في أول قصيدة له في ديوانه ينبه الملوك إلى قوة الشعوب ويدعوهم إلى
النزول على حكمها:

إن ملكت النفوس فابغ رضاها فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأسر فكيف الخلائق العقلاء؟
يحسب الظالمون أن سيسودو ن وأن لن يؤيد الضعفاء
والليالي جوائرٌ مثلها جا روا ولدهر مثلهم أهواء

وقال سنة ١٩٢٢ يبشر بحكم الشعوب وزوال حكم الفرد:

زمان الفرد يا فرعون ولى ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاية بكل أرض عل حكم الرعية نازلينا

وقال سنة ١٩٢٣ يندد بالمستبدين:

المستبد يُطاق في ناووسه لالتحت تاجيه وفوق وثابه^(١)
والفرد يؤمن شره في قبره كالسيف نام الشرُّ خلف قرابه^(٢)

وقال في هذا المعنى يخاطب توت عنخ آمون سنة ١٩٢٥:

قسما بمن يحيى العظا م ولاأزيدك من يمين
لو كان من سفر أيا بك أمس أو فتح مبین
لرأيت جيلا غير جيلك بالجبابر لايدین
ورأيت محكومين قد نصبوا وردوا الحاکمین^(٣)
روح الزمان ونظمه وسبيله في الآخرين
ان الزمان وأهله فرغا من الفرد اللعين
فإذا رأيت مشايخا أوفتية لك ساجدين
لاقي الزمان تجدهمو عن ركبته متخلفين
هم في الأواخر مولدا وعقوهم في الأولين

الشعب قد يُخدع

قال في مسرحية (مصرع كليوباترة) على لسان (حاجي) يخاطب (ديون)^(٤):

(١) الناووس، القبر. والوثاب؛ السرير.

(٢) قراب السيف؛ غمده.

(٣) نصبوا وردوا؛ أي ولوا وعزلوا الحاکمین.

(٤) حاجي وديون؛ من أشخاص الرواية وكلاهما من أمناء مكتبة قصر كليوباترة.

إِسْمَعِ السَّعْبَ دِيُونُ كَيْفَ يُوحُونَ إِلَيْهِ
 مَلَأَ الْجَوَّ هُتَافَا بِحَيَاتِي قَاتَلِيهِ
 أَثَرَ الْبَهْتَانُ فِيهِ وَأَنْطَلَى الزُّورُ عَلَيْهِ
 يَا لَهُ مِنْ بَبْغَاءَ عَقْلُهُ فِي أَذْنِيهِ

الحياة الدستورية السليمة

قال عن الدستور:

سَرُّ الحُكُومَةِ أَنْ يَسَاسَ بِوَاحِدٍ فِي المَلِكِ أَقْوَامٌ عِدَادِ رِمَالِهِ

وقال سنة ١٩٢٤ من قصيدة له عن (الأزهر):

وَتَفَيَّأُوا الدِّسْتُورَ تَحْتِ ظِلَالِهِ كَنَفًا أَهْنُ مِنَ الرِّيَاضِ وَأَنْضِرَا
 لَا تَجْعَلُوهُ هَوًى وَخُلْفًا بَيْنَكُمْ وَجَمْرًا دُنْيَا لِلنَّفُوسِ وَمَتَجَجِرَا
 اليَوْمَ صَرَّحْتَ الْأُمُورَ فَأَظْهَرْتَ مَا كَانَ مِنْ خَدَعِ السِّيَاسَةِ مَضْمِرَا
 قَدْ كَانَ وَجْهُ الرِّأْيِ أَنْ نَبْقَى يَدًا وَنَرَى وِرَاءَ جَنُودِهَا إِنْجَلْتِرَا
 فَإِذَا أَتَيْتَنَا بِالصَّفُوفِ كَثِيرَةً جِئْنَا بِصَفٍّ وَاحِدٍ لَنْ يُكْسِرَا

وقال سنة ١٩٢٦ من قصيدة له في عيد الجهاد:

وبالدستور وهو لنا حياةً نرى فيه السلامة والفضلا
 أخذناه على المهج القوالى ولم نأخذه نيلًا مُسْتَمَاحَا
 بَيْنَنَا فِيهِ مِنْ دَمْعٍ رُواقَا وَمِنْ دَمٍ كُلِّ نَابِتَةٍ جَنَاحَا

وقال سنة ١٩٢٧ عن الحياة الدستورية السليمة:

إِذَا سَلِمَ الدِّسْتُورَ هَانَ الَّذِي مَضَى وَهَانَ مِنَ الْأَحْدَاثِ مَا كَانَ آتِيَا
 الْأَكْلَ ذَنْبَ لَيْلِي لِأَجَلِهِ سَدَلْنَا عَلَيْهِ صَفْحَنَا وَالتَّنَاسِيَا

وقال سنة ١٩٢٦ حينما اجتمع المؤتمر الوطنى يوم ١٩ فبراير من تلك السنة واثلتفت فيه الأحزاب يحمي الدستور لمناسبة عودته بعد توحيد الصفوف:

صَرَّحَ^(١) عِلَّ الوَادِي المَبَارِكِ ضَاحِي مَتَظَاهِرُ الْأَعْلَامِ وَالْأَوْضَاحِ

(١) يريد الدستور.

ساحاتٍ فضل في رِحابِ سَمَاحٍ
وكأن حائطه عمود صَبَاحٍ
ومراشِدُ السلطانِ خَلْفَ جَنَاحٍ
ما لِلهياكلِ من فِدْيٍ وَأَضَاحٍ
تَحْتِ النَّبالِ وَصَوْبِها السَّحَاحِ
يُثَلُّ انهيارِ الشريكِ حولِ (صلاح) (٢)
مَتَحَطَّمِ الأَصنامِ والأشباحِ

ضافي الجلالة كالعتيق مَفْصَلُ
وكأن زَفَرَفَه رواقٍ من ضَحَى
الحقِّ خَلْفَ جناحِ استذرى (١) به
هو هيكُلُ الحريّة القاني، له
يُبْنَى كما تُبْنَى الخنادقُ في الوغى
يَنهَارُ الاستبدادُ حولَ عِراضِه
ويكبُّ طاغوتُ الأمورِ لِوَجْهِه

* * *

هو ما بَنَى الشهداءُ بالأرواحِ
وَرَدَّ الكواكبِ أحمرَ الإصباحِ
والشيبِ بالأزْمَاقِ غيرِ سِحَاحِ
لِلظَّافِرِ الشاكيِ بغيرِ سِلاحِ
إِلَّا انثَنَّتْ آمَها بِنِجَاحِ
جعلوا الماتَمَ حائطَ الأفراحِ

هو ما بَنَى الأَعزَالُ بالرَّاحاتِ أو
أَخَذَنهُ (مصرُ) بكلِ يومٍ قاتمِ
هَبَّتْ سِماحًا بالحياةِ سِبابِها
وَمَشَّتْ إلى الخَيْلِ الدوارِعِ وانْبَرَّتْ
وقفاتٌ حقٌّ لم تَقْفَها أمةٌ
وإذا الشُّعوبُ بَنَوْا حَقيقةَ مُلكِهم

إلى أن قال في توحيد الصفوف:

هَزَّ الربيعِ مَنابِجَ الأَدواحِ
وَتَسِيلُ غُرَّتِها بِكُلِّ بِطَاحِ
وتصافتِ الأَقلامُ بِعَدِّ تَلَاحِ
وَمَشَى على الضغْنِ الودادُ المَاحِ
سَمَرٌ على الأوتادِ والأقْداحِ
غيرَ التَعانِقِ واشتباكِ الرَاحِ

بُشْرَى إلى الوادى تَهزُّ نَباتَهُ
تَسرى مُلَمَّحَةَ الحُجُجولِ عِلَّ الرُّبَى
التامتِ الأَحزابُ بِعَدِّ تَصَدُّعِ
سُحِبَتْ على الأحقادِ أذِبالُ الهوى
وَجَرَّتْ أحاديثُ العتابِ كأنها
تَرْمى بِطَرَفِكَ في المِجامِعِ لا تَرى

إلى أن قال يصف تعطيل الدستور عام ١٩٢٥:

وَتَكَالَبَتْ أَيْدٍ على المِفْتَاحِ

احتلَّ حِصنَ الحقِّ غيرُ جنسودِه

(١) استذرى: استظل.

(٢) صلاح: اسم لمكة.

وَأَسْتَوْحَشَتْ لِكُمَاتِهَا النَّزَّاحَ
وَحَلَا مِنَ الْغَادِينَ وَالرَّوَّاحِ
كَالْفَارِ مِنْ شَرْفٍ وَسَمَتِ صِلَاحِ

ذَرَعُ الشَّبَابِ يَضِيقُ بِالنَّصَّاحِ
فِي قِصْفِ أَنْوَاءٍ وَعِصْفِ رِيَّاحِ
فِي الْحَادِثَاتِ وَسَيْلِهَا الْمُجْتَاحِ
مِنْ أَمْرِ مُفْتَاتٍ وَنَهْيِ وَقِيَّاحِ
فَإِذَا تَفَرَّقَ كَانَ بَعْضُ نُبَّاحِ
رَنْقًا مِنَ الْإِحْسَانِ غَيْرِ قَرَّاحِ
طَهَّرَتْ عَلَيْهِ سَجِيَّةَ الْمَنَاحِ
لَا فِي الْحَيْبَالِ وَلَا طَرِيقَ سَرَّاحِ
وَكَسَا الْقِيُودَ مَحَاسِنَ الْأَوْضَاحِ
طَوَّلُ اجْتِهَادٍ وَاضْطِرَّادُ كِفَّاحِ
إِنِ الْأُنَاةَ سَيِّلُ كُلِّ فَلَاحِ
إِنِ الشَّرَّاعَ مُثَقَّفُ الْمَلَّاحِ

صَجَّتْ عَلَّ أَبْطَالَهَا تُكْنَأْتُهُ
هُجِرَتْ أَرَائِكُهُ وَعُطِّلَ عُوْدُهُ
وَعَلَاهُ نَسْجُ الْعَنْكَبُوتِ فَزَادَهُ

وقال ينصح الشباب:

قُلْ لِلْبَنِينَ مَقَالَ صَدَقٍ وَاقْتَصِدْ
أَنْتُمْ بَنُو الْيَوْمِ الْعَصِيبِ نَشَأْتُمْ
وَرَأَيْتُمْ الْوَطْنَ الْمُؤَلَّفِ صَخْرَةً
وَشَهِدْتُمْ صَدْعَ الصَّفُوفِ وَمَا جَنَى
صَوْتُ الشُّعُوبِ مِنَ الزُّنَيْرِ بِجَمْعًا
أَظْمَتَكُمْ الْيَوْمَ نَمِ سَقْتَكُمْ
وَإِذَا مُنِحَتِ الْخَيْرَ مِنْ مُتَكَلِّفٍ
تَرْكَتْكُمْ مِثْلَ الْمَهِيضِ جِنَاحُهُ
مَنْ صَيَّرَ الْأَغْلَالَ زُهْرًا قَلَانِيدِ
إِنِ التِّي تَبْغُونَ دُونَ مَنَالِهَا
سَيِّرُوا إِلَيْهَا بِالْأُنَاةِ طَوِيلَةً
وَخَذُوا بِنَاءَ الْمَلِكِ عَنْ دُسْتُورِكُمْ

ومن قصيدة له سنة ١٩٢٦ حين اجتمع برلمان الائتلاف:

وَالْعِزُّ لِلدُّسْتُورِ وَالْإِكْبَارُ
فِيهِ وَلَا يَطْفَى بِهِ جَبَّارُ
صَالَهُ وَاخْضَلَّتْ الْأَسْحَارُ
وَلِكُلِّ جِهْدٍ فِي الْحَيَاةِ ثَمَارُ
وَبَنِينَ لَمْ يَجِدُوا السَّلَاحَ فَنَارُوا
وَمِنَ الْمَشَاقِقِ وَالسَّجُونِ جِدَارُ
بِالْحَقِّ أَوْ بِالْوَجِبِ الْأَحْرَارُ
فَسَهُ وَلَا سُلْطَانَ مِصْرَ صَغَارُ
فِيهِ وَلَا غَيْرَ الصَّلَاحِ شِعَارُ

الْحَقُّ أَبْلَجُ وَالْكِنَانَةُ حُسْرَةٌ
الْأَمْرُ شُورَى لَا يَعْيْتُ مَسْلُطُ
عَهْدٌ مِنَ الشُّورَى الظَّلِيلَةِ نَضْرَتْ
تَجْنِي الْبِلَادَ بِهَا ثَمَارَ جِهْدِهَا
بِنِيَانِ آبَاءِ مَشَاوِ بِسَلَاحِهِمْ
فِيهِ مِنَ التَّلِّ الْمَدْرَجِ حَائِطُ
أَبَتْ التَّقْيِيدَ بِالْهُوَى وَتَقْيِيدَتْ
فِي مَجْلِسِ لَا مَالُ مِصْرَ غَنِيمَةُ
مَا لِلرِّجَالِ سِوَى الْمُرَاشِدِ مَنَهْجُ

يتعاونون كأهل دارٍ زلزلت
 يجرّون بالرفق الأمور وفلكها
 حتى تقرر وتطمئن الدار
 والريح دون الفلك والإعصارُ
 ومع المجدّد بالأناة سلامةُ
 ومع المجدّد بالجماح عتسارُ

يدعو إلى انتخاب الأكفاء الشرفاء

ومن قصيدة له سنة ١٩٢٢ قال في مطلعها:
 أُعدت الراحة الكبرى لمن تعبنا وفاز بالحق من لم يألئه طلبنا
 إلى أن قال مشيراً إلى الانتخابات البرلمانية:
 دارُ النيابة قد صُفّت أرائكها لا تُجلّسوا فوقها الأحجار والحُشبا
 اليوم يا قومُ إذ تبنون مجلّسكم تبنون للعقب الأيام والحقبا
 ومن قصيدته سنة ١٩٢٤ عن (الأزهر):

دار النيابة هُيئت درجاتها
 الصارخون إذا أسىء إلى الحمى
 فلُيرتقى في الدرّج الذوائب والذُرا
 والذائدون إذا أُغبر على الرى
 لا الجاهلون العاجزون ولا الألى
 يمشون في ذهب القيود تبخترا

رُؤاد الوطنية

قال سنة ١٩٢٥ من قصيدة له في رثاء المرحوم عبد اللطيف الصوفاني:
 ألسّت من ففة سهامٍ
 فتأهّم بالشباب ضحى
 ومات أبطالهم جياعا
 ولو أرادوا متاع دنيا
 قضية الحق منذ قامت
 تحذو على مصطفى وتبنى
 شرعتمو للشباب ديننا
 لما أتيتم به جعلتم
 جمعتم مصر ثم سرّتم
 وما عرفتم لغير مصر
 سنوا المحاماة والرّماء
 ما أعظم الذبيح والفداء
 في غير أوطانهم ظماء
 لأدركوا الحكم والثراء
 لم تأل أركانها بناء
 جيلا من الحق أقوياء
 كدينهم بينا سواء
 رأسن تعاليمه (الجلاء)
 فكنتم الجمع واللواء
 وغير أحباها ولاء

لم تمسحوا للعميد رأساً ولا نفضتم له حذاء

وقال من قصيدة يرثى فيها المرحوم أمين الرافعي:

قيل غالٍ في الرأي قلت هُبُوهُ قد يكون الغلو رأياً أصيلاً
وقديماً بنى الغلو نفوساً وقديماً بنى الغلو عقولاً
قد فقدنا به بَقِيَّةَ رَهْطٍ أبقظوا النيل وادبا ونزيلاً
حركوه وكان بالأمس كالكهف حُزونا وكالرقيم سهولاً
يا أمين الحقوق أدت حتى لم تَخُنْ مصرَ في الحقوق فتيلاً
ولو اسطعتْ زدتْ مصر من الحقِ على نيلها المبارك نيلاً
لستُ أنساك قابعا بين درجيك مكباً عليها مغولاً
قد تواريت في الخشوع فخالو ك ضئيلاً وما خلقت ضئيلاً
سائل (الشعب) عنك (والعلم) الخفاق أو سائل (اللواء) الظليل
تُنَيْدُ الناس في (القضية) لحناً كالحواري رتل الإنجيل
ماضياً في الجهاد لم تتأخر تزن الصف أو تقيم الرعيل
ما تبالي مضيت وحدك تحمى حَوْدَةَ الحق أم مضيت قبيلاً

يدعو إلى النهضة الاقتصادية

قال سنة ١٩٢٠ من قصيدة له في الاحتفال بإنشاء بنك مصر يدعو إلى الاكتتاب في رأس مال البنك وينوه بفضل المال في نهضة الأمم:

قل بالممالك وانظر دولة المال واذكر رجالاً أداؤها بإجمال
إلى أن قال:

يا طالباً لمعالى الملك مجتهداً خذها من العلم أو خذها من المال
بالعلم والمال يبني الناس ملكهم لم يُبْنِ ملكٌ على جهل وإقلال
سراة مصر عهدناكم إذا بُسِطت يد الدعاء سراعاً غير يُخال
تبين الصدق من بين الأمور لكم فامضوا إلى الماء لا تلوا على الآل
لا يذهب الدهر بين الترهات بكم وبين زهر من الأحلام قتال
هاتوا الرجال وهاتوا المال واحتشدوا رأياً لرأى ومثقالاً بمثقال
هذا هو الحجر الدرّي بينكمو فابنوا بناء قريش بيتها العالی

آمال مصر إليها عالما طمحت هل تبخلون على مصر بآمال
فابنوا على بركات الله واغتنموا ما هيا الله من حظاً وإقبال
وقال في قصيدة أخرى:

الملك بالمال والرجال لم يُبِن ملك بغير مال

يحیی النهضة النسوية

كان مؤيداً ونصيراً لنهضة المرأة، ألقى هذه القصيدة سنة ١٩٢٤ في جمع حافل من السيدات
المصريات بمسرح حديقة الازبكية، وجعل عنوانها في ديوانه (مصر تجدد مجدها بنسائها
المتجددات) قال:

قُم حَيِّ هَذِي النِّيرَاتِ	حَيِّ الحَسَانَ الخِيرَاتِ
وَاخْفِضِ جَبِينِكَ هَيْبَةً	لِلخُرْدِ المتخَفِّراتِ ^(١)
زَيْنَ المقاصِرِ والحِجَا	لِوزَيْنِ محرابِ الصلاةِ
هَذَا مَقَامُ الأُمَّهَا	تِ فَهَلِ قَدَرْتِ الأُمَّهَاتِ؟
لَا تُلَغُ ^(٢) فِيهِ وَلَا تَقُلْ	غَيْرَ الفَوَاصِلِ محكَّماتِ
وَإِذَا خَطَبْتِ فَلَا تَكُنْ	خُطْبًا عَلَى مِصرِ الفتاةِ
أذَكَرْ لَهَا اليَابَانَ لَا	أُمَّمَ الهِوىِ المتَهتِكاتِ
مَاذَا لَقِيتِ مِنَ الحِضَا	رَةِ يَا أُخَيَّ التَّرَهَاتِ
لَمْ تُلقِ غَيْرَ الرِّقِ مِنَ	عُسْرِ عَلَى الشَّرْقِي عَاضَتِ

خُذْ بِالكِتَابِ وبالحَدِيدِ	ث سِيرَةَ السلفِ الثِّقَاةِ
وارجعِ إِلَى سُنَنِ الخَلِيفِ	قَةَ وَاتَّبِعْ نُظْمَ الحِياةِ
هَذَا رِسُولُ اللهِ لَمْ	يُنْقِضْ حُقُوقَ المُؤْمِنَاتِ
العِلْمِ كانَ شَرِيعَةً	لِنِساءِهِ المتفِقهَاتِ
رُضْنُ التِّجَارَةِ والسِّيا	سَةِ والشُّؤُونَِ الأُخْرِيَاتِ
ولقدِ علِمْتَ بِناتِهِ	لِجُحِّ العِلْمِ الزَّاخِرَاتِ
كانتِ سَكِينَةً ^(٣) تَمَلَأُ الـ	دُنْيَا وَتَهزُّ بِالرِوَاةِ

(١) الخرد: العذاري. والمتخفرات: المستحيات. والخرف هو الحياء. (٢) سكينه: بنت الحسين رضى الله عنها.

(٢) لا تلغ: لا تقل باطلا.

آى الكتاب البينات
 طُقُّ عن مكان المسلمات
 ت ومنزل المتأدبات
 أم الجوارى^(١) النابغات
 من الهاتفات الشاعرات
 كيف اتحاد الغانيات
 أسبابه متعاونات
 لِ تَفَاخُرًا أو حُبِّ ذات
 يُع والفنون مُضِيَّعَاتِ
 ء من الشؤون المُهْمَلَاتِ
بِرَ للنجاح موفقات
 وادى هوى فى الصالحات
 طاعاته خَيْرَ النَّبَاتِ
 زَهْرُ المناقبِ والصفاتِ
 حتى زِدْنَ حَضَّ المحسنات
 ب مُساومات رابحاتِ
 ت وما ذكْرَنَ البائساتِ
 سَتْرٌ على المتجَمَّلَاتِ
بنسائها المتجدداتِ
 د كأنه شَبَّحَ المَمَاتِ
 فرُقُ وبين المومياتِ
 ية كُنَّ خَيْرَ الحاضناتِ
 يلبسهنَّ الطاهراتِ
 ن إلى الكريمة مُعَلَّمَاتِ^(٢)
 رُوح الشجاعة والثباتِ
 د أو مُعَانَقَةَ القناةِ
 قُبَلَ الرَّجَالِ مُحْرَمَاتِ

روت الحديث وفسرت
 وحضارة الإسلام تند
 بغداد دار العالمات
 ودمشق تحت أمية
 ورياض أندلس نيم
 أدع الرجال لينظروا
 والتفع كيف أخذن فى
 لما رأين ندى الرجا
 ورأين عندهم الصنا
 والبر عند الأغنيا
أقبلن يبنين الما
 للصالحات عقائل ال
 الله أنبتهن فى
 فأتين أطيب ما أتى
 لم يكف أن أحسن ح
 يمشين فى سوق الثوا
 يلبسن ذل السائل
 فوجوههن وماؤها
مصر تجدد مجدها
 النافرات من الجمو
 هل بينهن جوامدا
 لما حزن لنا القضا
 غديتها فى مهديها
 وسبقن فيها المعلم
 يفتن فى الفتيان من
 هوين تقبيل المهند
 ويرين حتى فى الكرى

(١) الفتيات.

(٢) المعلمون: بفتح اللام: الفرسان لهم علامة فى الحرب لبطولتهم.

يحيى الصحافة

قال سنة ١٩٢٠ من قصيدة له في احتفال أقامته نقابة الصحفيين:
 لكل زمان مضى آيةٌ وآية هذا الزمان الصُّحُفُ
 لسان البلاد ونبض العباد وكهف الحقوق وحرب الجَنَفِ^(١)
 تسير مسير الضحى في البلاد إذا العلم مزَّق فيها السِّدْفُ
 وتمشى تعلمٌ في أُمَّةٍ كثيرةٍ من لا يخطُّ الألف

* * *

فيا فتية الصحف صبراً إذا نبا الرزقُ فيها بكم واختلف
 فإن السعادة غير الظهور وغير الثراء وغير الترف
 ولكنها في نواحي الضمير إذا هو باللؤم لم يكتنف
 وروموا النبوغَ فمن ناله تلقى من الحظ أسنى التحف
 حمدنا بلاءكم في النضال وأمس حمدنا بلاء السلف
 ومن نسي الفضل للسابقين فما عرف الفضل فيما عرف
 أليس إليهم صلاحُ البناء إذا ما الأساس سَمَا بالُغَرْفِ

يندد بمن يخذل الوطنية

في سنة ١٩٠٤ خطب مصطفى رياض باشا في حفلة تأسيس مدرسة محمد علي الصناعية بالإسكندرية خطبة امتدح فيها اللورد كرومر كما امتدح الاحتلال البريطاني.
 وقد أثارت هذه الخطبة سخط الرأي العام واستنكرها المواطنون، وكان شوقى صوت الشعر الناطق باستنكار الخطبة وصاحبها، قال:

كبير السابقين من الكرام برغمي أن أنالك بالملام
 مقامك فوق مازعموا ولكن رأيت الحق فوقك والمقام

(١) الجور والظلم.

إلى أن قال:

غمرت القوم ^(١) إطرأ وحمداً	وهم غمروك بالنعم الجسام
رأوا بالأمس أنفك في الثريا	فكيف اليوم أصبح في الرغام
<u>خطبت فكنت خطباً لاخطيباً</u>	<u>أضيف إلى مصائبنا العظام</u>
<u>لهجت بالاحتلال وما أتاه</u>	وجرحك منه لو أحسست دام
وهل تركت لك السبعون عقلا	لعرقان الحلال من الحرام؟

يندد بقاضى دنشواى

كان أحمد فتحى زغلول أحد قضاة محكمة دنشواى الذين أصدرنا ذلك الحكم الجائر فى تلك
المأساة سنة ١٩٠٦، وقد رقى بعد ذلك وكيلا لوزارة الحقانية (العدل) وأقيمت له حفلة تكريم فى
فندق شبرد دعى إليها شوقى فرفض الدعوة وأرسل فى ظرف مغلق هذه الأبيات التى عبر فيها
أبلغ تعبير عن تنديده بالمحتفل به وبالمحتفلين:

إذا ما جمعتم أمركم وهمتمو	بتقديم شىء للوكيل ثمين
خذوا حبل مشنوق بغير جريرة	وسروال مجلود وقيد سجين
ولا تعرضوا شعرى عليه فحسبه	من الشعر حكم خطه بيمين
ولا تقراوه فى «شبرد» بل اقراوا	على ملأ فى دنشواى حزين

الحنين إلى الوطن

زاد حب شوقى للوطن وتعلقه به فى منفاه بالأندلس، وقد كان نفيه بأمر السلطة العسكرية
البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٥، وبقي فى منفاه بعيداً عن الوطن نحو خمسة
أعوام إلا قليلا، فازداد شعوراً بلوعة الحزن على فراقه، واستثار النفى الوطنية الكامنة فى نفسه،
وأججت الغربة نارها، فانطلق يشدو بالحنين إلى الوطن.

حسبك منه سينيته الأندلسية، تلك القصيدة الخالدة التى نظمها سنة ١٩١٩ يعارض فيها
سينية البحترى، قال فى مطلعها:

اختلافُ النهار والليل يُنسى	أذكرا لى الصبا وأيام أنسى
-----------------------------	---------------------------

(١) يريد المحتلين.

وَسَلَا (مصر) هل سلا القلب عنها
كلما مرّت الليالى عليه
إلى أن قال:

يا ابنة اليم^(١) ما أبوك بخيلٌ
أحرامٌ على بلابله الدو
كلُّ دارٍ أحقُّ بالأهلِ إلَّا
نفسى مِرْجَلٌ وقلبي شِراعٌ
واجعلى وجهك (الفنار) وبجرا
وطنى لو شُغِلْتُ بالخلد عنه
شَهِدَ اللهُ لم يغب عن جفونى

ماله مولعًا بمنعٍ وحبس
حُ حلالٌ للطير من كل جنس؟
في خبيثٍ من المذاهب رجس^(٢)
بها في الدموع سبرى وأرسى
ك يد (الثغر) بين (رمل) و (مكس)
نازعتنى إليه في الخلد نفسى
شخصه ساعة ولم يخلُ جسسى

والقصيدة من أروع ما نظم شوقى

وله في هذا المعنى قصيدة أخرى رائعة نظمها في منفاه يعارض فيها نونية ابن زيدون.
قال:

ياناتح (الطلح) أشباه عوادينا
ماذا تقص علينا غير أن يدا
رمى بنا البين^(٣) أيكًا غير سامرنا
ثم انتقل من خطاب الطائر الحزين إلى
آها لنا نازحى أيك بأندلس
رسم وقفنا على رسم الوفاء له
إلى أن قال في الحنين إلى مصر:

لكن (مصر) وإن أغضت على مقة^(٤)
عين من الخلد بالكافور تسقينا

(١) يقصد السفينة.

(٢) يقصد مذهب الاستعمار الذى يضطهد الوطنيين وينفهم وينعمهم من التعبير عن آرائهم والإعراب عن آمالهم.

(٣) الطلح وأدبا الأندلس، بضاحية أشبيلية، يخاطب حمام هذا الوادى ويمثله شبيها به في لوعته وغربتة، وعوادينا أى عوادى

الدهر ومصائبه.

(٤) البين: البعد، والأيك: الشجر الكثير الملتف.

(٥) الرفيف: الخصب.

(٦) المقة: المحبة.

وحول حافاتِها قامت رواقينا^(١)
وأرْبُعُ أنِستَ فيها أمانينا
ومَغْرِبُ لجدودِ من أوالينا
من بِرِّ مصرَ وريحانِ يُغادينَا
وباسمه ذهبَت في اليمِّ تُلْقِينَا^(٢)
لحاضرين وأكوابُ لبادينَا
بعد الهدوءِ ويهي عن مآقينا
هاج البكا فحَضْبْنَا الأرضِ باكينَا

على جوانبِها رَفَّتْ تَمائِنَا
ملاعِبُ مَرِحَتْ فيها مآربِنَا
ومطلعِ لِسَعُودِ من أواخرِنَا
بِنَا^(٢) فلم نَخُلْ من رُوحِ يَراوِحِنَا
كأَمِّ موسى على اسمِ الله تكفلِنَا
ومصرَ كالكَرْمِ ذى الاحسانِ فاكهَةٌ
ياسارى البرقِ يرمى عن جوانحِنَا
لما ترقق في دمعِ السماءِ دَمًا

إلى أن قال يخاطب مواظنيه:

دنياً وودَّهوَ الصافي هو الدِّينَا
ومن مَصُونِ هواهم في تَنَاجِينَا
في النائباتِ فلم يأخذ بأيدِينَا

إلى الذين وجدنا وُدَّ غيرِهِم
يا من نَغَارَ عليهم من ضمائرِنَا
ناب الحَيْنِ إِلَيْكُمْ في خواطرِنَا

إلى أن قال يشيد في منفاه بعظمة مصر:

في ملكها الضخم عرشاً مثل وادينَا
عليه آباءُها الغرُّ الميامينَا؟
قبل (القياصر) دِنَاها (فراعينَا)
في الأرضِ إِلَّا على آثارِ باينِنَا
به يدُ الدهرِ لا بنيانُ فائِنِنَا

لم تنزل الشمسُ ميزانًا ولا صعِدتْ
ألم تُؤَلِّهُ على حافاتِهِ ورأتْ
وهذه الأرضُ من سَهْلٍ ومن جبلٍ
ولم يَضَعِ حَجَرًا بانٍ على حجرٍ
كأن (أهرامَ) مصرٍ حائِطٌ نَهَضَتْ

إلى أن قال في تحية مصر وتشوقه إليها من منفاه:

مَرُّ الصِّبَا في ذبولٍ من تصاينِنَا
غُرًّا مُسَلَّسَةَ المَجْرَى قوافينِنَا
وثابَ من سِنَةِ الأحلامِ لاهينِنَا

أرضُ الأبوةِ والميلادِ طيبَها
كانت مَحْجَلَةً فيها مواقِفِنَا
فآبَ من كُرَّةِ الأيامِ لاهينِنَا

(١) الرواقى: جمع راقية وهى مايرقى به الصبى درما للسحر.

(٢) بنا: أى بعدنا.

(٣) شبه مصر حين اضطرت إلى نفيه بأَمِّ موسى عليه السلام حين القته في اليم صبيا وسألت الله أن يكفله.

ولم نَدْعُ لليالِ صافيا فَدَعَتْ بأن نَغْصُ فقال الدهر آمينا
لو استطعنا لَحُضْنَا الجوّ صاعقَةً والبرُّ نارَ وُغَى والبحر غَسْلِينا^(١)
سَعِيًّا إلى مصر نقضى حقَّ ذاكرنا فيها إذا نسى الوافي وباكيننا

وقال يذكر والدته بحلوان وقد توفيت قبيل عودته:

كَنَزُ (بحلوان) عند الله نطلبه خيرَ الودائع من خير المؤدينا
لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا لم يأتَه الشوق إلا من نواحيننا
إذا حَمَلْنَا لمصرٍ أوله شجننا لم ندر أى هوى الأمان شاجيننا

وقال أيضًا سنة ١٩١٧ في منفاه يهتف بمصر وساكنيها:

يا ساكني مِصرَ إِنَّا لا نزال على عهد الوفاء وإن غبنا مقيمينا
هَلَّا بعثتم لنا من ماء نيلكم نبيًّا نبل به أحشاء صاڤينا^(٢)
كل المتاهل بعد النيل آسنه منأبعد النيل إلا عن أمانينا

وقد بعث شوقي بهذه الأبيات إلى صديقه وصنوه حافظ إبراهيم فأجابه حافظ بالأبيات الآتية.

عجبت للنيل يدري أن بلبله صاڤٍ ويسقى رَبًّا مصر ويسقينا
تالله ما طاب للأصحاب مورده ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه وقد نأينا وإن كنا مقيمينا

يشيد بعظمة مصر

لقد ملك حب مصر مشاعره فكان يتغنى بعظمتها ويشيد بمفاخرها، وتفويض قصائده بهذا المعنى السامى.

قال في تحية مصر والنيل والهرم من قصيدة نظمها سنة ١٩١٤ يمجى بها الطائرين العنمانيين سالم وكمال حين قدومهما إلى مصر على متن طائرتهما عن طريق العريش وسيناء:

يا راكب الريح حىّ النيل والهرما وعظّم السفح من سيناء والحرما

(١) الغسلين: الصديد.

(٢) الصاڤى: الظمان.

فَكَانَ أَنْبَتَ مِنْ أَطْوَايِهِ قِيمَا
مُوسَى رَضِيْعًا وَعَيْسَى الطَّهْرِ مُنْفِطَا
وَبَيَّنْتُ لِلْعَبَادِ السَّيْفَ وَالْقَلِمَا
بِهِ وَيَعِشَى عَلَيْهِ الدَّهْرُ مُحْتَشِمَا

وَقِفْ عَلَى أَثَرِ مَرِّ الزَّمَانِ بِهِ
وَإخْفِضْ جَنَاحَكَ فِي الْأَرْضِ الَّتِي حَمَلْتَ
وَأخْرَجْتَ حِكْمَةَ الْأَجْيَالِ خَالِدَةً
هَذَا فِضَاءٌ تُلْمُ الرِّيحَ خَاشِعَةً

وقال من قصيدة له في أبي الهول:

وَبَلَّغْتَ فِي الْأَرْضِ أَقْصَى الْعَمْرِ
بِئْسَ مَا لَمْ تَجَاوِزْتِ حَدَّ الصَّغْرِ
لِرِ لِيَطِيَّ الْأَصِيلَ وَجَوِّبَ السَّحْرَ
نِ فَايَانَ تُلْقَى عُبَارَ السَّفَرِ؟
لِرِ تَزُولَانَ فِي الْمَوْعِدِ الْمُنْتَظَرِ^(١)؟
نِ نَجِيَّ الْأَوَانَ سَمِيرَ الْعُصْرِ
نِ رَفِيْعَ الْبِنَاءِ جَلِيلَ الْأَنْرِ

أَبَا الْهَوْلِ طَالَ عَلَيْكَ الْعُصْرُ
فِيالِدَةَ الدَّهْرِ^(١) لَا الدَّهْرُ شِ
إِلَّامَ رِكُوبِكَ مَتَنَّ الرِّمَا
تُسَافِرُ مُنْتَقِلًا فِي الْقُرُو
أَبِينِكَ عَهْدٌ وَبَيْنَ الْجَبَا
أَبَا الْهَوْلِ أَنْتَ نَدِيمَ الزَّمَا
ظَلِيلَ الْحِضَارَةِ فِي الْأَوْلِيَا

وختمها بقوله:

نِ تَحْرُكُ مَا فِيهِ حَقِي الْحَجَرِ

تَحْرُكُ أَبَا الْهَوْلِ هَذَا الزَّمَا

وقال عن الأهرام من قصيدة له سنة ١٩٢٢:

هَلْ مِنْ بُنَاتِكَ مَجْلِسَ أَوْنَادِ
إِنِ الْأَبُوءَ مَفْزَعِ الْأَوْلَادِ
مِنْ كَلِّ مُلْقٍ لِلْهَوَى بِقِيَادِ
وَقْتِ الْبَلَاءِ تَفَرَّقَ الْأَضْدَادِ^(٢)
بَاغٍ عَلَى النَّفْسِ الضَّعِيفَةِ عَادِ

قِفْ نَاجِ أَهْرَامَ الْجَلَالِ وَنَادِ
نَشْكُو وَنَفْزَعِ فِيهِ بَيْنَ عَيْوَنِهِمْ
وَنَبِيْهِمْ عَيْتَ الْهَوَى بِتَرَاتِهِمْ
وَنَبِينِ كَيْفَ تَفَرَّقَ الْأَخْوَانُ فِي
إِنِ الْمَغَالِطِ فِي الْحَقِيقَةِ نَفْسَةَ

(١) أى يأخا الدهر وقرينه فكأنه والدهر توأمان.

(٢) يوم القيامة.

(٣) يشير إلى الانقسام الذى حدث سنة ١٩٢١ بين سعد وعدلى وأنصارهما وتصدعت بسببه الوحدة الوطنية.

من هاتف بمكانهن وشاد
هذا الجلال ولا على الأوتاد
وعليك روحانية العباد
ورفعت من أخلاقهم بعماد
أخذت لها عهدًا من الآباد
مهد الشموس ومسقط الآراد^(٢)

قل للأعابيب الثلاث^(١) مقالة
لله أنت فما رأيت على الصفا
لك كالمعابد زوعةً قدسية
أسست من أحلامهم بقواعد
قم قبل الأحجار والأيدى التي
وخذ النبوغ من الكنانة إنها

وقال يشيد بعظمة الأهرام من قصيدته (على قبر نابليون):

خيلة الصيد^(٣) وزهو الفاتحين
حرم الدهر ومحراب القرون
كالحطيم الطهر عند المسلمين
لم يكن قبلك حظ الخاطبين
لك وابعث في الأوالي حاشرين
قد أحاطت بالقرون الأربعين
غاية قصر عنها الفاتحون
بعد العهد فهل يعتبرون؟

قم إلى الأهرام واخشع واطرح
وقهل إنما تمشى إلى
هو كالصخرة عند القبط أو
وتسنم منبرًا من حاجر
وادع أجيالا تولت يسمعوا
وأعدها كلمات أربعا^(٤)
قد عرضت الدهر والجيش معًا
عظة قومي بها أولى وإن

قصر أنس الوجود

وقال سنة ١٩١٠ عن قصر (أنس الوجود) بأسوان وكيف يغمره النيل وقت الفيضان، من قصيدة يخاطب فيها الكولونل تيودور روزفلت رئيس الولايات المتحدة الأسبق، وكان قد ألقى خطبة ينتقص فيها من قدر المصريين فرد عليه شوقي بهذه القصيدة:

أيها المنتجى (بأسوان) دارًا
اخلع النعل واخفيض الطرف واخشع
كالثريا تريد أن تنقضًا
لا نحاول من آية الدهر غصًا

(١) يريد الأهرام الثلاثة.

(٢) الآراد جمع رأد. يريد رأد الضحى؛ وقت ارتفاع الشمس.

(٣) الملوك.

(٤) يشير إلى الكلمة التي قالها نابليون لجنوده قبيل معركة الأهرام سنة ١٧٩٨ يستحثهم على القتال: «إن أربعين قرنا تنظر إليكم من فوق قسم هذه الأهرام»

قَفْ بَتْلِكِ (القصورِ) فِي الْيَمِّ غَرَقِي
 كَعَذَارِي أَخْفَيْنَ فِي الْمَاءِ بَضًّا
 مَشْرِفَاتٍ عَلَى الزَّوَالِ وَكَانَتْ
 شَابَ مِنْ حَوْلِهَا الرِّمَانُ وَشَابَتْ
 صَنْعَةً تَدْهِيهِ الْعُقُولَ وَفَنُّ
 يَا قِصُورًا نَظَرُهَا وَهِيَ تَقْضِي (١)
 أَنْتِ سَطْرٌ وَبِجَدِّ مِصْرَ كِتَابٌ
 وَأَنَا الْمُحْتَفَى بِتَارِيخِ مِصْرَ

وقال في يناير سنة ١٩٢٣ بعد اكتشاف كنوز توت عنخ آمون يذكر عظمة مصر الخالدة:

قفي يا أخت (يوشع^(٢)) خبرينا
 فمثلك من روى الأخبار طرا

إلى أن قال يشيد بحضارة قدماء المصريين وكيف بلغوا الشأو العظيم من المجد:

مَشَتْ بِنَارِهِمْ فِي الْأَرْضِ (رُومَا)
 مَلُوكُ الدَّهْرِ بِالْوَادِي أَقَامُوا
 تَعَالَى اللَّهُ كَانَ السَّحَرُ فِيهِمْ
 غَدَاوًا يَبْنُونَ مَا يَبْقَى وَرَاحُوا
 إِذَا عَمَدُوا لِمَأْتِرَةٍ أَعْدُوا
 وَلَيْسَ الْخَلْدُ مَرْتَبَةً تَلْقَى
 وَلَكِنْ مُنْتَهَى هِمِّ كِبَارِ
 وَسُرُّ الْعَبْقَرِيَّةِ حِينَ يَسْرِي
 وَأَثَارُ الرِّجَالِ إِذَا تَنَاهَتْ
 وَأَخَذَكَ مِنْ فَمِ الدُّنْيَا ثَنَاءً

وقال مخاطبًا توت عنخ آمون:

بِوَادِيهَا وَيَوْمَ ظَهَرَتْ فِينَا
 سَلَامٌ يَوْمَ وَارْتَكَبَ الْمَنِيَا

(٢) الخطاب للشمس.

(١) تقضى: أى تنفى.

خرجت من القبور خروج عيسى عليك جلاله في العالمينا

ومن قصيدة أخرى له عن توت عنخ آمون وقد تخيله قد بعث بعد أربعين قرنا ورأى الاحتلال جاثما على صدر البلاد فحزن لما رآه وآثر العودة إلى قبره؛ والقصيدة من أروع ما جادت به قريحة شوقي في الإشادة بأجداد مصر وفي المعاني الوطنية، قال في مطلعها مخاطبا توت عنخ آمون:

قَمَّ سَابِقَ (الساعة) وَاسْبِقَ وَعَدَّهَا الأَرْضُ ضَاقَتْ عَنكَ فَاصْدَعْ غِمْدَهَا
وَأَمْلَأْ رِمَاحًا غَوْرَهَا وَنَجِّدْهَا وَاِفْتَحْ أَصُولَ النِّيلِ وَاسْتَرِدَّهَا
شَلَّالَهَا وَعَذِّبْهَا وَعِدَّهَا^(١) وَاصْرِفْ إِلَيْنَا جَزْرَهَا وَمِدَّهَا

إلى أن قال:

سَافَرَ أَرْبَعِينَ قَرْنًا عَدَّهَا حَتَّى أَقَى الدَّارَ فَالْفَى عِنْدَهَا
أَنْجَلْتَرَا وَجَيْشَهَا وَلَوْرَدَهَا مَسْئُولَةَ الهِنْدِيِّ تَحْمِي (هِنْدَهَا)^(٢)
قَامَتْ عَلَيَّ (السودان) تَبْنِي سَدَّهَا وَرَكَّزَتْ دُونَ (القناة) بَنَدَهَا^(٣)

فَقَالَ وَالْحَسْرَةَ مَا أَشَدَّهَا لَيْتَ جِدَارَ القَبْرِ مَا تَدَّهَدَّهَا^(٤)
وَلَيْتَ عَيْنِي لَمْ تَفَارِقَ رَقْدَهَا قُمْ نَبِيَّ يَا (بنتنور)^(٥) مَا دَهَا

مِصْرُ الْفِتَاةِ بَلَغَتْ أَشَدَّهَا وَأَثَبَتْ الدَّمِ الزَّكِيِّ رُشْدَهَا
وَلَعِبَتْ عَلَى الْحِبَالِ وَجَدَّهَا وَجَرَّبَتْ إِرْخَاءَهَا وَشَدَّهَا

يَارِبِّ قَوِّ يَدَهَا وَشَدَّهَا وَافْتَحْ لَهَا السُّبُلَ وَلَا تَسَدَّهَا
وَقِسْ لِكُلِّ خُطْوَةٍ مَا بَعْدَهَا وَعَنْ صَغِيرَاتِ الْأُمُورِ حُدَّهَا

(٤) تدهده: انقط.

(٥) بنتنور: شاعر مصري قديم.

(١) العد: الماء الجاري

(٢) الهندي: السيف، وهندا: أي الهند.

(٣) البند: العلم.

واصرف إلى جد الشؤن جدّها
واكبيح هوى الأنفس واكسر حقدّها
ولا تضع على الضحايا جهدها
واجمع على الأمّ الرؤوم ولدّها

وادی الملوك

وقال سنة ١٩٢٥ في هذا المعنى يذكر توت عنخ آمون وحضارة عصره بعد أن اكتشفت كنوزه في (وادی الملوك):

درجتُ على (الكنز) القرونُ	وأنت على الدنّ ^(١) السنون
يا ابن الثواقب من (رع)	وابن الزواهر من (أمون) ^(٢)
نسبٌ عريق في الضحى	بذُ القبائل والبطون
أرأيت كيف يثوب من	غمّر القضاء المغرقون
وتدول آثار القرو	ن على رعى الزمن الطحون
حبُّ الخلود بنى لكم	خُلُقًا به تتفردون
لم يأخذ المتقدمو	ن به ولا المتأخرون
حتى تسابقتم إلى الإحس	ان فيما تعملون
لم تتركوه في الجليد	ل ولا الحقير من الشؤن
هذا القيامُ فقل لنا الـ	يومُ الأخير متى يكون؟
البعث غايّة زائلٍ	فانٍ وأنتم خالدون
السبقتُ من عاداتكم	أترى القيامة تسبقون؟
أنتم أساطين الحضـ	رة والبناة المحسنون
المتقنون وإنما	يُجزى الخلود المتقون

يتغنى بالنيل

نظم هذه القصيدة الرائعة يتغنى فيها بالنيل، فصور الحياة للوادي وأهله، وأبدع في وصف روعته وجماله وجلاله، ثم انتقل إلى قدماء المصريين ومفاخرهم، وهى القصيدة التي تغنيها أم كلثوم فتزيدها بهاء وجمالا:

(١) الدن: باطية الخمر.
(٢) رع وأمون من آلهة مصر القديمة.

وبأى كَفٍّ في المدائن تُغديقُ
 عليا الجنان جداولاً تترقرق
 أم أيّ طوفان تفيض وتفهق
 للضفتين جديدها لا يخلق
 فإذا حضرت اخضوضر الاستبرق^(١)
 وجياضك الشرق الشهية دُفق^(٢)
 بالواردين ولاخوانك ينفق^(٣)
 والأرض تغرقها فيحيا المغرق
 متخبطاً في علمها ومحقق

من أيّ عهد في القرى تتدفقُ
 ومن السماء نزلت أم فُجرت من
 وبأى عين أم بأية مُزنة
 وبأى نولٍ أنت ناسجٌ بردة
 تسودُ ديباجاً إذا فارقتها
 أتت الدهورُ عليك مهذك مترع
 تسقى وتطعم لا إناؤك ضائق
 والماء تسكبه فیسبك عسجداً
 تُعبي متابعك العقول ويستوى

إلى أن قال:

لم لا يؤلّه من يئوت وبرزق
 لسواك مرتبة الألوهة تخلق
 العبادة خشيةً وتعلق
 عذب المشارع مده لا يلحق
 يجرى على سنن الوفاء ويصدق
 من راحتك عميمة تتدفق

دين الأوايل فيك دين مروية
 لو أن مخلوقاً يؤلّه لم تكن
 جعلو الهوى لك والوقار عبادة إن
 دانوا ببحرٍ بالكارم زاخر
 متقيد بعهوده ووعوده
 يتقبل الوادى الحياة كريمة

إلى أن قال يصف مهرجان وفاء النيل عند قدماء المصريين وكيف كانت «عروس النيل»
 تقدم قرباناً له كل عام:

يُبنى كما يُبنى الجمال ويُعشق
 ومن العقائد مايلب ويحتمق^(٤)
 في كل دين بالهداية تلصق
 دين ويدفعها هوى وتشوق

والمجدد عند الغانيات رغبة
 إن زوجوك بهن فهي عقيدة
 ما أجل الإيمان لولا ضلة
 زقت إلى ملك الملوك يحشها

(١) الديباج والاستبرق: ثوب الحرير.

(٢) الشرق: الغرقى.

(٣) ينفق يبنى أو يقل.

(٤) يلب، أى يصير لبيباً.

ولربما حسدت عليك مكانها
 مجلوة في الفلك يحدو فلکها
 في مهرجان هزت الدنيا به
 فرعون تحت لوائيه وبنائه
 حتى إذا بلغت مواكبها المدى
 وكسا سماء المهرجان جلاله
 وتلفتت في اليم كل سفينة
 ألفت إليك بنفسها ونفيسها
 خلعت عليك حياة لها وحياتها
 وإذا تناهى الحب وافق الفدى

تَرْبُ تَمَسَّحُ بِالْعُرُوسِ وَتُحَدِّقُ^(١)
 بِالشَّاطِئِينَ مُزْعِرْدٌ وَمُصْفَقٌ
 أَعْطَافَهَا وَاحْتَالَ فِيهِ الْمَشْرِقُ
 يَجْرِي بَيْنَ عَلَى السَّفِينِ الزُّورِقُ
 وَجَرَى لَغَايَتِهِ الْقَضَاءُ الْأَسْبِقُ
 سَيْفُ النِّيَّةِ وَهُوَ صَلَّتْ يَبْرِقُ
 وَأَنْثَالَ بِالْوَادِي الْجَمُوعُ وَحَدَّقُوا
 وَأَتَكَ شَيْقَةَ حَوَاهِنَا شَيْقُ
 أَعْزُّ مِنْ هَذِينَ شَيْءٌ يُنْفَقُ؟
 فَالروح في باب الضحية اليق

- إلى أن قال يذكر النيل وأنه مصدر الحياة والحضارة لمصر والوادي:

أصل الحضارة في صعيدك ثابت
 ولدت فكنت المهدي ثم ترعرعت
 ملأت ديارك حكمة مانورها
 وبنيت بيوت العلم باذخة الدرر
 واستحدثت ديناً فكان فضائلاً
 مهدي السبيل لكل دين بعده
 يدعو إلى بر ويرفع صالحاً

وَنَبَاتُهَا حَسَنٌ عَلَيْكَ مُخَلِّقُ^(٢)
 فَأَظْلَمَهَا مِنْكَ الْخَفِيُّ الْمُسْتَفِيقُ
 فِي الصُّخْرِ وَالْبَرْدِي الْكَرِيمِ مَبِيقُ^(٣)
 يَسْعَى لَهْنَ مَغْرَبٌ وَمَشْرِقُ
 وَبِنَاءِ أَخْلَاقٍ يَطُولُ وَيَشْهَقُ^(٤)
 كَالْمَسْكَ رِيَاءَهُ بِأُخْرَى تُفْتَقُ
 وَيَعَافُ مَا هُوَ لِلْمَرْوَةِ مُخَلِّقُ

وقال في ختامها:

يانيل أنت بطيب مانعت الهدى
 وإليك يهدى الحمد خلق حازهم

وَيَمْدَحُهُ (التوراة) أَحْرَى وَأَخْلَقُ
 كَنَفٌ عَلَى مَرِّ الدَّهْورِ مَرْهَقُ^(٥)

(١) الترب من ولد مع الإنسان، الجمع أتراب وأكثر ما تستعمل في المؤنث، يقال هذه ترب فلانة.

(٢) مخلق: منطوب.

(٣) مبيق: مصطف.

(٤) يشهق من شهق الجبل ارتفع.

(٥) المرهق: كثير غشيان الناس والأضياف.

وعليك تُجلى من مصونات النهى
الدرّ في لَبَاتهن مننظّم
لى فيك مدحّ ليس فيه تكلف
خودّ عرائس خدرهن المهرق^(١)
والطيب في حَبراتهن مرقرق
أملأه حبّ ليس فيه تملق

وفى الحق أنه لم يوصف النيل فى عظمته وجلاله وماضيه وحاضره وخلوده بأبداع مما وصفه
شوقى فى هذه القصيدة.

نشيد النيل

ووضع نشيدًا جميلًا للنيل يتغنى به الشباب والمواطنون قال:

النيلُ العذبُ هو الكؤثرُ
ريّانُ الصفحة والمنظرُ
والجنة شاطئه الأخضر
ما أبهى الخلد وما أنضر

* * *

البحر الفيّاض القدّسُ
وهو المنوال لما لبسوا
الساقى الناس وما غرسوا
والمُنعمُ بالقطن الأنورُ

* * *

جعلَ الإنسانَ له شرعًا
فترى زرعًا يتلو زرعًا
لم يُخلِ الوادى من مرعى
وهنا يجنى وهنا يُبذر

* * *

جارٍ ويرى ليس بجار
ينصبُّ كتلٍ منهار
لأنّاه فيه ووقار
ويضجُّ فتحسبه يزأر

* * *

حبّشى اللون كجيرته
صبغ الشّطين بسمرته
من منبعه وبحيرته
لونا كالمسك وكالعبر

النشيد الوطني

وفي سنة ١٩٢٠ وضع نشيدًا وطنيًا أقرته اللجنة التي ألفت في هذا العام لترقية الأغاني الوطنية قال:

بني مصر مكانكمو تهياً فهياً مهّدوا للملك هياً
خذوا شمس النهار له حلياً ألم تك تاج أولكم ملياً

على الأخلاق خُطوا الملك وابتوا فليس وراءها للعز ركن
أليس لكم بوادي النيل عدن وكوثرها الذي يجري شهياً

لنا وطن بأنفسنا نقيه وبالدينا العريضة نفتديه
إذا ما سيلت الأرواح فيه بذلتها كأن لم نعطي شيئاً

لنا الهرم الذي صحب الزمانا ومن جدثانه أخذ الأمانا
ونحن بنو السنأ العالی نمانا أوائل علموا الأمم الرقيأ

تطاول عهدهم عزاً وفخرا فلما آل للتاريخ ذُخرا
نشأنا نشأة في المجد أخرى جعلنا الحق مظهرها العليا

جعلنا مصر ملة ذى الجلال وألّفتنا الصليب مع الهلال
وأقبلنا كصف من عوال يشد السمهرى السمهريا

تقوم على البناية محسنينا ونعهد بالتمام إلى بنينا
 نموت فداك مصر كما حيننا ويبقى وجهك المَفْدِيُّ حَيًّا

نشيد الكشافة

نحن الكشافة في الوادي جبريلُ الروحُ لنا حادي
 ياربُّ بَعِيسَى والهادي وموسى خذ بيد الوَطَنِ

* * *

كشافةُ مصر وصبيتها وَمَنَاةُ الدار ومنيتها
 وَجَمَالُ الأَرْضِ وجليتها وطلّائعُ أفرّاح المَدُنِ

* * *

نبتدر الخير ونَسْتَبِقُ ما يَرْضَى الخالقُ والخالقُ
 بالنفس وخالقها نثق ونزيد وثوقا في المحن

* * *

في السهل نرفّ رياحيننا ونجوب الصخر شياطينا
 نبني الأبدان وتبنينا والهمة في الجسم المرن

* * *

ونخلى الخلق وما اعتقدوا ولوجه الخالق نجتهد
 نأسو الجرحى أتى وجدوا ونداوى من جَرَحَ الزمن

* * *

في الصدق نشأنا والكرم والعفة عن مَسِّ الحُرْمِ
 ورعاية طفل أو هَرِمٍ والذود عن الغيد الحصن

* * *

ونوافي الصارخ في اللجج والنار الساطعة الوهج

لانسأله ثمن المهج وكفى بالواجب من ثمن

* * *

ربّ فكثّرنا عدداً وابذل لأبوتنا المددا
هبيء لهم ولنا رشداً ياربّ وخذ بيد الوطن

نشيد الشباب

اليوم نسود بأيدينا ونعيد محاسن ماضينا
ونشيد العزّ بأيدينا وطنٌ نفديه ويفدينا

* * *

وطنٌ بالحق نؤيده وبعين الله نشيده
ونحسّنه ونزيّنه بمآثرنا ومساعينا

* * *

سرّ التاريخ وعنصره وسرير الدهر ومنبره
وجنان الخلد وكوثره وكفى الآباء رياحيننا

* * *

نتخذ الشمس له تاجاً وضحاها عرشاً وهاجاً
وسماء السؤدد أبراجاً وكذلك كان أولينا

* * *

العصر يراكم والأمم والكرنك يلحظ والهزم
ابني الأوطان ألا همم كبناء الأول يبنيها

* * *

سعيًا أبداً سعيًا أبداً لأتيل المجد وللعليا
ولنجعل مصر هي الدنيا ولنجعل مصر هي الدنيا

وظل شوقى يتغنى بالوطنية ويغرد للمواطنين والناطقين بالضاد جميعاً ألحان الحرية ويسمعهم
أسمى معاني الإنسانية حتى أدركته الوفاة سنة ١٩٣٢، وظل شعره بعد وفاته وسيظل على الدوام
رمزاً للحكمة والحرية والخلود.

حافظ إبراهيم شاعر النيل

١٨٧٢ - ١٩٣٢



هو صِنُو شوقى فى إحياء دولة الشعر، ولثَن تميز شوقى بالزعامة كما أسلفنا فى الحديث عن شوقى، فإن حافظا يمتاز عنه بأن نشأته وحياته كانت شعبية، فى حين كانت نشأة شوقى وحياته أرسنقراطية، فكان حافظ أقرب إلى رُوح الشعب ومشاعره، وأقدر على تصوير آلامه التى شاركة فيها، واكتوى بلهيبها، فكان لذلك أبلغ فى التعبير عنها، وكانت عباراته أسهل وأقرب إلى إدراك معانيها من عبارات شوقى، لأنه كان يحس إحساساً قويا أنه يخاطب الشعب فى مجموع مثقفيه وقارثيه.

ولد حافظ إبراهيم سنة ١٨٧٢ من أب مصرى وأم من أسرة تركية، كان أبوه إبراهيم أفندى فهمى مهندساً يشرف على قناطر ديروط حيث ولد حافظ، وتوفى وحافظ فى الرابعة من عمره، فكفله خاله محمد أفندى نيازى وعاش فى كنفه عيشة الطبقات المتوسطة التى كانت أقرب إلى الضيق منه إلى اليسار، فأحس حافظ منذ صباه بما تعانيه الطبقات الشعبية من جهد ورقة حال، ولما ظهرت مواهبه الشعرية كان الترجمان الصادق الأمين لهذه الطبقات.

تلقى التعليم الابتدائى وجزءاً من التعليم الثانوى، ولكنه لم يتمه، وانتقل مع خاله إلى طنطا وكان مهندس تنظيم بها وانقطع حافظ وقتاً ما عن متابعة التعليم، واتجهت نفسه إلى الأدب والشعر.

واشتغل وقتاً وجزياً بالمحاماة بطنطا، ولكنه لم يستمر فيها إذ لم يجد من نفسه ميلاً إليها لما كانت تقتضيه من دأب على العمل المتواصل وهو لم يكن يميل إلى التقيد بمثل هذا الدأب، بل كان كالطير ينطلق مغرداً بين مختلف الأشجار والأغصان.

ولقد فكر فى أن يكون ضابطاً بالجيش إذ كانت الحياة العسكرية مما يستثير فى نفسه روح

الشعر والخيال، أو لعله أراد أن يقلد البارودي في نشأته العسكرية، فالتحق بالمدرسة الحربية بالقاهرة، وتخرج منها سنة ١٨٩١ ضابطاً برتبة ملازم ثان، وكان إذ ذاك في سن العشرين تقريباً، وانتظم في حملة السودان بقيادة اللورد كتشنر سردار الجيش المصرى وقتئذ، ولما انتهت الحملة بانفراد الإنجليز بحكم السودان عافت نفسه البقاء في ربوعه، فالتمس إحالته إلى المعاش وأجيب طلبه وعاد إلى مصر، وغشى مجالس الشعراء والأدباء والعلماء، وأفاض فيها من شعره وأدبه، فتألفت شاعريته، وعرف له معاصروه فضله ومكانته في عالم الأدب والشعر، وإذ كان الشعر لا يدرُّ عليه ما يحفظ مكانته من الوجهة المادية فقد عينه أحمد حشمت وزير المعارف في سنة ١٩١١ رئيساً للقسم الأدبي في دار الكتب المصرية، وظل بها إلى فبراير سنة ١٩٣٢ إذ أحيل إلى المعاش لبلوغه السن القانونية، وتوفي يوم ٢١ يولييه سنة ١٩٣٢.

كان حافظ شاعراً بطبعه، ظهرت مواهبه الشعرية وهو في السادسة عشرة من عمره، لم يتلقها عن معلم أو أديب، ولا تعلمها في المدارس التي انتظم بها، بل كانت وحى الإلهام والسليقة، فكان يقول الشعر وهو في هذه السن المبكرة، ويأخذ نفسه بالمطالعات الشعرية ويحفظ قصائد فحول الشعراء المتقدمين، واشتدت به الرغبة إلى محاكاتهم في جيد الشعر، فواتته سليقته الشعرية وساعدته على تحقيق رغبته، وبذم الزمان أولئك الشعراء، وبلغ الذروة في عالم الشعر والأدب.

وحافظ يمتاز في شعره بقوة البلاغة وإشراق الديباجة وطلاوة الأسلوب والروح الخطابية، ولقد أنصفه شوقي إذ قال في رثائه:

يا حافظ الفصحى وحارس مجدها	وإمام من نَجَلت من البُلغاء ^(١)
مازلت تهتف بالقديم وفضله	حتى حميت أمانة القُدماء
خَلَفت في الدنيا بيانا خالدا	وتركت أجيالا من الأبناء
وغدا سيذكرك الزمان ولم يزل	للدهر إنصاف وحسنُ جزاء

أضفت الوطنية على شعر حافظ هالة من العظمة والمنجد، فقد كان بلا مراء خير ترجمان للشعب في أحاسيسه وآماله، وخير مواس له في مآسيه وآلامه، وتغنى بمصر والنيل في قصائده الغرِّ، ولعل بقاءه في السودان عدة سنين، ومشاهدته غدر الإنجليز هناك، وتدابيرهم في تحقيق أغراضهم الاستعمارية، قد زاده سخطا على الاستعمار واستمساكا بوحدة وادى النيل، وتجلت هذه المواهب في شعره في شتى المناسبات حتى سمي بحق «شاعر النيل»، وهو إلى جانب ذلك

(١) سجل: أى ولدت.

ناعر الوطنية والاجتماع والأخلاق. كان لا يفتأ يدعو قومه إلى التسليح بالأخلاق في جهادهم للحرية، إذ يرى الأخلاق قوام الجهاد الصحيح، وبلغت دعوته إلى الأخلاق حدّ التقرير في مخاطبته لبني وطنه ومجاهبتهم بالحق الصريح.

وحافظ وإن كانت نقافته شرقية إلا أنه قد تعلّم الفرنسية على كبر، واقتبس من الآداب الفرنسية ما استطاع أن يقتبسه، وساعده ذكاؤه والمعيته على محاكاة الشعر الغربي أحياناً، وكان يميل إلى التجديد في شعره، وفي ذلك يقول:

آن يا شعر أن تفك قيودا قيدتنا بها دعاة المحال
فارفعوا هذه الكمائم عنا ودعونا نشم ريح الشمال

ولقد نجح حافظ في أن يرتفع بشعره في كثير من المواطن إلى التجديد واقتباس المعاني والأفكار والأساليب الحديثة، فزاد شعره طلاوة ورنيناً موسيقياً حبيّاه إلى النفوس وجعل بعض قصائده أشبه بالأغاني والتغاريد.

الوطنية في شعر حافظ

تجلى الروح الوطنية ويتألق نورها في شعر حافظ، ولقد وجدت الحركة الوطنية في قصائده البديعة قوة تستمد منها الحماسة والصمود في الجهاد، والنورة على الاحتلال.

كان شعره معيناً لا ينضب من الكفاح الوطني، وكان حبه للوطن يملك عليه شغاف قلبه، ويلهمه الذود عن حريته واستقلاله، ولقد عبر عن هذه العاطفة الملتهبة بقوله من قصيدة له سنة ١٩٠٠:

مَتَى أَرَى النَّيْلَ لَا تَحُلُو مَوَارِدَهُ لغير مُرْتَهَبٍ لَلَّهِ مُرْتَقِبِ
فقد غَدَتِ مِصرُ في حالٍ إذ دُكِرَتْ جادَتْ جفوني لها باللؤلؤ الرطبِ
كأنني عندَ ذكرى ما ألمَّ بها قرمُّ ترَدَدَ بين الموتِ والهَرَبِ^(١)
إذا نَطَقْتُ ففَاعِ السَّجْنِ مَتَكاً وإن سَكَتُ فإنَّ النَّفْسَ لَمْ تَطِبِ
أُيَسْتَكِي الْفَقْرَ غَادِينَا وَرَائِحُنَا ونحن نَمْشِي على أرضٍ من الذَّهَبِ!؛

وقوله في قصيدة له سنة ١٩٠٩:

لعمرك ما أرقّت لغير مصر ومالي دونها أمل يرام

(١) القرم: أى الرجل الشجاع.

ذكرتُ جلالها أيام كانت
وأيامَ الرجالِ بها رجالٌ
تصول بها الفراعنة العظام
وأيامَ الزمان لها غلام

وقوله من قصيدة له سنة ١٩١٠:

كَمْ ذا يُكَايِدُ عَاشِقٌ وَيُلاقِي
إِنِّي لِأَجْمَلُ فِي هَوَاكِ صَبَابَةٌ
لَهْفِي عَلَيْكَ مَتَى أَرَاكَ طَلِيقَةً
كَيْفُ بِحَمُودِ الحِلالِ مَتَيْمٌ
فِي حُبِّ مِصرَ كَثِيرَةَ العُشَاقِ
يَا مِصرُ قَدْ خَرَجْتُ عَنِ الأَطْواقِ^(١)
يَجْمِي كَرِيمَ حِمَاكِ شَعْبٌ رَاقِي
بِالْبَذْلِ بَيْنَ يَدَيْكَ وَالْإِنْفَاقِ

وقوله من قصيدة له سنة ١٩١٩ نظمها في (ملجأ الحرية):

فَتَعَاهَدْنَا عَلَى دَفْعِ الأَذَى
وَتَوَاصَيْنَا بِبَصْرِ بَيْنَنَا
أَنْشَرْتِ فِي مِصرَ شَعْبًا صَالِحًا
كَمْ مُحِبُّ هَائِمٍ فِي حُبِّهَا
بِرُكُوبِ الحِزْمِ حَتَّى نَظْفَرَا
فَعَدَوْنَا قُوَّةً لَا تُزْدَرَى
كَانَ قَبْلَ اليَوْمِ مُنْفَكِّ العُرا^(٢)
ذَادَ عَن أَجْفَانِهِ سَرَحَ الكَرَى^(٣)
أَنْ يَشِيدُوا مَجْدَهَا فَوْقَ الذُّرَا^(٤)
وَشَابٍ وَكُهولٍ أَقْسَمُوا

حافظ ومصطفى كامل

عاصر حافظ مصطفى كامل. وكان صديقاً له معجباً بجهاده. رغم صداقته وصلته بخصوصه السياسيين. وكان مصطفى شديد الإعجاب بشعره وأدبه. وعندما ظهر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠١ قرظه في «اللواء»^(٥) تقيظاً يدل على عظم تقديره لشاعر النيل وأسهب في الثناء عليه سنة ١٩٠٣ حين عرب كتاب (البؤساء) لفيكتور هيغو.

قصيدة حافظ

في حفلة مدرسة مصطفى كامل

وبدو إعجاب حافظ بمصطفى وجهاده في قصيدته التي ألقاها يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٠٦ في احتفال مدرسة مصطفى كامل تعليقا على خطبة مصطفى. قال في مطلعها:

(٤) الذرا: جمع ذروة وهي المكان المرتفع.

(٥) عدد ٩ أكتوبر سنة ١٩٠١.

(١) الأطواق جمع طوق: أي الجهد والطاقة.

(٢) أنشرت: أحييت.

(٣) الكرى: النوم.

فجَدَّدَ في النفس ما جَدَّدا
وأَمْسى لآلامنا مُرْقِدا
سَمِعنا حَدِيثًا^(١) كَقَطْرِ الندى
وأَضْحى لآمالنا مِنْعِشًا

وقال يستثير في النفوس روح الأمل والحياة وهي الدعوة المحببة إلى الفقيه:

فَدنِيَاكَ يا شَرِقُ لا تَجزَعَنَّ
فَكَمْ مَحَنَةً أَعقَبَتْ مَحَنَةً
فَلا يُبَيِّسَنَّكَ قَيْلُ العِداةِ
أَتَوَدِّعُ فيكَ كَنوزَ العِلمِ
وَتُبَعِّثُ في أَرْضِكَ الأَنْبياءُ
وتَقضِي عَلَيكَ قِضاةَ الضلالِ
أَتَشقِي بَعهدِ سِما بِالعِلمِ
إِذا شاءَ بَزَّ لِسُها سِرَّهُ
وَإِنْ شاءَ أَدنى إِلَيهِ النجومِ
وَإِنْ شاءَ زَعزَعُ شَمِّ الجِبالِ
وَإِنْ شاءَ شَاهَدَ في ذَرَّةٍ
وَما نَ تُسَخِّرُ فيهِ الرِياحِ
وَتَعنوا الطَّبِيعَةَ لِلعارِفِينِ
إِذا ما أَهابوا أَجابَ الحَديدُ
وَطارتْ إِلَيهِمِ مِنَ الكَهْرِباءِ

إِذا اليَومِ وَلى فِراقِبُ غِدا
وَوَلَّتْ سِراعًا كَرَجَعُ الصدى
وَإِنْ كانَ قِبالًا كَحَزِّ المِدى^(٢)
وَيَمشى لَكَ الغَربِ مِستَرَفِدا^(٣)
وَيَأْتِي لَكَ الغَربِ مِستَرشِدا
طِوالَ اللَّيالي بَأَنَّ تُرَقِدا؟
فَأُضحى لِلضَعيفِ بِها أَيْدا^(٤)
وَأَدركَ مِنَ جَريهِ المَقْصِدا^(٥)
فِناجِي المَجَرَّةِ وَالفرَقِدا^(٦)
فَخَرَّتْ لِأَقْدامِهِ سُجْدا
عِوالمِ لِمَ تُحْمَى فيهِها سِدى
وَيَغدو الجِماَدِ بِهِ مَنشِدا^(٧)
بِمَعنى الوِجودِ وَسِرِّ الهُدَى
وَقامَ البِخارُ لَهُ مُسْعِدا^(٨)
بِروقٍ عَلَي السِّلَكِ تَطوِي المِدى

أَيَجْمَلُ مِنَ بَعْدِ هَذا وَذاكَ
بَأَنَّ نَسْتَكِينُ وَأَنَّ نَجْمُدا؟

(١) يقصد خطبة مصطفى كامل في الحفلة.

(٢) المدى بالضم جمعامدية؛ وهي السكين.

(٣) مستر فدا: أى يطلب الرفد وهو العطاء.

(٤) الأيد، بتسديد الياء: القوى، من الأيد بمعنى القوة.

(٥) بزّه سلبه، والسها الكوكب المعروف، أى إذا ساء ذو العلم سلب من السهى سره وأظهره للناس.

(٦) المجرة والفرقد: نجوم في السماء.

(٧) يشبر إلى الطيران والفوتوغراف.

(٨) مسعدا: أى معينا.

وها أمة (الصفّر) قد مهّدت لنا النهج فاستبقوا المورد^(١)

وقال فيها مخاطبا الشباب:

فيا أيها الناشئون اعملوا
ستظهر فيكم ذوات الغيوب^(٢)
فياليت شعري من منكم
على خير مصر وكونوا يدا
رجالاً تكون لمصر الفدا
إذا هي نادت يلبى النداء؟

وقال في ختامها مخاطبا مصطفى كامل:

لَكَ اللهُ يَا (مصطفى) من فتى
إذا ما حمدتكَ بين الرجال
سيحصى عليك سجلُّ الزمان
ويستف باسمك أبناؤنا
كثير الأيادي كثير العدا
فأنت الخليقُ بأن تُحمدا
ثناءً يُخلد ما خُلدا
إذا آن للزرع أن يُحصدا

والقصيدة من أبلغ شعر حافظ. وتأمل في البيت الأخير منها تجد حافظا يقر لمصطفى بأنه الموجد للحركة الوطنية، وأنه الجدير بأن تعرف الأمة له هذا الفضل عندما تجنى ثمار هذه الحركة. وقد ظل على هذا الرأي بعد وفاة الفقيه وبعد ظهور زعامة سعد زغلول للحركة الوطنية سنة ١٩١٩. وجهر به في رثائه للمرحوم محمد فريد في ديسمبر سنة ١٩١٩، إذا قال مناجيا روح فريد:

قل (لصبّ النيل)^(٣) إن لاقيته
إن مصرًا لا تنى عن قصدها
جنتُ عنها أحمل البشرى إلى
فاسترح واهنأ ونم في غبطة
في جوار الدائم الفرد الصمد
رغم ما تلقى وإن طال الأمد
(أول البانين) في هذا البلد
قد بذرت الحب والشعبُ حصدا

فحافظ يعترف هنا أيضًا لمصطفى بأنه أول البانين في صرح الحركة الوطنية، وبأنه بذر الحب وأن الشعب حصد وجنى نمار ما بذر. ورأى حافظ سنة ١٩١٩ هو تأييد وتوكيد لرأيه سنة ١٩٠٦.

(١) أمة الصفّر: أى اليابان.
(٢) ذوات الغيوب: أى الأقدار التي في عالم الغيب.
(٣) يريد مصطفى كامل.

قصيدة حافظ في حادثة دنشواي

لقيت حادثة دنشواي^(١) صداها في شعر حافظ، فنشر في ٢ يولييه سنة ١٩٠٦ - أي بعد صدور الحكم فيها بخمسة أيام - قصيدته المشهورة عن الحادثة. ندد فيها بسياسة الاحتلال، وسبق بها شوقي بعام، إذ أن شوقي لم يقل قصيدته عن الحادثة إلا بعد عام من وقوعها.

قال حافظ في مطلع قصيدته مخاطبا المحتلين:

أيتها القائمون بالأمر فينا!	هل نسيتم ولاءنا والوداد؟!
خَفَضُوا جيشكم وناموا هنيئا	وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا
وإذا أَعْوَزَتْكُمْ ذاتُ طوقٍ ^(٢)	بين تلك الرُّبَا فصيدوا العبادا
إنما نحن والحمام سواءٌ	لم تُغادرُ أطواقنا الأجيادا ^(٣)
لا تظنُّوا بنا العقوق ولكن	أرشدونا إذا ضللنا الرُّشادا
لا تُقيدوا من أمةٍ بقتيلٍ	صادت الشمسُ نفسه حين صاد ^(٤)

وقال يصف الحادثة وفضائع المحاكمة والتنفيذ:

جاء جُهالنا بأمر وجئتم	ضَعَفَ ضعفيه قسوةً واشتدادا
أَحْسِنُوا القتل إن ضننتم بَعفوٍ	أَقْصَا أُرْدم أم كيدا؟
أَحْسِنُوا القتل إن ضننتم بَعفوٍ	أَنْفوسًا أَصَبْتُم أم جمادا؟

* * *

ليت شعري أتلك (محكمة التف	تيش) عادت أم عهد(نيرون) عادا؟
كيف يحلو من القوى التَّشْفِي	من ضعيفٍ ألقى إليه القيادا؟
إنها مُثَلَّة تشفُّ عن الغيب	ظ ولسنا لَغِيْظكم أُنْدادا
أَكْرِمونا بأرضنا حيث كنتم	إنما يُكرم الجوادُ الجوادا
إنَّ عشرين جِجَّةً بعد خمسٍ	علمتنا السُّكون مهما تمادى

(١) راجع تفصيلها في كتابنا (مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية).

(٢) ذات طوق: أي الحمامة.

(٣) الأطواق هنا سلاسل الأسر والاستعباد والأجياد الأعناق، جمع جيد.

(٤) أي لا تأخذوا الأمة بقتيل ثبت أنه مات بضربة الشمس، وهو الكابتن بول.. وأقاد الحاكم القاتل بالقتيل أي قتله به قودا.

أمّة النيل أكّبرت أن تُعادي من رماها وأشفتت أن تُعادي
ليس فيها إلاّ كلامٌ وإلاّ حشرةٌ بعد حشرةٍ تتهداي

وقال مخاطباً المدعى العمومي في القضية:

أيها المدّعي العمومي^(١) مهلاً بعضٌ هذا فقد بلغت المراد
قد ضمّنا لك القضاء بمصرٍ وضمّنا لنجلك الإسعادا
فإذا ما جلست للحكم فاذكر عهد (مصر) فقد شفيت الفؤادا
لا جرى النيل في نواحيك يا (مصر) ولا جادك الحيا حيث جادا^(٢)
أنتِ أنبتت ذلك النبت يا (مصر) فأضحى عليك شوكا قتادا
أنتِ أنبتت ناعقاً قام بالأمر فس فأذمى القلوب والأكبادا

* * *

إيه يا مِدْرَةَ القضاء ويا مَنْ ساد في غفلة الزّمان وشادا
أنتِ جلدنا فلا تنسِ أنّا قد لبسنا على يديك الحدادا

والقصيدة كما ترى من أروع ما قال حافظ، وفيها تصوير لتلك الحادثة الفظيعة التي أظهرت مبلغ الظلم البريطاني ومبلغ هوان المصري في نظر الاحتلال، ولقد حمل حافظ بأسلوبه اللاذع القوي على هذا الظلم حملات اهتزت لها أركانه، كما حمل على الضعف الذي كان من أسباب استفحال هذا الظلم. فكانت هذه الحملة دعوة صادقة إلى اطراح الضعف والأخذ بأسباب النهوض والقوة في محاربة الاحتلال.

قصيدته في استقبال اللورد كرومر

بعد حادثة دنشواي

وعاد يصف فظائع الاحتلال في حادثة دنشواي في قصيدة له قالها في أكتوبر سنة ١٩٠٦ لمناسبة عودة اللورد كرومر المعتمد البريطاني في أجازته وكان صاحب الحول والطول وقتئذ في البلاد.

(قصر الدّبارة)^(٣) هل أتاك حدبنا فالشرق رُيع له ووضج المغرب

(٣) يريد دار المعتمد البريطاني.

(١) إبراهيم الهلباوي.

(٢) الحيا . المطر.

بعد التحية إننى أتعَب
باتت لها أحشاؤنا تتهلَّب

أهلاً بساكنك الكريم ومرحباً
نقلت لنا الأسلاكُ عنك رسالةً

إلى أن قال :

يوم الحمام فإن صدرك أرحب^(١)
أمست إلى معنى التعصب تُتسب^(٢)
ضاق الرجاء بها وضاق المذهب
ليست بغير ولائها تتعذب
للقوت لا للمسلمين تعصبوا
وسخا بهجته على من يغضب
لعب القضاء بنا وعزَّ المهرب
فتسابقوا في صيدهن وصوبوا
لو كنت حاضرَ أمرهم لم يُنكبوا
وسياطهم وحبألم تتأهب
بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا
بلظى سياط الجالدين ورحبوا^(٤)
بين الشفاه وطعمه لا يعذب
يرنو وهذا آجلٌ يترقب
ومعاجزٌ ومناجزٌ ومحزَّب
والدمع حول ركابه يتصب
هو خير ما يرجو العميد ويطلب
يُجنى بغيرسها الثناء الطيب

إن ضاق صدر النيل عمًا هاله
أو كلها باح الحزين بأنة
رفقا عميد الدولتين بأمة
رفقا عميد الدولتين بأمة
إن أرهقوا صيادكم فلعلهم
ولربما صنَّ الفقيرُ بقوته
في (دنشواي) وأنت عنا غائب
حسبوا النفوس من الحمام بديلةً
نكبوا وأقمرت المنازل بعدهم
خلَّيتهم والقاسطون^(٣) بمرصِد
جُلدوا ولو منيتهم لتعلقوا
شُنقوا ولو منحوا الخيار لأهلوا
يتحاسدون على المات وكأسه
موتان: هذا عاجلٌ متممٌ
والمستشار^(٥) مكائراً برجاله
يختال في أنحائها متبسماً
طاحوا بأربعة فأردوا خامسا
حبٌ يحاولُ غرسه في أنفـس

(١) يوم الحمام أى يوم صيد الحمام في حادثة دنشواي.

(٢) يشير إلى ما زعم اللورد كرومر من أن التعصب الدينى هو سبب حادثة دنشواي.

(٣) القاسطون الظالمون.

(٤) أهلوا ورحبوا أى قالوا أهلاً ومرحباً.

(٥) يريد الكبتن متمثل مستشار وزارة الداخلية. وكان يشرف على تنفيذ الحكم ومعاجز من عاجزت الرجل إذا أتيت بما يجعله

عاجزاً. وحزب أى جمع أعوانه وأحزابه فبعضهم يتولى الشنق وبعضهم يتولى الجلد.

كن كيف شئت ولا تكلُّ أرواحنا للمستشار فإن عدلك أخصب
وأفِضْ على (بُندٍ)^(١) إذا ولى القضا رفقا يهش له القضاء ويطرَب

قصيدته في شكوى مصر من الاحتلال

قالها في يناير سنة ١٩٠٧:

لقد كان فينا الظلمُ فوضيْ فُهذِّبَتْ
تَمَنُّ^(٢) علينا اليوم أن أخضب الثرى
أعدُّ عهد (إسماعيل) جُلْدًا وسخرة
عمِلتم على عِزِّ الجمادِ وذُلِّنا
إذا أخصبتُ أرضٌ وأجذب أهلها
نَهشُ إلى الدينار حتى إذا مشى
فلا تحسبوا في وفرة المال - لم تُفدْ
فإن كثير المال - والحفضُ وارفُ
حواشيه حتى بات ظلماً منظها
وأن أصبح المصريُّ حُرًّا منعها
فإني رأيتُ المَنَّ أنكى وآلها
فأغليتم طينًا وأرخصتم دما
فلا أطلعتُ نبتًا ولا جادها السَّما
به ربه للسوق ألفاهُ درهما
متاعاً ولم تعصم من الفقر - مَغنا
قليلٌ إذا حلَّ الغلاءُ وخيِّباً^(٣)

قصيدته في استقالة اللورد كرومر

ففي الشعر هذا موطن الصدق والهدى
لقد حان توديعُ العميد وإنه
فودِّعْ لنا الطودَ الذي كان شامخا
إلى أن قال:

يناديك قد أزريت بالعلم والحجا
وأنتك أخصبتَ البلادَ تعمدا
قضيتَ على أم اللغات وإنه
ولم تُبقِ للتعليم يا (لورد) معهدا
وأجذبت في مصر العقولَ تعمدا
قضاء علينا أو سبيلٌ إلى الردى^(٤)

(١) المسر بوند وكيل محكمة الاستئناف وأحد فضاة المحكمة المخصوصة التي حاكمت المتهمين في حادنه دنسواى وكان القاضى الموجه للأسئلة وتمت أسئلته على سوء نيته وميله إلى الانتقام والتشفى.

(٢) يحاطب المعتمد البريطاني.

(٣) الحفض سعة العيش. يريد أن كثرة المال مع غلاء الأسعار لانغنى شيئا

(٤) أم اللغات أى اللغة العربية. يشير إلى محاربة الاحتلال للغة العربية وجعل دراسة العلوم في أكثر المدارس باللغة الإنجليزية.

وواقفت والقطران في ظل رايته
 فطاح كما طاحت (مصوع) بعده
 حجت ضياء الصحف عن ظلماته
 وأودعت تقرير الوداع مغامراً
 غمرت بها دين النبي وإننا
 فمازلت (بالسودان) حتى تمردا
 وضاعت مساعينا بأطماعكم سدى
 ولم تستقل حتى حجت (المؤيدا)^(٣)
 رأينا جفاء الطبع فيها مجسداً
 لنغضب إن أغضبت في القبر (أحمدا)

* * *

يناديك أين النابغون بعهدكم
 فما عهد إسماعيل والعيش ضيق
 يناديك وليت الوزارة هيئة
 فليس بها عند التشاور من فتي
 بربك ماذا صدنا ولوى بنا
 أشرت برأى في كتابك لم يكن
 وحاولت إعطاء الغريب مكانة
 فياويل مصر يوم تشقى بندوة
 وأى بناء شامخ قد تجسدا؟
 بأجذب من عهد لكم سال عسجدا
 من الصم لم تسمع لأصواتنا صدى
 أي إذا ما أصدر الأمر أوردنا
 عن القصد إن كان السبيل ممهدا؟
 سديداً ولكن كان سهماً مسدداً
 تجر علينا الويل والذل سرمدنا
 يبيت بها ذاك الغريب مسوداً^(٢)

* * *

ألم يكفنا أنا سلبنا ضياعنا
 وزاحمنا في العيش كل ممارس
 وما الشركات السود في كل بلدة
 على حين لم تبلغ من الفطنة المدى
 خبير وكنا جاهلين ورُقدا
 سوى شرك يُلقى به من تصيدا

قصيدته في استقبال السير جورست

استقال اللورد كرومر أو أقيل من منصبه في أبريل سنة ١٩٠٧ على أثر حادثة دنشواي،
 وخلفه في منصبه السير إلدون جورست، فاستقبله حافظ بقصيدة عبر فيها عن شكوى مصر
 من الاحتلال وأثامه، قال فيها في أسلوب التهكم والسخرية:

(١) حجت المؤيد أي منعته من دخول السودان.

(٢) يشير إلى مشروع اللورد كرومر في إنشاء مجلس تشريعي مختلط.

أذيقونا الرِّجاء فقد ظمئنا
 ومُنُوا بالوجود فقد جهلنا
 إذا أعلوَّى الصياح فلا تلمنا
 على قَدْر الأذى والظلم يعلو
 جراحُ في النفوس نغرنَّ نغراً
 إذا ماهاجهنَّ أسى جديدٌ

- بعهدِ المصلحين - إلى الورودِ
 - بفضل وجودكم - معنى الوجود
 فإنَّ الناسَ في جُهْدٍ جهيدٍ^(١)
 صياح المشفقين من المزيد!
 وكُنَّ قد اندملن على صديد^(٢)
 هتكنَّ سرائر القلب الجليدِ

إلى أن قال:

فما جئنا نطاولكم بجاءٍ
 ولكننا نطالبكم بحقٍ
 يطولكم ولا رُكن شديد
 أضرب بأهله نقض العهود

وعاد إلى ذكر حادثة دنشواى وكيف كانت مبعث اليقظة والحياة للحركة الوطنية:

رمانا صاحب التقرير ظلماً
 وأقسم لا يجيب لنا نداءً
 وبشراً أهل مصر باحتلالٍ
 وأنبت في النفوس لكم جفاءً
 فأتمرَّ وحشة بلغت مداها
 قتيل الشمس أورتنا حياةً
 فليت (كرومراً) فد دام فينا
 ويُتَحَف (مصر) أنا بعد أن
 لينزع هذه الأكفان عنا

بكفران العوارف والكنود^(٣)
 ولو جئنا قرآن مجيد
 يدوم عليهم أبد الأبد
 تعهده بمنهل الصدود
 وزكاهها بأربعة شهود^(٤)
 وأيقظ هاجع القوم الرُّقود^(٥)
 يُطَوِّق بالسلاسل كلَّ جيد
 يمجُلود ومقتول شهيد
 ونُبعت في العوالم من جديد

رثاؤه لمصطفى كامل

في يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ حين شيعت مصر جنازة مصطفى كامل وقف حافظ على قبره
 وأنشد قصيدته الرائعة في رثائه قال:

(١) اعلولى أى علا.

(٢) نغر الجرح سال دمه، واندمل التأم

(٣) صاحب التقرير هو اللورد كرومر.

(٤) يريد بالشهود الأربعة أعدموا في قضية دنشواى وهم أربعة.

(٥) قتيل الشمس هو الكابتن بول الضابط الإنجليزي الذى مات في حادثة دنشواى بضربة الشمس، يريد أن ما أصاب الناس

من التنكيل بسبب هذا القتل جعلهم يثرون للمطالبة بالحرية.

فكبرٌ وهلل والى ضيفك جائيًا
شهيّد العُلا في زهرة العمر ذاويًا
لكان التأسى من جوى الحزن شافيًا^(١)
وهيهات ان يأتى به الدهر ثانيا
وأين الحِجَا والرأى؟ ومحك هاهيا!
فقد أسكت الصوت الذى كان عاليا
إلى المجد فاستحيا النفوس البواليًا

أيا قبرٌ هذا الضيف آمالٌ أمة
عزيزٌ علينا أن نرى فيك مصطفى
أيا قبر لو أنا فقدناه وحده
ولكن فقدنا كل شىء بفقده
فيا سائلى أين المروءة والوفا
هنيئًا لهم^(٢) فليأمنوا كل صائح
ومات الذى أحييا الشعور وساقه

وإنى أجيّد اليوم فيك المراتييا
وفيك وإلا مالذا الشعب باكييا
لما فيه من داء النفوس مداويا
فأسهدتنا حُزنا وأمسيت غافيا

مدحتك لما كنت حيًا فلم أجد
عليك^(٣) وإلا مالذا الحزن شاملاً
يموت المداوى للنفوس ولا يترى
وكنا نيامًا حينما كنت ساهدًا^(٤)

يرنٌ كما قد كان بالأمس داويا
فلا تهدموا بالله ما كنت بانيا
قَصِيْتُ وأن الحى قد بات خاليا
وكونوا رجالاً لا تسرُّوا الأعاديا
تُشارفكم^(٥) عنى وإن كنت باليا
أخاف عليكم فى الخلاف الدواهيا

شهيد العلا لا زال صوتك بيننا
يهيبُّ بنا: هذا بناء أقمته
يصيح بنا: لاتشعروا الناس أنى
يناشدنا بالله ألا تفرقوا
فروحي من هذا المقام مطلة
فلا تحزنوها بالخلاف فإنى

على العهد مادمتنا فتم أنت هانيا
وصوتك مسموعٌ وإن كنت نائيا

أجل أيها الداعى إلى الخير إننا
بناؤك محفوظ وطيفك مائلٌ

(٤) ساهدا: ساهرا.

(٥) تشارفكم أى تنظر إليكم من علو.

(١) التأسى بمعنى الصبر.

(٢) يريد الإنجليز.

(٣) عليك: أى عليك الحزن.

عَهْدُناكَ لا تَبْكِي وَتَتَكْرَرُ أَنْ يُرَى
فَرَحٌ لَنَا لِيَوْمِ الْبِكاةِ وَفِي غَدِ
فِيانِيلِ إِنْ لَمْ تَجْرِبِ بَعْدَ وَفَاتِهِ
وَيَا (مِصرَ) إِنْ لَمْ تَحْفَظِي ذِكْرَ عَهْدِهِ
وَيَا أَهْلَ (مِصرَ) إِنْ جَهِلْتُمْ مِصَابِكُمْ

أخو البأس في بعض المواطن باكيا
ترانا كما تهوى جبالا رواسيا
دماً أحمرًا لا كنت يانيل جاريا
إلى الحشر لازال انحلالك باقيا
ثقوا أن نجم السعد قد غارَ هاويا

* * *

ثلاثون عاماً^(١) بل ثلاثون درّة
ستشهد في التاريخ أنك لم تكن

بجيد الليالي ساطعات زواهيا
فتي مفردًا بل كنت جيشًا مغازيا

قصيدته في حفلة الأربعين

وله في رثاء مصطفى قصيدة أخرى ألقاها في حفلة الأربعين قال:

نَثَرُوا عَلَيْكَ نِوَادِي الْأَزْهَارِ^(٢)
زَيْنَ الشَّبَابِ وَزَيْنَ طَلَبِ الْعُلَا
غَادَرْتَنَا وَالْحَادِثَاتُ بِمِرْصَدِ
مَا كَانَ أَحْوجْنَا إِلَيْكَ إِذَا عَدَا
أَيْنَ الْخَطِيبِ وَأَيْنَ خَلَابِ النُّهْيِ؟
بِاللَّهِ مَالِكَ لَا تَجِيبُ مِنا دِيا
قَمٌ وَامْحُ مَاخَطَّتْ يَمِينُ (كِرُومِرِ)
قَدْ كُنْتَ تَغْضِبُ لِلْكَنَانَةِ كُلِّما
غَضِبَ التَّقِيُّ لِرَبِّهِ وَكُتابِهِ
قَدْ ضَاقَ جِسمُكَ عَنِ مِداكَ فَلَمْ يُطِيقِ
أُودِي بِهِ ذَاكَ الْجِهادُ وَهَدَّهُ
لِعبَتِ يَمِينِكَ بِالِيرَاعِ فَأَعْجَزَتْ
وَجَرِيَّتَ لِلْعِلياءِ تَبغى شأوها

وأُتيت أنثر بينهم أشعاري
هل أنت بالمهج الحزينة داري؟
والعيش عيش مذلة وإسارِ
عادٍ وصاح الصائحون: بدارِ
طال انتظار السمع والأبصارِ
ماذا أصابك يا أبا المغوارِ؟
جَهلاً بدين الواحد القهارِ
هَمَّتْ وَهَمَّ رِجالُها بِعِثارِ
أَوْ غَضَبَةَ (الفاروق للمختار)^(٣)
صبراً عليك وأنت شعلة نارِ
عزمٌ يهدُّ جلائل الأخطارِ
لعب الفوارس بالقنا الخطارِ^(٤)
بدرت إليه غوائل الأقدارِ؟

* * *

(١) إشارة إلى عمر الفقيه وهو رقم تقريبي لأنه توفي في الرابعة والثلاثين من عمره.

(٢) نوادي الأزهار: أي الرطبة المبللة بالندى.

(٣) الفاروق: عمر بن الخطاب، والمختار: النبي عليه الصلاة والسلام.

(٤) القنا: الرماح.

وشهدتُ موكبه فقررَ قرارى^(١)
 بالكهرباء وطائرٌ ببخار
 وعلمت منه مراتبَ الأقدار
 حقَّ الولاء وواجب الإكبار
 يشون تحت (لوائك) السيار
 للحزن أسطاراً على أسطار
 ركب الحجيج بكعبة الزوار
 عند المصلّى ينصتون لقارى
 تجرى بلا كلج^(٢) ولا استنتار
 ما بين سيل دافق وشرار
 فيصدنى متدفق التيار
 لقضيتُ بين مراجلٍ وبخار

* * *

هتكتُ عليك حرائرَ الأستار
 فى النعش لا خبراً من الأخبار
 وجهه الخمار فلم تَلذُ بخمار^(٣)
 سترٌ من الأحزان والأكدار

* * *

منك الوداد فكان خيرَ شعار
 فى طيبة يسلم من الأسرار
 يتعانقان على شفير هارى
 لِنَوَى مروعةٍ وبعد مزار
 ما بين حَرٍّ أَسَى وحَرٍّ أوار^(٥)
 رجلا يناضل عنه يوم فخار
 باتتُ تقاس بأطول الأعمار

عزَّ القرارُ على ليلة نعيه
 وتسابقت فيه النعأة فطائرُ
 شاهدتُ يوم الحشر يوم وفاته
 ورأيت كيف تفى الشعوب رجالها
 تسعون ألفاً حول نعشك خُشَعُ
 خطوا بأدمعهم على وجه الترى
 أنا يُوالون الضجيج كأنهم
 وتحالم أنا لفرط خشوعهم
 غلب الخسوع عليهم فدموعهم
 قد كنت تحت دموعهم وزفيرهم
 أسعى فيأخذنى اللهب فأثنى
 لولم أُلذ بالنعش أو بظلاله

كم ذات خدر يوم طاف بك الردى
 سفرتُ تودع أمةً محمولة
 أمئتُ عيون الناظرين فمزقتُ
 قد قام ما بين العيون وبينها

أدرجتُ فى العَلم الذى أَصْفَيْتَه
 عَلَمان^(٤) من فوق الرؤس كلاهما
 ناداهما داعى الفراق فأسبىا
 تالله ما جزع المحب ولا بكى
 جزع (الهلل) عليك يوم تركته
 متلفتاً متحيراً متخييراً
 إن الثلاثين التى بك فاخرت

(١) أى استقرت نفسه بعد أن شهد وفاء الأمة للفقيد فى موكب الجنازة.

(٢) الكلج العبوس أى تجرى الدموع بطبيعتها بلا عبوس.

(٣) الخمار: الحجاب.

(٤) يريد بالهلين الفقيد فهو علم الوطنية والثانى علم الوطن.

(٥) الأسى: الحزن؛ والأوار: الظلمة والتمطش، أى التمتعش إلى الفقيد.

ضمتُ إلى التاريخ بضعَ صحائف
شَبَّهْتُهُنَّ بنقطةِ عِطْرِيَّةِ
خَلَّفَتْهَا كالمشْقِ يَحْدُو حَذْوَهَا
ماذا على السارى وَهْنٌ^(٢) مَنائِرُ
بيضاء مثل صحائف الأبرار
وسعت محصل روضةٍ مِعْطَارِ^(١)
راجى الوصول ومقتفى الآثار
لو سار بين مجاهل وقفار

* * *

مازلت تختارُ المواقفَ وَعِرةً
وهدمت سوراً قد أجاد بناءه
ووصلت بين شكاتنا ومشايخ
كشفوا الغطاء عن العيون فأبصروا
نبدوا كلام (اللورد) حين تبيينوا
ورماهم بمجلدين^(٥) رَمَوْهُمَا
حتى وقفت لذلك الجبَّار^(٣)
فرعون^(٤) ذو الأوتاد والأنهار
في (البرلمان) أجلَّةٌ أخيار
مافى الكنانة من أذى وضرار
حنقَ المغيظ ولهجة الثرثار
في رتبة الأصفار لا الأسفار

* * *

وأها على تلك المواقف إنها
لم يَلُوه عنها الوعيدُ ولا ثنى
فاهناً بمنزلك الجديد ونم به
واستقبل الأجرَ الكبير جزاء ما
نعَمَ الجزاء ونعم ما بلغته
كانت مواقف ليت غاب ضارى
من عزمه قولُ المريب: حذار
في غِبْطَةٍ وانعم بخير جوار
ضَحَّيتَ للأوطان من أوطار
في منزليك^(٦) ونعم عقبى الدار

قصيدته في الذكرى الأولى للفقيد

وله قصيدة ثالثة ألقاها عند قبره يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٩ في الاحتفال بإحياء ذكراه الأولى، وهى من أبلغ روائع الشعر العربى، قال:

طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا^(٧) واقضوا هنالك ما تقضى به الذمم

(١) الروضة المعطار: هى الكثيرة الأزهار والرياحين.

(٢) هن إشارة إلى الثلاثين عاما: أى ماذا على السارى فى المجهل والقفار إذا اهتدى بنور هذه الأعلام.

(٣) اللورد كرومر.

(٤) شبه كرومر بفرعون.

(٥) يريد بالمجلدين كتاب مصر الحديثة للورد كرومر.

(٦) أى الدنيا والآخرة.

(٧) استلم القبر: قبله أو لمسه بيده.

ضاقَت بِأَمَالِهِ الْإِقْدَارَ وَالْهَمَمِ
فِي الشَّرْقِ فَجُرُّ تَحِيٍّ ضَوْءَهُ الْأَمَمِ
نَثْرًا تَسِيرًا بِهِ الْإِمْتَالِ وَالْحِكْمِ
لِطَالِبِ الْحَقِّ رُكْنًا لَيْسَ يَنْهَدِمُ
حَامِيَ الذُّمَارِ هُنَا الشُّهُمِ الَّذِي عَلِمُوا

هَنَا جِنَانُ تَعَالَى اللَّهِ بَارئِهِ
هَنَا قَمٌّ وَبِنَانٌ لَاحَ بَيْنَهَا
هَنَا قَمٌّ وَبِنَانٌ طَالَمَا نَتْرَا
هَنَا الْكَيْمِيُّ^(١) الَّذِي شَادَتْ عَزَائِمُهُ
هَنَا الشَّهِيدُ هَنَا رَبُّ اللِّوَاءِ هَنَا

* * *

لَيْهِنَكَ النَّوْمَ لَاهَمٌ وَلَا سَقَمٌ
عَنْكَ الْمَنَابِرُ وَالْقِرطَاسُ وَالْقَلَمُ
إِلَّا أُبِي ذَكِيُّ الْقَلْبِ مَضْطَرَمٌ
آثَارُهُ عَمَمٌ آمَالُهُ أَمَمٌ

يَا أَيُّهَا النَّائِمُ الْهَانِي بِمَضْجَعِهِ
بَاتَتْ تَسَائِلُنَا فِي كُلِّ نَازِلَةٍ
تَرَكْتُمْ فِينَا فِرَاعًا لَيْسَ يَشْغَلُهُ
مَنْفَرَةُ النَّوْمِ^(٢) سَبَاقٌ لِمَا يَتَّبِعُهُ

* * *

رُوحًا يَحْفُ بِهَا الْإِكْبَارُ وَالْعِظَمُ
أَرَى مُحْيَاً يَحْيِينَا وَيَبْتَسِمُ
هَذَا فَتَى النَّيْلِ هَذَا الْمُفْرَدِ الْعَلَمُ
مِنَ الْقُلُوبِ إِذَا لَمْ تُسْعِدْ^(٣) الْكَلِمُ
فَنَحْنُ فِي مَوْقِفٍ يَحْلُو بِهِ الْقِسْمُ

إِنِّي أَرَى وَفَوَادِي لَيْسَ يَكْذِبُنِي
أَرَى جَلَالًا أَرَى نُورًا أَرَى مَلَكًا
اللَّهُ أَكْبَرُ هَذَا الْوَجْهَ أَعْرِفُهُ
غَضُّوا الْعَيُونَ وَحَيَّوهُ تَحِيَّتَهُ
رَأَقِسِمُوا أَنْ تَذُودُوا عَنْ مِبَادِيهِ

* * *

لَمَّا سَكَنْتَ وَلَمَّا غَالَكَ الْعَدَمُ
وَنَسْتَمِدُّ وَنَسْتَعْدِي^(٤) وَنَحْتَكِمُ
عَفُّ الْجَفَاءِ^(٥) وَأَعْلَى صَوْتِنَا الْأَلَمُ
إِنَّ الضَّعِيفَ عَلَى الْحَالِيْنَ مُتَّهَمٌ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الظَّالِمِينَ هُمُ
إِنْ نَطَقْنَا تَنَادَوْا: فَتَنَةٌ عَمَمٌ

لِيَبِيكَ نَحْنُ الْأَوْلَى حَرَكْتَ أَنْفَسَهُمْ
جِنْنَا نُؤدِي حَسَابًا عَنْ مَوَاقِفِنَا
قِيلَ اسْكُتُوا فَسَكْتْنَا ثُمَّ أَنْطَقْنَا
قَدْ اتَّهَمْنَا وَلَمَّا نَطَلَبُ جَلَالًا
قَالُوا لَقَدْ ظَلَمُوا بِالْحَقِّ أَنْفُسَهُمْ
إِذَا سَكْتْنَا تَنَاجَوْا: تِلْكَ عَادَتُهُمْ

* * *

(٤) نستمد: نطلب المدد ونستعدي: نستنصر.

(٥) يريد بالجفأة المحتلين الجناة.

(١) الشجاع.

(٢) منفر النوم أي مسهد.

(٣) أسعده: أعانته.

أَنَا وَأَوْنَةٌ نَنْتَابِنَا النَّقْمِ
وَالْعَيْشُ قَدْ حَارَ فِيهِ الْحَاقِقُ الْفَهْمِ
لَوْ أَنَّ جَدِيدٌ وَعَهْدٌ لَيْسَ يُحْتَرَمُ
إِذَا بِهِ عِنْدَ لَسْرِ الْمِصْطَلَى فَحَمُ
وَتَارَةً يَزْدَهِيهَا الْكِبَرُ وَالصَّمُ
إِلَى مِصَالِبَةٍ اسْتَارَهَا وَهَمُ

قَدْ مَرَّ عَامٌ بِنَا وَالْأَمْرُ يَحْزُبُنَا^(١)
فَالنَّاسُ فِي شِدَّةٍ وَالذَّهْرُ فِي كَلْبٍ^(٢)
وَاللِّسْيَاسَةِ فَيُنَاكِلُ أَوْنَةَ
بَيْنَا نَرَى جَمْرَهَا تَخْشَى مَلَامَسَهُ
تَصْغَى لِأَصْوَاتِنَا طَوْرًا لِتَخْدَعَنَا
فَمَنْ مَلَائِنَةَ اسْتَارَهَا خَدَعُ

* * *

إِنَّ الْكِنَانَةَ لَا يُطْوَى لَهَا عَظْمٌ
لَهَا - عَلَى حَوْلِهَا^(٤) - فِي أَرْضِهَا قَدَمٌ
وَهِيَ الَّتِي بِحِبَالٍ مِنْهُ تَعْتَصِمُ

مَاذَا يَرِيدُونَ^(٣)؟ لَا قَرَّتْ عَيُونُهُمْ
كَمْ أَمَةٌ رَغِبَتْ فِيهَا فَمَا رَسَخَتْ
مَا كَانَ رَبِّكَ رَبُّ الْبَيْتِ تَارِكُهَا

* * *
چٹ

حَتَّى نَسُودَ وَحَتَّى تَشْهَدَ الْأُمَمُ
وَيَسْتَطِيلُ اخْتِيَالًا ذَلِكَ الْهَرَمُ

لِيَبْكُ إِنَّا عَلَى مَا كُنْتَ تَعْبُدُهُ
فَيَعْلَمُ النَّيْلُ أَنَا خَيْرٌ مِنْ وَرَدُوا

إِلَى أَنْ قَالَ:

وَتَابَرُوا: رَضِيَ الْأَعْدَاءُ أَوْ نَقَمُوا
وَكُلُّكُمْ (كَامِلٌ) لَوْجَازِهِ^(٥) السَّامُ
يَسْتَقْبِلُ الْخُطْبَ بَسَّامًا وَيَقْتَحِمُ
فَجَدْنَا لَنَا بِجَوَابِ جَادِكِ الدَّيْمِ^(٧)
أَيْنَ الْخِلَالِ - رِعَاكَ اللَّهُ - وَالشِّيمِ؟
يَا قَبْرَ فَيْكِ وَعَقْفَى رَسْمِهَا الْقَدَمِ؟
مَا لِلْقُبُورِ إِذَا مَا نَوْدَيْتِ تَنِيمِ^(٨)؟

يَا أَيُّهَا النَّشَاءُ سَيَرُوا فِي طَرِيقَتِهِ
فَكُلُّكُمْ (مِصْطَفَى) لَوْسَارِ سَيَرْتِهِ
قَدْ كَانَ لَاوَانِيًا يَوْمًا وَلَا وَكِلًا^(٦)
وَأَنْتِ يَا قَبْرَ قَدْ جِئْنَا عَلَى ظَمِيمٍ
أَيْنَ الشَّبَابِ الَّذِي أُودِعْتَ نَضْرَتَهُ
وَمَا صَنَعْتَ بِأَمَالٍ لَنَا طُوبَيْتِ
أَلَا جَوَابُ يَرَوِي مِنْ جَوَانِحِنَا؟

(٥) جازه: أى جاوزه.
(٦) الوكل: العاجز الذى يكل الأمر إلى غيره.
(٧) الديم جمع ديمة السحاب.
(٨) وجم يجم سكت عن الامم.

(١) حزه الأمر: اشتد عليه.
(٢) الكلب الشدة.
(٣) يريد المحتلين.
(٤) الحول: القوة.

ثم أنت يكفيك ما عانيت من تعب
هذا (لواؤك) خفّاقٌ يظللنا
فنحن في يقظة والشمل ملتئم
وذاك شخصك في الأكباد مُرتسم

تحية العام الهجري

أعد الشباب في سنة ١٩٠٩ (١٣٢٧ هجرية) احتفالاً كبيراً بالعام الهجري الجديد تولى الطلبة تنظيمه برعاية نادى المدارس العليا، وكان احتفالاً رائعاً أقيم بدار التمثيل العربي مساء الجمعة غاية ذى الحجة سنة ١٣٢٦ (٢٢ يناير سنة ١٩٠٩) برآسة أحمد بك لطفى، وألقى فيه حافظ قصيدته المشهورة في تحية العام الجديد. قال في مطلعها:

أطلّ على الأكوان والخلق تنظرُ	هلالُ رآه المسلمون فكَبّروا
تجلى لهم في صورةٍ زاد حسنُها	على الدهر حُسناً أنها تتكرر
وبشّرهم من وجهه وجبينه	وغرته والناظرين مُبشّر
وأذكرهم يوماً ^(١) اغرّ بحجلا	به تُوجّ التاريخ والسعدُ مسفر
وهاجر فيه خيرُ داع إلى الهدى	يُحَفّ به من قوة الله عسكر
يُماشيه جبريلٌ وتسعى وراءه	ملائكةُ ترعى خطاه وتُخفر
يُسراه برهان من الله ساطعُ	هدى ويُبيناه الكتاب المطهر
فكان على أبواب (مكة) ركبهُ	وفي (يثرب) ^(٢) أنواره تتفجّرُ
مضى العام ميمونَ الشهر مباركا	تعدّد آثارُ له وتسطرُ
مضى غيرَ مذموم فإن يذكروا له	هناتٍ فطبع الدهر يصفو ويكدرُ
وإن قيل أودى بالألوف اجابهم	مُجيب لقد أحيا الملايين فانظروا
إذا قيس إحسان امرئٍ باسائةٍ	<u>فأرى عليها فالإسائة تغفرُ</u>
ففيه اقام النائمون وقد اتت	عليهم كأهل الكهف في النوم اعصرُ
وفي عالم الإسلام في كل بقعة	له أثر باقٍ وذكرٌ معطرُ

وبعد أن سرد الحوادث في مختلف البلاد الإسلامية طوال العام المنصرم، عرج على الحركة الوطنية في مصر فحيها أحسن تحية وكان ترجمان الشعر والأدب في تمجيدها وتأبيدها، قال:

(١) يريد يوم هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة.

(٢) المدينة المنورة.

مباركة من غيرة تتشعر
تجافت عن الإبراء لولا (كرومر)^(١)
سيلا إلى إخمادها وهي تزفر
ففى مصر إيقاظ على مصر تسهر
فأصبح فى أعصابنا يتخدر
عزائنا عن نيلها كيف نُعذّر؟
من العيش إلا فى ذرا العز تسحر
إلى الموت قهّار ولا متجبر

وفيه سرّت فى مصر روحٌ جديدةٌ
خبّت زمنا حتى توهمت أنها
تصدى فأوراها وهيهات أن يرى
مضى زمن التتويم يا نيل وانقضى
وقد كان «مرفين» الدهاء مخدراً
شعرنا بحاجات الحياة فإن وُنت
شعرنا وأحسنا وباتت نفوسنا
إذا الله أحيّا أمة لن يردّها

وحيا الشباب بقوله :

إلى قادة تبنى وسعبي يعمر
إلى مصلح يدعو وداع يذگر
إلى عالم يدري وعلم يقرر
إلى حكمة تملى وكف تحرر
إليكم فسدوا النقص فينا وشمروا
ير مرور الأمس والعيش أغبر
تناشدكم بالله أن تتذكروا
تعهد روض العلم فالروض مقفر
بدأ تبتنى مجداً ورأساً يفكر
وصونوا حمى أوطانكم وتحجروا

رجال الغد المأمول إنا بحاجة
رجال الغد المأمول إنا بحاجة
رجال الغد المأمول إنا بحاجة
رجال الغد المأمول إنا بحاجة
رجال الغد المأمول إنا بحاجة
رجال الغد المأمول لا تتركوا غداً
رجال الغد المأمول إن بلادكم
عليكم حقوق للبلاد أجلها
قصارى منى أوطانكم أن ترى لكم
فكونوا رجالاً عاملين أعزة

وعرج على حركة المطالبة بالدستور، قال :

تبيتوا على يأس ولا تتضجروا
أراه على أبوابكم يتخطر
أخاف عليكم أن يقال تهوروا
ولا ناله فى العالمين مقصر

وياطلبى (الدستور) لاتسكنوا ولا
أعدوا له صدر المكان فإنى
ولاتنطقوا إلا صواباً فإنى
فما ضاع حق لم ينم عنه أهله

(١) خست. محمدت، وتجافت: تباعدت، وإبراء النار، إشعالها، وكرومر هو المعتمد البريطانى فى ذلك الحين والحاكم المطلق فى مصر وقتئذ، يريد أن فظائع كرومر قد اشعلت روح الكراهية للاحتلال.

لقد ظفر الأتراك عدلا بسؤلهم^(١) ونحن على الآثار لا شك نظفّر
هم لهم العام القديم مقدرٌ ونحن لنا العام الجديد مقدر

وقد قوبلت القصيدة بالتصفيق والإعجاب والحماسة البالغة من الحاضرين، وكان
إلقاؤه رائعاً أخذاً، ولبت في إلقائه ساعة من الزمان كاملة.

وفي ١٢ يناير سنة ١٩١٠ أقام الشباب أيضاً احتفالاً فخماً بعيد رأس السنة الهجرية
(١٣٢٨) بمسرح (البيلوت باسك) بشارع عماد الدين، والقي فيه حافظ قصيدة من أبلغ
شعره، قال في مطلعها يحيى هلال العام الجديد:

لى فيك حين بدّا سنّاك وأشرقّا أملّ سألتُ الله أن يتحققا

ثم ذكر العام الذى مضى وما أصاب مصر فيه من كوارث، قال:

أشرق علينا بالسعود ولا تكن كأخيك مشوم المنازل أخرقا

إلى أن قال يعنى حرية الصحافة ويذكر ما أصابها من الضغط والاضطهاد:

ورمى على أرض الكنانة جرمه
حصدت مناجله غراس رجائنا
فتقيدت فيه (الصحافة) عنوة
وأقى يساوم في (القناة) خديعة
إن البلية أن تُباع وتُستري
كانت تواسينا على آلامنا
فإذا دعوتُ الدمع فاستعصى بكت
كانت لنا يوم الشدائد اسهياً
كانت صماماً للنفوس إذا علت
كم نفست عن صدر حرٍّ واجد^(٤)
بالنّازلات السُّود حتى ارهقا
ولو أنها أبقت عليه لأورقا
ومشى الهوى بين الرعية مُطلقاً
ولو أنها تمت لتّمّ بها الشقاً^(٢)
مصرٌ وما فيها وأن لا تنطقا
صحفٌ إذا نزل البلاء وأطبقا
عنا اسى حتى تغصّ وتشرقا
نرمى بها وسوايقا^(٣) يوم اللقا
فيها الهُوم وأوشكت أن تزهقا
لولا الصمّام من الأسى لتمزقا

(١) يريد إعلان الدستور في تركيا عام ١٩٠٨.

(٢) يشير إلى مشروع مد امتياز قناة السويس، وقد ظهر في أواخر سنة ١٩٠٩ ورفضته الجمعية العمومية، في أبريل سنة ١٩١٠.

(٣) السوابق من صفات الخيل، أى كانت لنا عدة في الجهاد.

(٤) الواجد: الحزين.

مالي انوح على الصحافة جازعاً
قصوا حواشيها ووطنوا أنهم
وأتوا بحاذقهم^(١) يكيدها بما

ماذا ألم بها وماذا احدقا
امنوا صواعقها فكانت أصعقا
يئنن عزائمها فكانت احدقا

وقال يخاطب الشباب ويهيب بهم أن يعملوا ليردوا إلى مصر مجدها واستقلالها:

أهلاً بنايتة البلاد ومرحباً
لا تياسوا أن تستردوا مجدكم
مدت له الآمال من أفلاكها
فتجشموا للمجد كل عزيمة
من رام وصل الشمس حاك خيوطها

جددتم العهد الذي قد أخلقا
فلرب مغلوب هوى ثم ارتقى
خيطة الرجاء إلى العلا فتسلقا
إني رأيت المجد صعب المرتقى
سبباً إلى آماله وتعلقا

* * *

عارٌ على ابن النيل سباق الوري
أو كلما قالوا تجمع شملهم
فتدققوا حُججاً وحوطوا نيلكم
حملوا علينا بالزمان وصرّفه
هزوا مغاريها فهابت بأسهم
فتعلموا فالعلم مفتاح العلا
نم استمدوا منه كل قواكم
وابنو حوائى حوضكم من يقظة
وزنوا الكلام وسدّوه فليتهم
وامشوا على حذرٍ فلين طريقكم
نصبوا لكم فيه الفخاخ وأرصدوا
الموت في غشيانه وطروقته

مهما تقلب دهره أن يسبقا
لعب الشقاق بجمعنا فتفرقا
فلكم أفاض عليكم وتدققا
فتأنقوا في سلبنا وتأنقا^(٢)
يا ويلكم إن لم تهزوا المشرقاً^(٣)
لم يُبق بابا للسعادة مغلقا
إن القسوى بكل أرض يُتقى
سوراً وخطوا من حذارٍ خندقا
خبأوا لكم في كل حرفٍ منزلقا
وعرّ أطاف به الهلاك وحلقا
للسالكين بكل فج موبقا^(٤)
والموت كل الموت ألا يطرقا^(٥)

(١) يريد بطرس غالى رئيس الوزراء، ولكن الحق أن تبعه ذلك يتحملها الوزراء جميعا لا بطرس غالى وحده.

(٢) أى حاربنا المحتلون بأحداث الزمان ونوائيه. وتأنق فى الأمر؛ أى بالغ فيه.

(٣) يشير إلى الإنجليز، أى أنهم مدوا سلطانهم فى دول الغرب. ويدعو المصريين إلى أن يجعلوا مصر هذه المكانة فى الشرق.

(٤) الفج: الطريق، الموبق: الهلاك.

(٥) أى إذا كان فى الإقدام موت فإن فى الاستسلام موتاً أكبر.

فتحينوا فرصَ الحياة كثيرةً وتعجلوها بالعزائم والرق
أوفاخلقوها قادرين فإنما فرص الحياة خليفة أن تخلقا

مسألة قناة السويس

في أواخر سنة ١٩٠٩ وأوائل سنة ١٩١٠ شغلت الرأي العام مسألة كبرى تتصل بحياة البلاد الاقتصادية والسياسية، وهي مشروع مدّ الامتياز الممنوح لشركة قناة السويس أربعين عاما أخرى، وقد أثار هذا المشروع سخط الأمة واحتجاجها وطالبت بوقفه وبعرضه على «الجمعية العمومية» قبل البت فيه.

حركت هذه المسألة الهامة رُوح الشعر في نفس حافظ، فنظم في نوفمبر سنة ١٩٠٩ قصيدة من بليغ شعره القومي، وصف فيها الحالة السيئة التي وصلت إليها البلاد، وأيد الحركة الوطنية في مطالبتها، وعبر أصدق تعبير عن آلامها وآمالها، قال في مطلعها:

لقد نَصَلَ الدُّجَى فمتى تَنَامُ أهُمُّ ذَاذَ نَوْمِكَ أم هُيَامُ^(١)

إلى أن قال:

أيجمل بالأديب أديب مصر	بكاء الطفل أرهقه الفِطَامُ
ويصرفه الهوى عن ذكر مصر	ومصرٌ في يد الباغى تُضَامُ
عدمتُ يراعيتُ إن كان ما بي	هوى بين الضلوع له ضِرامُ
وما أنا والغرامُ وشابَ رأسي	وغال شبابي الخطبُ الجسامُ
وربّاني الذي ربيّ (البيدًا)	فعلمنى الذى جهل الأنام ^(٢)
لعمرك ما أرقّتُ لغير مصرٍ	ومالى دونها أمل يرامُ
ذكرت جلالها أيام كانت	تصول بها الفراعنة العظامُ
وأيام الرجال بها رجالٌ	وأيام الزمان لها غلامُ
فأقلق مضجعى ما بات فيها	وباتت مصر فيه فهل الأم؟

وأهاب بالشعب أن يدع التواكل والتخاذل والانقسام قال:

(١) الدجى: ظلام الليل.

(٢) لبيد، هو الشاعر العربي صاحب المعلقة التي أولها:

عفت الديار محلها فرسومها

أرى شعباً بمدرجة العوادي
 إذا ما مرّ بالبأساء عام
 سرى داء التواكل فيه حتى
 قد استعصى على الحكماء منا
هلاك الفرد منشؤه توان
 وإننا قد ونّينا وانقسمنا
 فساء مقامنا في أرض مصر
 فلا عجب إذا ملكت علينا

تمخّخ عظمه داء عقام^(١)
 أطل عليه بالبأساء عام
 تخطف رزقه ذاك الزحام^(٢)
 كما استعصى على الطب الجذام
وموت الشعب منشؤه انقسام
 فلا سعى هناك ولا ونام
 وطاب لغيرنا فيها المقام
 مذهبنا وأكثرنا نيام

وناجي الأمير حسين كامل وكان رئيساً لمجلس شوري القوانين أن يث روح الحياة
 والتضامن في نفوس أعضاء مجلس الشورى والجمعية العمومية، وناشدهم ألا يثقوا بوعود
 الاحتلال، قال:

(حسين. حسين) أنت لنا فنبه
 وكن - بأبيك - لابن أخيك عوناً
 أفض في قاعة الشورى وثاماً
 وعلمهم مصادمة الأعادي
 ففي (حزب اليمين) لديك قوم
 وفي (حزب الشمال) لديك أسد
 فكونوا للبلاد ولا يفتكم
 فما سادوا بمعجزة علينا
فلا تثقوا بوعود القوم يوماً
 وخافوهم إذا لانوا فإني
 فكم ضحكك (العميد) على لحانا

رجالا عن طلاب الحق ناموا
 فأنت بكفه نعم الحسام
 فقد أودى بنا وبها الخصام
 فمثلك لا يروعه الصدام
 وإن قلوبا فإنهم كرام
 كماً لا يطيب لها انهزام
 من النهزات والفرص اغتنام
 ولكن في صفوفهم انضمام
فإن سحاب ساستهم جهام^(٣)
 أرى السؤاس ليس لهم ذمام^(٤)
 وغر سراتنا منه ابتسام

(١) المدرجة: الطريق، والعوادي: النواب، وتمخخ العظم: إذا أخرج مخد.

(٢) أي مزاحمة الأجانب للمصريين.

(٣) السحاب الجهم: الذي لا ماء فيه.

(٤) الذمام: الذمة والعهد.

ونادى بالدستور وندد بمشروع مد امتياز القناة، قال:

ليس العلمُ يسكننا وحييداً	إذا لم ينصر العلمُ اعتزام
وإن لم يدرك (الدستور) مصرًا	فما لحياتها ابدا قوام
حموناً ورد النيل عذباً	وقالوا: انه موت زوام
وما الموت الزوام إذا عقلنا	سوى (الشركات) حل لها الحرام
لقد سعدت بغفلتنا فراحت	بشروتنا وأولها (الترام)

* * *

فيا ويل (القناة) اذل احتواها	بنو (التاميز) وانحسر اللثام
لقد بقيت من الدنيا حطامًا	بأيدينا وقد عَزَّ الحطام
وقد كنا جعلناها زماما	فوالهني اذا قطع الزمام!

* * *

فيا (قصر الدهارة) لست أدري	احربُ في جرابك أم سلام؟
أجنبنا هل يُراد بنا وراء	فنفضي أم يراد بنا أمام؟
ويا (حزب اليمين) إليك عنا	لقد طاشت نبالك والسهام
ويا (حزب الشمال) عليك منا	ومن ابناه نجدتك السلام

وقد اضطرت الوزارة تحت ضغط الرأي العام إلى عرض المشروع على الجمعية العمومية التي قررت رفضه، وبذلك حبط المشروع.

تنديده بالكولونل روزفلت

جاء الكولونل تيودور روزفلت الرئيس الأسبق لجمهورية الولايات المتحدة إلى مصر عن طريق السودان في مارس سنة ١٩١٠، وألقى بالخرطوم خطبة سياسية مجد فيها الاحتلال البريطاني، ودعا إلى الخضوع لحكمه، ولما وصل إلى القاهرة ألقى بالجامعة المصرية خطبة أخرى أشد وطأة من خطبته، بالخرطوم، وقد أثارت خطبته احتجاج الرأي العام، وشارك حافظ الأمة في سخطها على روزفلت، ونظم قصيدة عصاء لامة فيها على إطرانه الاحتلال، نشرها قبيل إلقاء خطبته الثانية بالقاهرة، قال.

أنى خطيب الدنيا شنف	سَمِعَ مصر بقولك المأثور
---------------------	--------------------------

إنما شوقها لقولك يا (روز)
 قف غداً أيها الرئيس وعلم
 وأخبر الناس كيف سدتم على النا
 وملكتم أعنة الريح والما
 قف وعدد مآثر العلم واذكر
 وإذا ما ذكرت أنعمه الكب

يا نصير الضعيف مالك تطرى
 لم تطيقوا جوارهم بل اقمتم
 أنت تطريهم وتثني عليهم
 ليت شعري أكنت تدعو إليهم
 يوم كانوا قذى بعين (نيويور
 يوم نادى (واستجنتون) فلباً
 يوم سجلتم على صفحات الده
 ووثبتم إلى الحياة ثوبا
 إنما النيل والمسيبي^(٣) صنوا
 وعجيب أن يفوز هذا بإطلا
 يا نصير الضعيف حُبب إليهم
 فعليهم أن يهجروا وعلى المص

خطة القوم^(١) بعد ذاك النكير
 في حماكم من دوتهم ألف سور
 نائباً آمناً وراء البحور
 يوم كانوا على تخوم التغور
 (ك) وداء مستحكماً في الصدور
 ه من الغيل كل ليث هصور^(٢)
 ر تاريخ مجدمكم بالنور
 ونفضتم عنكم غبار القبور
 ن هما حليتان للمعمور
 ق وهذا في ذلة المأسور
 هجر مصر^(٤) تفز بأجر كبير
 رى ذكر المتيم المهجور

رثاؤه لمحمد فريد

نظم حافظ في رثاء محمد فريد قصيدة من غرر شعره ألقاها بصوته الجمهورى في حفلة التأبين
 التى أقامها الحزب الوطنى يوم الأربعاء لوفاته (١٩ ديسمبر سنة ١٩١٩)، فهزت مشاعر

(٣) هو النهر المشهور بأمريكا
 (٤) أى الجلاء عنها.

(١) يقصد الإنجليز.
 (٢) الغيل: موضع الأسد

السامعين والمواطنين لما حوته من المعاني الرائعة والتقدير البالغ للزعيم الراحل، قال:

مَنْ لِيَوْمٍ نَحْنُ فِيهِ مَنْ لَعْدُ؟ مات ذو العزيمة والرأى الأسد
حَلَّ (بالجمعة) حزنٌ وأسى ومشى الوجد الى (يوم الأحد)^(١)
وبدا يشعري على قرطاسه لوعةً سألت على دمع جمْد

* * *

أبها النيل لقد جَلَّ الأسي كُنْ مِدَاداً لِي إِذَا الدَمْعُ نَفْدُ
وأذبلِي يازهرة الرُّوضِ ولا تبسّمِي لَلطَّلِّ فالعِيشُ نَكْدُ
والزَمِ التُّوْحَ أَياطِيرُ ولا تبتهجِ بالشَّدْوِ فالشَّدو حدد^(٢)
فلقد ولى (فريدٌ) وانطوى ركنِ مصرٍ وفناها والسُّنْدُ

* * *

خالدَ الأنار لا تخشِ البلى ليس يَبْلَى من له ذِكْرُ خَلْدُ
زرتَ (برلين) فنادى سَمْتُها نزلت شمس الضحى برج الأسد
واختفت سمسك فيها وكذا تختفى في الغرب أقمار الأبد^(٣)

* * *

يا غريبَ الدار والقبر ويا سلوة النيل إذا ما الخطبُ جَدُّ
وحُساماً فلَّ حَدِيه الرَّدَى وشهابا ضاء وهنأ وخمد
قلُّ (لصب النيل)^(٤) إن لاقيتَه في جوار الدائم الفرد الصمد
إن مصرراً لاتبني عن قصدها رغم ما تلقى وإن طال الأمد
جئت عنها أحمل البشرى إلى (أول البانين)^(٥) في هذا البلد
فاستريحْ وهنأ ونم في غِبْطَةٍ قد بذرت الحبَّ والشعب حُصد^(٥)

* * *

(١) كنى بيومى الجمعة والأحد عن المسلمين والمسيحيين.

(٢) الحدد: الحرام الذى لا يحل أن يرتكب.

(٣) كانت وفاة الفقيه في برلين يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩.

(٤) يريد مصطفى كامل.

(٥) يشير إلى قيام ثورة سنة ١٩١٩.

آثر النيل على أمواله وقواه وهوأه والولد
 يطلب الخير لمصر وهو في سِقْوَةَ أحلى من العيش الرغد
 ضاربٌ في الأرض يبغى مأرباً كما قاربه عنه ابتعد
 لم يَعْبِهِ أن تجنى دهره رب جدٍ حاد عن مجراه جدًّا^(١)
 يستحم العزم حتى إن بدت فرصة شدَّ إليها وصمد
 فهو لا يثنى عناناً عن منى وهو هجيراه (من جد وجد)
 فأياديه إذا ما أنكرت إنما تنكرها عين الحسد

* * *

فقدت مصر (فريداً) وهي في موطن يُعوّزها فيه المدد
 فقدت مصر (فريداً) وهي في لهوة الميدان والموتُ رصد
 فقدت منه خبيراً حُولا^(٢) وهي والأيام في أخذ وردّ
 لم سكد يُتبعها الدهر به في ربوع النيل حيّاً لم يكد
 ليته عاش قليلاً فتري شعب مصر عينه كيف اتحد
 ووح مصر بل فويحاً للثرى إنه أبلغ حزنًا وأشد
 كم تقنى وتقنى أهله لو يوارى فيه ذباك الجسد^(٣)

* * *

لطف نفسى هل (ببرلين) امرؤ فوق ذاك القبر صليّ وسجد؟
 هل بكت عينٌ فروّت تُربسه هل على أحجاره خطٌ أحد؟
 ها هنا قبرٌ شهيد في هوى أمةٍ أيقظها ثم رقد!

ثورة سنة ١٩١٩

حيا حافظ ثورة ١٩١٩ في قصيدة نظمها عن أول مظاهرة للسيدات قمن بها يوم ١٦ مارس ١٩١٩ احتجاجاً على عسف الإنجليز حيال المظاهرات السابقة وما ارتكبه مع المتظاهرين من

(١) المد (بالكسر) الاجتهاد، وبالفتح الحظ. والمعنى: رب اجتهاد أخطأ الحظ.

(٢) الحول: الحادق البصير بتحويل الأمور.

(٣) يشير في هذا البيت والبيت الذي سبقه إلى أن جثمان الفقيد ثوى في برلين، وقد نقل إلى مصر في يونية سنة ١٩٢٠.

فظائع القتل والتنكيل، وقد مجد حافظ شعور السيدات المتظاهرات وشجاعتهن، وحمل في قصيدته حملة لاذعة على مسلك الجنود الإنجليز حيالهن، قال :

خَرَجَ الغَوَايِ يَحْتَجِّجُنْ وَرُحْتَ أَرْقُبَ جَمْعَهُنَّ
 فإِذَا بَهِنَّ تَحَذَنَ مِنْ سُودِ النِّيَابِ شِعَارَهُنَّ
 فَطَلَعْنَ بِمِثْلِ كَوَاكِبِ يَسْطَعْنَ فِي وَسَطِ الدُّجْنَةِ^(١)
 وَأَخَذْنَ يَجْتَزْنَ الطَّرِيقَ وَدَارَ «سَعْد» قَصْدَهُنَّ
 يَمِشِينَ فِي كَنَفِ الوَقَا رَ وَقَدْ أَيْنَ تَشْعُورُهُنَّ
 وَإِذَا بِجَيْشٍ مُقْبِلٍ وَالخَيْلُ مُطَلَّقَةُ الأَعْنَةِ
 وَإِذَا الجُنُودُ سَيُوفُهَا قَدْ صُوبَتْ لِنُحُورِهِنَّ
 وَإِذَا المَدَافِعُ وَالبِنَا دَقَ وَالصَّوَارِمُ وَالأَسِنَّةُ
 وَالخَيْلُ وَالفَرَسَانُ قَدْ ضَرَبَتْ نَطَاقًا حَوْلَهُنَّ
 وَالوَرْدُ وَالرَّيْحَانُ فِي ذَاكَ النِّهَارِ سِلَاحَهُنَّ
 فَتَطَاحَنُ الجَيْشَانُ سَا عَاتٍ تَشِيبُ لَهَا الأَجْنَةُ
 فَتَضَعُغُ النِّسْوَانُ وَالنُّسُ وَا نَ لَيْسَ لهنَّ مُنَّةُ^(٢)
 نَمَ انْهَزَمْنَ مَشْتَاتِ الشَّمِّ لَ نَحْوِ قِصُورِهِنَّ

* * *

فليهننا الجيش الفخو ر بنصره وبكسرهنه!
 فكأنما (الألمان) قد لبسوا البراقع بينهنه
 وأتوا (بهندنبرج)^(٣) محتة
 فلذلك خافوا بأسهن وأشفقوا من كيدهنه!

وأنشأ قصيدة حيا بها جمعية المرأة الجديدة، وألح فيها إلى بطولة المرأة في ثورة سنة ١٩١٩. قال :

(١) الدجنة: الظلام.

(٢) المنة: القوة.

(٣) المارشال هندنبرج، القائد الشهير في الحرب العالمية الأولى.

إِلَيْكَ يَهْدِي النَّيْلُ أَلْفَ تَحِيَّةٍ
وَيُثْنِي عَلَى أَعْمَالِكُنْ مَوْكَلِي^(١)
أَقْمَتُنَّ بِالْأَمْسِ الْأَسَاسَ مَبَارِكًا
صَنَعْتُنَّ مَا يُعْبَى الرَّجَالُ صَنِيعُهُ
مُعَطَّرَةٌ فِي أَسْطَرِ عَطَرَاتِ
بِإِطْرَاءِ أَهْلِ الْبِرِّ وَالْحَسَنَاتِ
وَجِئْتُنَّ يَوْمَ الْفَتْحِ مُغْتَبَطَاتِ
فَرَزِدْتُنَّ فِي الْخَيْرَاتِ وَالْبَرَكَاتِ

* * *

يقولون : نصفُ الناسِ في الشرقِ عايطلُ
وهذي بنات النيلِ يَعْمَلْنَ لِنَهْيِ
وفي السنة السُّوداءِ كُنْتُنَّ قُدُوءَ
وَقَفْتُنَّ فِي وَجْهِ الْخَمِيسِ مُدَجَّجًا
وَمَا هَالِكُنَّ الرُّمَحَ وَالسَّيْفَ مُصَلَّتَا
تَعَلَّمْ مِنْكُمْ الرَّجَالُ فَأَصْبَحُوا
نِسَاءً قَصَيْنَ الْعَمَرَ فِي الْحُجَرَاتِ
زَيْغَرِسْنَ غَرَسَادَانِي الثُّمَرَاتِ
لِنَا حِينَ سَأَلَ الْمَوْتَ بِالْمَهْجَاتِ
وَكُنْتُنَّ بِالْإِيمَانِ مُعْتَصِمَاتِ
وَلَا الْمُدْفَعُ الرَّشَاشُ فِي الطَّرْقَاتِ
عَلَى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ أَهْلُ تَبَاتِ

مصر تتحدث عن نفسها

قصيدة غراء قالها سنة ١٩٢١ على أثر قطع مفاوضات عدلى - كيرزون، حين سفرت نيات الإنجليز في العدوان على مصر، وقد أشاد فيها بمجد مصر وعظمتها، ثم أشار إليها وهي تستنجد بينها البررة على غدرات الأيام ويهيب بهم أن ينظروا من تليد مجدها إلى المثل الأعلى ليحتذوه، وينعاونوا على التمسك بالحق كاملا حتى يبلغوه، وقد أجرى الخطاب في القصيدة على لسان مصر لينصت الجميع لصوتها، إذ هي فوق الجميع، وكان عنوان القصيدة حين نشرت (مصر فوق الجميع) وهذه القصيدة أنتدتها سيدة الطرب أم كلثوم من روائع أغانيها :

وَقَفَ الْخَلْقُ يَنْظُرُونَ جَمِيعًا
وَبِنَاءِ الْأَهْرَامِ فِي سَالِفِ الدَّهْدِ
أَنَا تَاجُ الْعِلَاءِ فِي مَفْرَقِ^(٢) الشَّرِّ
أَيُّ شَيْءٍ فِي الْعَرْبِ قَدْ بَهَرَ النَّا
كَيْفَ ابْنِي قَوَاعِدَ الْمَجْدِ وَحَدَى
رَ كَفَوْنِي الْكَلَامِ عِنْدَ التَّحْدَى
قِ وَدِرَاتِهِ فِرَائِدُ عِقْدَى
سَ جَمَالًا وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ عِنْدَى؟

(١) موكل، أى أن النيل قد أنابه عنه في إبلاغهن ثناءه عليهن.

(٢) المفرق: وسط الرأس.

فترابى تَبْرٌ ونَهْرِي فُراتٌ
 أينما سِرْتُ جَوَلٌ عندكم كَرَمٌ
 ورجالِي لو أنصَفُوهُم لَسَادُوا
 لو أصابواهُم مجالاً لا بُدُوا
 أنا إن قَدَرَ الإِلهُ مَمَاتِي
 وسمائي مَصْقُولَةٌ كالْفِرْنِيدِ^(١)
 عند زَهْرٍ مُدَنَّيرٍ عند رَنْدِ^(٢)
 مِنْ كُهُولٍ مِلءِ العُيونِ ومُرْدِ^(٣)
 مُعْجَزاتِ الذِّكْءِ في كُلِّ قَصْدِ
 لا تَرَى الشَّرْقَ يَرْفَعُ الرُّأسَ بَعْدِي

* * *

ما رَماني رامٍ راحٍ سَليماً
 كم بَغَتْ دَوْلَةٌ عَلَيَّ وجارَتْ
 إنني حُرَّةٌ كَسَرْتُ قُيودِي
 مِنْ قَدِيمِ عنايةِ الله جُنْدِي
 نَمَّ زالتِ وتلكَ عُقبِي التَّعْدِي
 رَغْمَ رُقْبِي العِدا وقَطَعْتَ قَدِي^(٤)

* * *

قُلْ لِمَنْ أَنْكروا مفاخرَ قَوْمِي
 هَلْ وَقَفْتُمْ بِقِمَّةِ الهَرَمِ الأَكْبَدِ
 هَلْ رَأَيْتُمْ تلكَ النُّقُوشِ اللُّوآئِي
 حَالِ لَوْنِ النَّهارِ مِنْ قَدَمِ العَهْدِ
 هَلْ فَهَمْتُمْ أُسْرارَ ما كانَ عِنْدِي
 دالِكُ فَنُ التَّحْنِيطِ قَدِ غَلَبَ الدَّهْدُ
 بِمِثْلِ ما أَنْكروا ما ثَرُ وُلْدِي
 هَبْ يَوْمًا فَرِيئَتُمْ بَعْضَ جُهْدِي؟^(٥)
 أَعْجَزَتْ طُوقَ صَنْعَةِ المِتْحَدِي؟
 دوماً مَسَّ لونها طُولُ عَهْدِي
 مِنْ عُلُومٍ مُخْبِوءَةٍ طَيَّ بِرْدِي؟
 رِوايِلِي السَّيْلِي وأَعْجَزَ نِيدِي

* * *

قد عَقَدتِ العَهودَ مِنْ عَهْدِ فرَعو
 إنَّ جُحْدِي في الأُولِيَّاتِ عَرِيقُ
 أنا أُمُّ (التَّشْرِيعِ) قَدِ أَخَذَ الرُّو
 وِرِصَدتُ النُّجُومَ مُنْذُ أَضَاءتْ
 نَفْفي (مِصرَ) كانَ أَوَّلَ عَقْدِي
 مَنْ لَه مِثْلُ أُولِيَّاتِي وَجُحْدِي؟
 ما نُ عَنى الأَصُولُ في كُلِّ حَدِّ
 في سِواءِ الدُّجْبِي فأحْكمتِ رِصْدِي

(١) الفرات، العذب، والفرند؛ السيف.

(٢) المدن، أي مختلف الألوان، أو المشرق المتلألئ، والرند؛ شجر طيب الرائحة.

(٣) مرد؛ جمع أمرد، وهو الشاب.

(٤) القد؛ القيد، بقدر منجلد.

(٥) فريتم، أي فريئتم.

قَبْلَ عَهْدِ الْيُونَانِ أَوْ عَهْدِ (نَجْدِ)
فِي مَراسٍ لَمْ أَبْلُغِ الْيَوْمَ رُشْدِي؟
وَأَرَفَ الظِّلَّ أَخْضَرَ اللَّوْنَ رَغْدِ؟

وَشَدَا (بنتنور^(١)) فَوَقَ رُبُوعِي
اتِرَانِي وَقَدْ طَوَيْتَ حَيَاتِي
أَيُّ شَعْبٍ أَحَقُّ مِنِّي بِعَيْشِ

جَاءَ صَفْوًا وَأَنْ يُكَدَّرَ وِرْدِي؟
أَسَدَ مِنْهُمْ وَأَنْ تُقَيَّدَ أُسْدِي؟
مَا يُعَانِي هَوَانَهُ كُلُّ عَبْدِ^(٢)
نِي فَسَدُوا إِلَى الْعَلَا أَيُّ نَسْدِ
يَانِ أَمْضَى مِنْ كُلِّ أبيضِ هِنْدِي

أَمِنَ الْعَدْلَ أَنَّهُمْ يَرُدُّونَ الـ
أَمِنَ الْحَقَّ أَنَّهُمْ يُطْلِقُونَ الـ
نِصْفُ قَرْنِ الْإِقْلِيلَا أَعَانِي
نَظَرَ اللَّهِ لِي فَأَرْشَدَ أَبْنَا
إِنَّمَا الْحَقُّ قُوَّةٌ مِنْ قُوَى الدُّ

وقال في تمجيد التضحية والصمود والصبر أمام الشدائد:

مِن رِجَالِي فَأَنْجِزُوا الْيَوْمَ وَعَدِي
تَسْنَأَ الْمَهْرَ مِنْ عُرُوضٍ وَنَقْدِ^(٣)
يَخْطُبُ النُّجْمُ فِي الْمَجْرَةِ وَدِي
سَلَاقٍ فَالْعِلْمُ وَحَدَهُ لَسِ نَحْدِي
رَقَّ قَوْمًا فَمَا لَهُ مِنْ مَسَدِ
مَ وَأَغْنِي عَنْ اخْتِرَاعِ وَعَدِ
صَابِرَاتٍ وَأَوْجِهٍ غَيْرِ رُبْدِ
وَأُنْحَى عَلَى الْقَوَى الْأَشَدِ

قَدْ وَعَدْتُ الْعُلَى بِكُلِّ أَيِّ
أَمْهَرُوهَا بِالرُّوحِ فَهِيَ عَرُوسِ
وَرُدُّوا بِي مِنْهَا هَلِ الْعَزُّ حَتَّى
وَأَرْفَعُوا دَوْلَتِي عَلَى الْعِلْمِ وَالْأَخْذِ
وَتَوَاصُوا بِالصَّبْرِ فَالصَّبْرُ إِنْ فَا
خُلِقَ الصَّبْرُ وَحَدَهُ نَصَرَ الْقَوَى
شَهِدُوا حَوْمَةَ الْوَعَى بِنُفُوسِ
فَمَحَا الصَّبْرُ آيَةَ الْعِلْمِ فِي الْحَرْبِ

وقال يدعو إلى توحيد الكلمة ونبذ الشقاق وكانت البلاد وقتئذ في غمرة من الانقسام:

كَحَلَّتْهَا الْأَطْمَاعُ فِيكُمْ بِسَهْدِ
كُمُ وَيَطْوِي شُعَاعَهُ كُلُّ بَعْدِ
غَيْرِ رَثِّ الْعُرَا وَسَعِيٍّ وَكَدِّ

إِنَّ فِي الْغَرْبِ أَعْيُنًا رَاصِدَاتِ
فَوْقَهَا يَجْهَرُ يُرِيهَا خَفَايَا
فَاتَّقَوْهَا بِجُنَّةٍ مِنْ وِثَامِ

(١) ستور: أقدم شاعر عرفه التاريخ وهو مصري، وقبل عهد اليونان الخ، أي قبل شعراء اليونان وشعراء العرب

(٢) يقصد عهد الاحتلال البريطاني.

(٣) تسناً: تكرة.

رُبَّ هَافٍ هَفَا عَلَى غَيْرِ عَمَدٍ
رَأَى فِيهِ وَعَثْرَةَ الرَّأْيِ تُرِيدِي
مِنْ خِلَافٍ وَالخَلْفِ كَالسُّلِّ يُعِيدِي
فِيُعِيدُ الْجَهْلُ فِيهَا وَيُعِيدِي
وَيَقُولُ الْقَوِيُّ قَدْ جَدَّ جِدِّي
جَانِبِيهِ بَعَزْمَةَ الْمُسْتَعِدِّ
قَدْ قَطَعْنَاهُ بَيْنَ سُهْدٍ وَوَجْدٍ
وَالْأَمَانِيَّ بَيْنَ جَزْرِ وَمَدِّ
وَهُوَ رَمَزُ لَمَهْدِي الْمُسْتَرْدِّ
فَالْعَالِي مَخْطُوبَةٌ لِلْمُجِدِّ

وَأَصْفَحُوا عَنْ هَنَاتٍ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ
نَحْنُ نَجْتَاؤُ مَوْقِفًا تَعْرُ الْآ
وَنُعِيرُ الْأَهْوَاءَ حَرْبًا عَوَانًا
وَيُتِيرُ الْفَوْضَى عَلَى جَانِبِيهِ
وَيَطْنُ الْعَوِيَّ أَنْ لَا نِظَامَ
فَقِفُوا فِيهِ وَقْفَةَ الْحَزْمِ وَارْمُوا
إِنَّمَا عِنْدَ فَجْرِ لَيْلٍ طَوِيلٍ
عَمَرْتَنَا سُودَ الْأَهَاوِيلِ (١) فِيهِ
وَتَجَلَّى ضِيَاؤُهُ بَعْدَ لَيْلٍ
فَاسْتَبِينُوا قَصْدَ السَّبِيلِ وَجِدُّوا

الاستقلال المقيد

قالها عندما أعلن تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢:

أَجَدَّتِ الْأَيَّامُ أَمْ تَمَزَّحُ؟
أَمْ ذَاكَ لِلَّهِ بِنَا مَسْرَحُ؟
فِي حَالِكِ الشُّكِّ فَاسْتَرْوَحُ
فَأَنْتَنِي أَنْكَرَ مَا أَلْمَحُ
إِنْ لَمَّحُوا بِالْقَصْدِ أَوْ صَرَّحُوا
مَكَانَكُمْ بِالْأَمْسِ لَمْ تَبْرَحُوا
وَرَأَاهَا الْغَايَةَ وَالْمَطْمَحُ
هَذَا هُوَ اسْتِقْلَالُكُمْ فَافْرَحُوا
وَاسْتَوْثِقُوا فِي عَهْدِكُمْ تَرَبَّحُوا
لِلرَّأْيِ فِيهَا وَالْجَجَا أْفِسْحُوا
أَلَّا تَرَى عِزَّتَهَا تُجْرَحُ
فَمِنْهُمْ الْمُخْلِصُ وَالْمُصْلِحُ

أَصْبَحْتُ لَا أَدْرِي عَلَى خَيْرَةٍ
أَمْوَقِفُ لِلْجِدِّ نَجْتَاؤُهُ
أَلْمَحُ لاسْتِقْلَالِنَا لَمَعَةٌ
وَتَطْيِيسُ الظُّلْمَةِ آثَارَهَا
قَدْ حَارَبَ الْأَفْهَامَ فِي أَمْرِهِمْ
فَقَائِلُ لَا تَعَجَّلُوا إِنَّكُمْ
وَقَائِلُ أَوْسَعُ بِهَا خُطْوَةٌ
وَقَائِلُ أَسْرَفَ فِي قَوْلِهِ:
إِنْ تَسْأَلُوا الْعَقْلَ يَقُلْ عَاهِدُوا
وَأَسْسُوا دَارًا لِنُؤَابِكُمْ
وَلْتَذَكُرِ الْأُمَّةُ مِيثَاقَهَا
وَلتَنْتَخِبْ صَفْوَةَ أَبْنَائِهَا

(١) الأهاويل جمع أهوال.

ولتتق الله أولو أمرها
أو تسألوا القلب يُقل حاذروا
إني أرى قيِّداً فلا تُسَلِّمُوا
إن هياؤه من حريرٍ لَكُمْ
حتامٌ - والصبرُ له غايةٌ -
حتامٌ - والأموالُ مشفوهةٌ - (٣)
حتامٌ يُمِضِي أمرنا غيرنا
أن يُسَكِّتُوا الأصوات أو يُرفحوا (١)
وصابروا أعداءكم تُفْلِحُوا
أيديكم فالقيد لا يَسْجَحُ (٢)
فهو عل لينٍ به أفدَحُ
لغيرنا من بئسنا نَمْتَحُ؟
نَمْنَحُ إلا (مِصر) ما نَمْنَحُ؟
وذاك بالأحرار لا يَمْلَحُ؟

وعاد يدعو إلى الوحدة والوئام وستنكر الفرقة والانقسام:

أساءَ بَعْضُ النَّاسِ فِي بَعْضِهِمْ
فَانْتَهَزَتْ أَعْدَاؤُنَا نَهْرَةً
فَالرَّأْيُ كُلُّ الرَّأْيِ أَنْ تُجْمِعُوا
وَكُلُّ مَنْ يَطْمَعُ فِي صَدْعِكُمْ
أَخْشَى إِذَا اسْتَمَثَرْتُمْ بَيْنَكُمْ
فَلتَقْصِدُوا مَا اسْتَطَعْتُمْ فِيهِمْ
ظنا وقد أَسَمُوا وقد أَصْبَحُوا
فينا وما كانت لهم تَسْنَحُ
فإنما إجماعكم أَرْجَحُ
فإنه في صخرةٍ يَنْطَحُ
من قَادَةِ الآراء أن تَفْضَحُوا
فإنما في القلة المنجَحُ

يستحث المواطنين على التضحية والجهاد

نظم حافظ سنة ١٩٠٤ قصيدة رائعة عن (غادة اليابان) ضرب فيها الأمثال في التضحية والجهاد، وجعلها على لسان غادة وطنية من اليابان وأشاد بشجاعتها في الحرب التي شبت بين بلادها والروسيا عام ١٩٠٤، إذ ذهبت متطوعة إلى ميادين القتال تواسى الجرحى، وترعى حقهم قال:

لاتلم كيف إذا السيف نَبَا (٤)
ربِّ ساعٍ مُبِصِرٍ فِي سَعِيهِ
مرحباً بِالخَطْبِ يَبْلُونِي إِذَا
صَحَّ مَنِ الْعِزْمُ وَالدهرُ أَبِي
أخطأ التوفيق فيما طلبا
كانت العلياء فيه السببا

(١) يريد تأين المواطنين من النفي إلى (رفح) وكانت منذ ثورة سنة ١٩١٩ منفي للأحرار.

(٢) بلين وسهل.

(٣) أى مستنفدة مضية.

(٤) نبا السيف: كل وارتد.

إيه يادنيا اعبسى أو فابسمى لا أرى برقك إلا خلباً^(١)

إلى أن قال:

كنتُ أهوى في زمانى غادةً
حملتُ لى ذات يوم نبأ
وأنت تخطر والليل فتى
ثم قالت لى بشعر باسم
نبأونى برحيل عاجلٍ
ودعانى موطنى أن أغتدى^(٣)
نذبح الدب^(٤) ونفرى جلده
وهب الله لها ما وهبا
لارعاك الله ياذاك النبأ
وهلال الأفق فى الأفق حباً
نظم الدر به والحبأ
لا أرى لى بعده منقلباً^(٢)
علنى أفضى له ما وهبا
أيظنّ الدب أن لا يغلبا؟

قلتُ والآلام تغرى مهجتى
ما عهدناها لظبي مسرحا
ليست الحرب نفوساً تشتري
أحسبت القد من عدتها
فدعيها للذى يعرفها
ويك! ماتصنع فى الحرب الظبأ؟
يبتغى ملهى به أو ملعبا
بالتمنى أو عقولا تستبى
أم ظننت اللحظ فيها كالشبا^(٥)
والزمنى ياطبية البان الحبا^(٦)

فأجابتنى بصوتٍ راعنى
إن قومى استعذبوا ورد الردى
أنا يابانية لا أننى
أنا إن لم أحسن الرمى ولم
أخدم الجرحى وأفضى حقهم
هكذا (الميكاد) قد علمنا
وأرتنى الظبى ليثاً أغلبا
كيف تدعونى ألا أشربا؟
عن مرادى أو أذوق العطبأ
تستطع كفاى تقلاب الظبأ
وأواسى فى الوغى من نكبا
أن نرى الأوطان أما وأبا

(٤) الدب: رمز لروسيا.

(٥) الشبا: جمع شبة وهى حد السيف.

(٦) البان: شجر لين تألفه الظبأ، والحبا: البيت.

(١) الرق الخلب الذى ينتظر الناس مطره ويخلفهم.

(٢) المنقلب: العودة.

(٣) أغتدى، أى أبادر مبكرة للدفاع عنه.

ملكٌ يكفيك منه أنه أنهض الشرق فهزَّ المغرباً
بعث الأمة من مرقدِها ودعا للعلا أن تَبدأ
فَسَمَتَ للمجد تبغى شأوه وقضت من كل شيء مأرباً

يَسْتَنهضُ الهمم، ويدعو إلى توحيد الكلمة

قال من قصيدة له سنة ١٩٢٣ يخاطب المواطنين :

ويدُّ الإله مع الجماعة فاضربوا بعضا الجماعة تَظْفروا بنجاح
كونوا رجالا عاملين وكذبوا -والصبحُ أبلجُ- حامل المصباح^(١)
ودعوا التخاذل في الأمور فإئما شَبَّحُ التخاذل أنكرُ الأشباح
والله ما يبلغ الشقاء بنا المدى بسوى خلافٍ بيننا وتلاحي^(٢)

* * *

قُم يا ابنَ مصر فأنت حرٌّ واستعد مجد الجدود ولا تُعدِّلمراح^(٣)
شمر وكافح في الحياة فهذه دُنياك دارُ تناحر وكفاح
وإذا أَلح عليك خطبٌ لا تهن واضرب على الإلحاح بالإلحاح
وخص الحياة وإن تلاطم موجهاً خوض البحار رياضة السباح
في البحر لا تثنيك نارُ بوارجٍ في البر لا يلويك غابُ رماح
وانظر إلى الغربيِّ كيف سَمَت به بين الشعوب طبيعة الكدَّاح

إلى أن قال :

وابنُ الكنانة في الكنانة راكدٌ يرنو بعينٍ غير ذات طماح
لايستغل كما علمت ذكاهه وذكاؤه كالخاطف اللماح
فانهض ودع شكوى الزمان ولا تُنح في فادح البؤسى مع الأنواع
واربح لمصر برأس مالك عِزَّةً إن الذكاء حُبالة الأرباح
واشرب من الماء القراح مُنعماً فلکم وردت الماء غير قَراح

(١) الإشارة إلى الفيلسوف ديوجنس الذي كان يحمل في رابعة النهار مصباحاً يبحث عن رجل.

(٢) التلاحي: التخاصم.

(٣) يريد بمراح: الأخذ بأسباب المرح واللهو.

يحذر سعدا من خداع الإنجليز

قال سنة ١٩٢٤ يخاطب سعد زغلول من قصيدة له في تهنتته بنجاته من محاولة اغتياله وكان إذ ذاك معترماً السفر إلى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية في القضية الوطنية:

لا تقرب (التاميز) واحذر ماءه	مهما بدا لك أنه معسولُ
الكيدُ ممزوجٌ بأصفي مائه	والختل ^(١) فيه مُدوّبٌ مصقول
كم واردٍ يا (سعدُ) قبلك ماءه	قد عاد منه وفي الفؤاد غليل ^(٢)
القومُ قد ملكوا عِنانَ زمانهم	ولهم روايات به وفصول
ولهم أحاييل ^(٣) إذا ألقوا بها	فَنصوا النُهَى أسيرُهم مخبول
ولكل لفظٍ في المعاجم عندهم	معنى يقال بأنه معقول
نصّلت ^(٤) سياستهم وحال صباغها	ولكل كاذبة الخضابِ نُصول
جمعوا عقاقير الدواء وركّبوا	ما ركبوه وعندك التحليل

حافظ والإنجليز وجها لوجه

في سنة ١٩٣٢ ساهم الإنجليز مع العناصر الرجعية في إلغاء الحياة الدستورية، وتظاهروا بأنهم على الحياد في هذه المحنة، مع أنهم مدبروها، وقد هاجمهم حافظ بقصائد رائعة نعى فيها عليهم بغيهم وعدوانهم، وكشف فيها الستار عن حيادهم الكاذب، وطعن على سياسة الاستعمار عامة، وأعاد بحملاته عليهم ذكرى قصائده الوطنية الخالدة التي نظمها في تمجيد الحركة الوطنية ومهاجمته الاحتلال في عهد مصطفى كامل ومحمد فريد.

قال في مارس سنة ١٩٣٢ مخاطباً الإنجليز مندداً بسياسة «الحياد» التي أعلنوها، ناعياً عليهم ظلمهم وإخلافهم وعودهم للأمة:

بَنَيْتُمْ عَلَى الْأَخْلَاقِ آسَاسَ مُلْكِكُمْ	فَكَانَ لَكُمْ بَيْنَ الشُّعُوبِ ذِمَامٌ ^(٥)
فَمَا لِي أَرَى الْأَخْلَاقَ قَدْ شَابَ قَرْنُهَا ^(٦)	وَحَلَّ بِهَا ضَعْفٌ وَدَبَّ سِقَامٌ

(١) الختل: الخداع والمكر.
 (٢) الغليل: شدة العطش.
 (٣) الأحاييل: المصائد.
 (٤) نصّلت: انكشفت وخرجت من لونها الكاذب إلى لونها الحقيقي. وحال: تحول.
 (٥) الذمام هنا الحق والحرمة.
 (٦) القرن: النوبة من الشعر.

فليس لملك الظالمين دَوام
لما قام بين الأمنين خصام
وبعد الجروحِ الناغراتِ^(١) وئام؟
فليس على باغى الحياة مَلام

أخاف عليكم عثرةً بعد نهضة
أضعتم وداًداً لو رعيتُم عهوده
أبعد «حيادٍ» لا راعى الله عهدَه
إذا كان في حسن التفاهم مَوْتُنَا

وقال في هذا المعنى:

فمصابكم ومصابنا سيان
أخلاقنا فتالم الشعبان

لا تذكروا الأخلاق بعد «حيادكم»
حاربتمو أخلاقكم لتحاربوا

وقال عن (الحياد الكاذب):

ت العهد نقض الغاصب
وأبنت ود الصاحب
س من «الحياد» الكاذب

قصر الدبارة قد نقض
أخفيت ما أضمرته
الحرب أروح للنفو

وقال مخاطباً السير برسى لورين المندوب السامى البريطانى وقتئذ، مندداً بحياد الإنجليز
المصطنع:

تصيد البَطْ يؤس العالمينا؟
من البلوى - ألم تسمع أنينا؟
وقد بعثوك مندوباً أميناً؟
وأصبح ظننا فيكم يقيناً
وقد برح الخفاء محايدينا
لدى الجلى^(٣) كراماً صابرينا
تُطيف لنا ورغم القاسطينا^(٤)
من النيران يُععى الدارعيننا

ألم تر في الطريق إلى «كياد»^(٢)
ألم تلمح دموع الناس تجرى
ألم تخبر بنى «التأمين» عنا
بأننا قد لمسنا الغدر لئسنا
كشفنا عن نواياكم فلستم
سنجمع أمرنا فتزرون منا
ونأخذ حقنا رغم العوادي
ضربتم حول قادتنا نطاقاً

(١) الناغرات: الداميات.

(٢) بركة بمركز فاقوس بالشرقية كان المندوب السامى البريطانى يذهب إليها لصيد الطيور.

(٣) الجلى: النازلة الشديدة.

(٤) القاسطون: الظالمون.

عل رغم المروءة قد ظفرتم
فهل يجديكم الأسطول نفعا
ولكن بالأسود مصفدينا
إذا ما نازل الحق المبينا؟

وقال في هذا المعنى (ابريل سنة ١٩٣٢):

(إلى المحايدين)

عن منهج الحق المبين؟	أُمْحَايِدُ أُمَّ حَائِدُ
بمدرعين مدججين	نَازَلَتْ شَعْبًا أَعَزَلَا
وبش عقي الظالمين	وَأَمَنْتَ عَقْبِي الظَّالِمِينَ
سنا الجازعين اليائسين	مَهْمَا تُصِبُّ مِنَّا فِلْسَا
وبالعقيدة نستعين	إِنَّا بِجِبَارِ السَّمَاءِ
زلهَا حَرَابُ الغَاصِبِينَ	إِنَ العَقِيدَةَ لَا تَزَلُ
لغد لرب العالمين	فَلْتَن مَلِكْتُمْ يَوْمَكُم
سان وفتكّه بالغاشمين؟	أَأَمَّنْتُمْ صَرَفَ الزَّمِ

* * *

كَيْدُ الضَّعِيفِ المَسْتَكِينِ	كَم مِّن قَوِيٍّ هَدَّه
بالأس ذياك السجين ^(١) ؟	أَوْ لَمْ تَرَوْا مَا ذَاقَه
من دَوَّخَ الدنِيا سَنِينَ	فِي (سنت هيلين) قَضَى
في الكون منقطع القرنين	مِن كَانَ فِي غَارَاتِه
وكان صلبًا لا يلين	أَمْسَى أَلَاتْنَه الخَطُوبِ
أم لستم بالمتقين؟	أَوْ تَتَّقُونَ مَصِيرَه

* * *

من لنا وكيد مبشرين	ضُفْنَا بِكَيْدِ مَحَايِدِ
وتخطفولنا من البينين	تَارَوْا عَلَى دِينِ الهُدَى
من أسده ذاك العرين	دَاسُوا العَرِينَ وَقَدِ خَلَا

(١) نابليون، وقد مات أسيرا سجينًا في جزيرة سنت هيلين.

الحق دين المسلمين خسر المبشر، إنَّ دين
شُرورَ المعتدين الله حاميه وكافيه

نحن والإنجليز وجها لوجه

وقال أيضاً:

قل للمحايد هل شهدت دماءنا تجرى وهل بعد الدماء سلام؟
سفكت مودتنا لكم وبدالنا أن الحيات على الخصام لثام
إن المراحل شرُّها لا يُتقى حتى ينفس كرههنَّ صمام
لم يبق فينا من يئى نفسه بودادكم فودادكم أحلام
أمن السياسة والمروءة أننا نشقى بكم في أرضنا ونضام؟
إنَّا جمعنا للجهاد صفوفنا سنموت أو نحى ونحن كرام

وقال في أبريل سنة ١٩٣٢ تحت عنوان (إلى الإنجليز)، وهى من أبلغ ما قيل في تحدى القوة الغاشمة والصفود أمام الشدائد مها عظمت:

حَوَّلُوا النِّيلَ واحجبوا الضوءَ عنا واطمِسُوا النجمَ واحرمونا النسيما
واملأوا البحر إن أردتم سفيناً واملأوا الجو إن أردتم رُجوما
وأقيموا للعسف في كل شبرٍ (كونستبلا) بالسوط يَفرى الأديما^(١)
إننا لن نحول عن عهد مصرٍ أو ترونا في التراب عظمًا رميما

* * *

عاصفُ صان مُلككم وحاكم وكفاكم بالأمس خطبًا جسيما
غال (أرمادة)^(٢) العدو ففزتم وبلغتم في الشرق شأوا عظيما
فعدلتم هنيهةً، وبَغَيْتُم وتركتُم في النيل عهدًا ذميما
فشهدنا ظلما يقال له العد لُ وودًا يسقى الحميم الحميما^(٣)
فاتَّقوا غضبَةَ العواصفِ إني قد رأيت المصير أمسى وخيما

(١) يفرى الأديم أن يشق الجلد.

(٢) الأرمادة هى الأسطول الأسباني الذى تحطم في القرن السادس عشر بعاصفة حالت بينه وبين مهاجمة الأسطول الإنجليزي الذى كان دونه قوة وعددا.

(٣) الحميم الأول الصديق، والحميم الثانى الشراب الشديد الحرارة.

وقال أيضاً (أبريل سنة ١٩٣٢):

لقد طال الحياتُ ولم تكفوا	أما أرضاًكم ثمنُ الحياتِ؟
أخذتم كل ما تبغون منا	فما هذا التحكُّم في العبادِ؟
بلونا شدَّةً منكم ولينا	فكان كلاهما ذرَّ الرمادِ
وسألتم وعاديتم زمانا	فلم يُغنِ المسالم والمعادى
فليس وراءكم غير التجنى	وليس أمامنا غير الجهادِ

وعود الانجليز في الجلاء

وقال في سنة ١٩٣٢ يتدد بكاتب فرنسى زعم أن جلاء الإنجليز سيكون في أكتوبر من ذلك العام:

كم حددوا يوم الجلاء الذى	أصبح في الإيهام كالمحشر
وسن قوم الطيش من جهلهم	كذبة (إبريل لأكتوبر)

حافظ وصدقى باشا

وقال في سنة ١٩٣٢ يتدد بسياسة صدقى باشا رئيس الوزارة وقتئذ من قصيدة لم ينشر منها إلا النزر اليسير:

قد مرَّ عامٌ يا سعادُ وعام	وابنُ الكنانة في حماه يضام
صَبُّوا البلاءَ على العباد فنصفهم	يجبى البلاد ونصفهم حكام
أشكو إلى (قصر الدبارة) ماجتى	(صدقى) الوزير وماجى (علام) ^(١)

ومنها في مخاطبة صدقى باشا:

ودعا عليك اللّهُ في محرابه	الشيخُ والقسيسُ والهاخام
لا همُّ أحمى ضميره ليذوقها	غصّاً وتنسف نفسه الآلام

يكافح الاستعمار ويدعو إلى الفداء

قال في حرب طرابلس (سنة ١٩١١ - ١٩١٢) حين اعتدت إيطاليا على العرب يستحث أمم الشرق أن تنهض وتكافح الاستعمار، ويمجد التضحية في سبيل الحرية:

(١) محمد علام باشا، وكيل حزب الشعب الذى ألقه صدقى باشا. يشير إلى ما كانوا يجيونه من الأموال إعانة لحزب الشعب.

فاسْتَفِقْ يَا شَرْقُ واحْذَرْ أَنْ تناماً!
كلُّ من يسْكُن في الشَّرْق السَّلاماً
في سبيل الحقِّ قد مِتْنَا كراماً
من دم القَتلى حلالاً وحرّاماً
فَأَعْلُوا^(٢) مِنْ دَرَارِينَا الحُساماً
بذوات الخدَر، طاحوا باليتامى
يرحموا طفلاً، ولم يُيقُوا غلاماً
حَرَمَتْ (لاهاى) في العَهْد احتراماً
فسلوه: بارك القوم علاماً؟
أمرًا يُلقى على الأرض سلاماً؟
وجَلُّوا عن أفق الشَّرْق الظلاماً
أقسَمْت تلتهم الشَّرْق التهاماً

تَقْنطى اليوم فإنَّ الجَدَّ قَما
تَعشَقُ المجدَّ، وتَأبى أن تُضاماً

طَمَعُ ألقى عن الغَرْب اللُّثاماً
واحملِ أيتها الشمس إلى
واشْهَدِي يومَ التَّنَادى^(١) أَننا
مادَتِ الأرض بنا حين انْتَشَتْ
عجز الطَّليانُ عن أبطاننا
كَبَلوهم، قتلوهم، مَثَلوا
ذَبَحُوا الأشياخَ والزَّمنى^(٣)، ولم
أحرقوا الدُّورَ، استحلُّوا كلَّ ما
بارَك المطرانُ في أعمالهم
أبهذا جاءهم إنجيلهم
كشفوا عن نيّة الغَرْب لنا
فقرّانها سطوراً من دم

وختم قصيدته بقوله:

فاطئنى أمم الشرق ولا
إنَّ في أضلاعنا أفئدة

تمجيده للشورى

قال في عمرته المشهورة التى أنشأها فى سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب:

يا رافعاً رايةَ الشورى وحارسها
لم يُلْهِك التَّنَزُّعُ عن تأييد دولتها^(٤)
لم أنسَ أمرك لليمقاديد يحمّله
إنَّ ظلَّ بعد ثلاثٍ^(٥) رأبها شُعباً
فاعجَبَ لِقوّة نفسٍ ليس بصرفها

(٤) دولتها، أى دولة الشورى.

(٥) بعد ثلاث، أى بعد ثلاث ليال. والهادى: الأعناق.

(١) يوم القيامة.

(٢) أعلوا أى سقوا.

(٣) الزمنى: ذوو العاهات.

دَرَى عَمِيدُ بَنِي الشُّورَى بِمَوْضِعِهَا
وَمَا اسْبَدَّ بِرَأْيٍ فِي حُكُومَتِهِ
رَأَى الْجَمَاعَةَ لَا تَشْقَى الْبِلَادُ بِهِ
فِعَاشَ مَا عَاشَ بَيْنَهَا وَيُعَلِّمُهَا
إِنَّ الْحُكُومَةَ تُفْرَى مَسْتَبَدِّهَا
رَغْمَ الْخِلَافِ وَرَأَى الْفِرْدَ يُنْقِيهَا

الاستمرار في الكفاح

قال سنة ١٩٢٤ يدعو إلى الاستمرار في الكفاح:

إِنَّا سَنَعْمَلُ لِلخِلَاصِ وَلَا نَبِيَّ
كَمْ دَوْلَةٍ شَهِدَ الصَّبَاحُ جَلَالَهَا
وَقُصُورِ قَوْمٍ زَاهِرَاتٍ فِي الدُّجَى
وَاللَّهُ يَقْضِي بَيْنَنَا وَيُدْبِلُ (١)
وَأَتَى عَلَيْهَا اللَّيْلُ وَهِيَ فُضُولُ
طَلَعَتْ عَلَيْهَا الشَّمْسُ وَهِيَ طُلُوعُ

* * *

يَأْيَا النِّشْءَ الْكِرَامِ تَحِيَّةً
يَا زَهْرَ مِصْرَ وَزَيْنَهَا وَمُمَاتِهَا
جُدُّتُمْ لَهَا بِالنَّفْسِ فِي وَرْدِ الصُّبَا
كَمْ مِنْ سَجِينٍ دُونَهَا وَبِجَاهِدٍ
سِيرُوا عَلَى سَنَنِ الرَّئِيسِ وَحَقَّقُوا
أَنْتُمْ رِجَالٌ غِيْدٌ وَقَدْ أَوْفَى غَدُ
كَالرَّوْضِ قَدْ خَطَرَتْ عَلَيْهِ قَبُولُ (٢)
مَدْحِي لَكُمْ بَعْدَ الرَّئِيسِ (٣) فُضُولُ
وَالْوَرْدُ لَمْ يُنْظَرْ إِلَيْهِ ذُبُولُ
دَمُهُ عَلَى عَرَصَاتِهَا مَطْلُوعُ
أَمَلِ الْبِلَادِ فَكُلُّكُمْ مَأْمُولُ
فَاسْتَقْبِلُوهُ وَحَاجِلُوهُ وَطُولُوا (٤)

تقريره للمواطنين

وبلغ حثه المواطنين على النهوض ضد التفرقة أحياناً. وله سنة ١٩٠٤ قصيدة ينهى فيها على مواطنيه بعض عيوبهم الاجتماعية، وقد نظمها لمناسبة قضية شخصية تار لها الرأي العام بغير موجب، إذ تزوج صاحب المؤيد المرحوم الشيخ على يوسف بكريمة السيد عبد الخالق السادات، فرفع هذا دعوى أمام المحكمة الشرعية طالباً فسخ عقد الزواج بحجة عدم الكفاءة في النسب، وانحاز الرأي العام إلى جانب المدعى، وأخذ القضاء بوجهة نظره رغم علو مكانة الشيخ على يوسف في الهيئة الاجتماعية، قال حافظ:

(١) يدل، أى يجعل الدولة لنا عليهم.

(٢) القبول: ربح الصبا.

(٣) يقصد هنا سعد زغلول.

(٤) حجلوة، أى اجعلوه يوماً أبيض، وطولوا أى افخروا واعتزوا.

وَعَفْتُ الْبَيَانَ فَلَا تَعْتَبِي
وَلَا أَنْتِ بِالْبَلَدِ الطَّيِّبِ
أَقَالَ الْيِرَاعَ وَلَمْ يَكْتُبِ
فَقَدْ ضَاقَ مِنْكَ مَا ضَاقَ بِي
سَكُوتَ الْجَمَادِ وَلِعَبُّ الصَّبِيِّ؟
لَسَلْبِ الْحَقُوقِ وَلَمْ تَغْضَبِ

حَطَمْتُ الْيِرَاعَ فَلَا تَعْجَبِي
فَمَا أَنْتِ يَا مِصْرَ دَارِ الْأَدِيبِ
وَكَمْ فِيكَ يَا مِصْرَ مِنْ كَاتِبِ
فَلَا تَعْذِلِينِي لِهَذَا السُّكُوتِ
أَبْعُجِبُنِي مِنْكَ يَوْمَ (الْوَفَاقِ)^(١)
وَكَمْ غَضَبَ النَّاسُ مِنْ قَبْلِنَا

* * *

جُجِدُ بِمِصْرَ فَلَا تَلْعَبِي
وَلِلنَّشْرِ شَرٌّ مِنَ الْأَجْنَبِيِّ
وَبَيْنَ الْمَسَاجِدِ مَثْوَى الْأَبِ؟
كَمَا قَالَ فِيهَا (أَبُو الطَّيِّبِ)^(٢)
وَنَحْنُ مِنَ اللَّهْوِ فِي مَلْعَبِ
فِرَارَ السَّلِيمِ مِنَ الْأَجْرِبِ
وَأُخْرَى تَشْنُّ عَلَى الْأَقْرَبِ
وَيَدْعُو إِلَى ظِلِّهِ الْأَرْحَبِ
وَيُطْنِبُ فِي وَرْدِهِ الْأَعْذَبِ
عَلَى غَيْرِ قَصِيدٍ وَلَا مَأْرَبِ

أَنَابَتَةَ الْعَصْرِ إِنَّ الْغَرِيبِ
يَقُولُونَ: فِي النَّشْرِ خَيْرٌ لَنَا
أَفِي (الْأَزْبَكِيَّةِ) مَثْوَى الْبَنِينِ
(وَكَمْ ذَا بِمِصْرَ مِنَ الْمُضْحَكَاتِ)
أُمُورٌ تَمُرُّ وَعَيْشٌ يَمُرُّ^(٣)
وَشَعْبٌ يَفِرُّ مِنَ الصَّالِحَاتِ
وَصُحْفٌ تَطْنُ طُنِينَ الذُّبَابِ
وَهَذَا يَلُودُ بِقِصْرِ الْأَمِيرِ
وَهَذَا يَلُودُ بِقِصْرِ السَّفِيرِ
وَهَذَا يَصِيحُ مَعَ الصَّائِحِينَ

* * *

رَمَاهُ بِهَا الطَّمَعِ الْأَشْعَبِي
فَجَنَّ جُنُونًا بِيْنَتِ النَّبِيِّ
وَضَجَّ لَهَا الْقَبْرِ فِي (يَثْرِبِ)^(٤)
وَقَالُوا: تَلَوْنُ فِي الْمَشْرَبِ

وَقَالُوا: (الْمُؤَيَّدُ) فِي غَمْرَةٍ
دَعَاهُ الْغَرَامُ بِسَنِّ الْكُهُولِ
فَضَجَّ لَهَا الْعَرْشِ وَالْحَامِلُوهِ
وَنَادَى رِجَالٌ بِإِسْقَاطِهِ

(١) يقصد الاتفاق الذي عقد بين فرنسا وبريطانيا سنة ١٩٠٤ ويقتضاه أقرت فرنسا الاحتلال البريطاني لمصر.

(٢) يشير إلى قول أبي الطيب المتنبي: (وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا).

(٣) عيش يمر، أى يصير مرأ.

(٤) اسم قديم للمدينة المنورة.

وَعَدُّوا عَلَيْهِ مِنَ السَّيِّئَاتِ
 وَقَالُوا لَصِيقُ بَيْتِ الرَّسُولِ
 وَرَزْكَى (أَبُو خَطْوَةٍ) قَوْلُهُمْ
 فَمَا لَلْتَّهَانِ عَلَى دَارِهِ
 وَمَا لِلْوَفُودِ عَلَى بَابِهِ
 وَمَا لِلْخَلِيفَةِ أَسَدَى إِلَيْهِ
 أُلُوفًا تَدُورُ مَعَ الْأَحْقَبِ
 أَغَارُ عَلَى النَّسَبِ الْأَنْجَبِ
 بِحُكْمِ أَحَدٍ مِنَ الْمُضْرَبِ
 تَسَاقَطُ كَالْمَطَرِ الصَّيِّبِ؟
 تَزُفُّ الْبَشَائِرَ فِي مَوْكِبِ؟
 وَسَاءَ مَا يَلِيقُ بِصَدْرِ الْأَبِيِّ؟

* * *

فِي أُمَّةٍ ضَاقَ عَنْ وَصْفِهَا
 تَضِيعُ الْحَقِيقَةَ مَا بَيْنَنَا
 وَيُهْضَمُ فِينَا الْإِمَامُ الْحَكِيمُ
 جَنَانُ الْمَفْوِهِ وَالْأَخْطَبِ
 وَيُضَلِّي الْبَرِيءُ مَعَ الْمَذْنَبِ؟
 وَيُكْرَمُ فِينَا الْجَهْلُ الْغَبِي.

* * *

عَلَى الشَّرْقِ مِنْ سَلَامُ الْوَدُودِ
 لَقَدْ كَانَ خِصْبًا بِجَدْبِ الزَّمَانِ
 وَإِنْ طَاطَأَ الشَّرْقَ لِلْمَغْرِبِ
 فَاجْدَبْ فِي الزَّمَنِ الْمُخْصِبِ

شعره الاجتماعي

يزخر شعر حافظ بالاجتماعيات، فهو من هذه الناحية أغزر مادة وأعمق غورا من شوقي، ولا غرو فقد كان أكثر اتصالا بالطبقات الشعبية، وعانى ما تعانىه من الألم والحُرمان، فصار أدق تصويرا لأحوالها وآلامها، وفي ذلك يقول بحق عن نفسه في قصيدته التي أنشدها بدار الأوبرا سنة ١٩١١ في حفلة جمعية رعاية الأطفال:

لَمْ أَقِفْ مَوْقِفِي لِأَنْشِدَ شِعْرًا
 إِذَا قَمْتُ فِيهِ وَالنَّفْسُ تَشْوَى
 فَلِهَذَا وَقَفْتُ أَسْتَعِظُ النَّاسَ
 ذُقْتُ طَعْمَ الْأَسَى وَكَابَدْتُ عَيْسًا
 فَتَقَلَّبْتُ فِي الشَّقَاءِ زَمَانًا
 وَمَشَى الْهَمُّ ثَاقِبًا فِي فُؤَادِي
 صَبَّ فِي قَالِبِي بِسَدِيعِ النَّظَامِ
 مِنْ كُؤُوسِ الْهَمُومِ وَالْقَلْبِ دَامَتِي
 سَ عَلَى الْبَائِسِينَ فِي كُلِّ عَامٍ
 دُونَ شُرْبِي قَدْأَهُ شَرِبُ الْحِمَامِ^(١)
 وَتَنَقَّلْتُ فِي الْخَطُوبِ الْجِسَامِ
 وَمَشَى الْحَزَنُ نَاجِرًا فِي عِظَامِي

(١) الحمام الموت.

عطفه على منكوبي حريق ميت غمر

في سنة ١٩٠٢ شب حريق مروع في مدينة ميت غمر، وبقيت النار مشتعلة فيها عدة أيام، فدمرت كثيراً من دورها ومات في الحريق كثيرون؛ ولعظم النكبة تسابق أهل الخير في إعانة المنكوبين وإسعافهم، وفاضت أعمدة الصحف بأنباء ما أصابهم، وفي ذلك أنشأ حافظ قصيدته المشهورة في وصف هذه الكارثة والعطف على ضحاياها. قال:

سائلوا الليل عنهم والنهارا
كيف أمسى رضيهم فقد الأ
كيف طاح العجوز تحت جدار
رب إن القضاء أنحي عليهم
ومر النار أن تكف إذاها
أين طوفان صاحب الفلك يروى
أشعلت فحمة الدباجي فباتت
غشيتهم والنحس يجرى يينا
فأغارت وأوجه القوم بيض
أكلت دورهم قلما استقلت
أخرجتهم من الديار عمرا
يلبسون الظلام حتى إذا ما
حلة لا تقيهم البرد والحد
أيها الرافلون في حلل الوشد
إن فوق العراء قوما جياعا
أيهذا السجين^(٣) لا يمنع السج
مر يالف لهم وإن شئت زدها

كيف باتت نساؤهم والعذارى؟
م وكيف اصطل مع القوم نارا؟
يتداعى وأسف تتجاري؟
فاكشف الكرب واحجب الأقدارا
ومر الغيث أن يسيل انهمارا
هذه النار فهي تشكو الأوارا^(١)
تملا الأرض والسما شارا
ورمتهم والبوس يجرى يسارا
ثم غارت وقد كستهن قارا
لم تغادر صغارهم والكبارا
حذر الموت يطلبون الفارارا
أقبل الصبح يلبسون النهارا
سر ولا عنهم ترد الغبارا
سي^(٢) يجرن للذيول افتخارا
يتوازون ذلة وانكسارا
من كريما من يقيل العثارا
وأجرهم كما أجرت النصارى

(١) الأوار: شدة الحرارة والعطش.

(٢) حلل الوشى الثياب المزركشة.

(٣) يقصد أحمد المشاوي باشا المحسن وصاحب المبرات المعروفة.

مَلَأَ الْعَيْنَ وَالْفُؤَادَ ابْتِهَارًا
أَنْ ذَاكَ الْفِنَاءَ يَجْرِي نُضَارًا
أَخْجَلَ الصُّبْحَ حُسْنَهُ فَتَوَارَى
فِي يَدِ الْكَأْسِ يَخْلَعُونَ الْوَقَارَا
مَلَأَ الْبِرَّ ضَجَّةً وَالْبِحَارَا

قَدْ شَهِدْنَا بِالْأَمْسِ فِي مِصْرَ عُرْسًا^(١)
سَأَلَ فِيهِ لِلنُّضَارِ حَتَّى حَسِبْنَا
بَاتَ فِيهِ الْمُنْعَمُونَ بَلِيلٍ
يَكْتَسُونَ السَّرُورَ طَوْرًا وَطَوْرًا
وَسَمِعْنَا فِي (مَيْتِ عَمْرِ) صِيَاحًا

* * *

يَتَغَنَّى وَذَاكَ يَبْكِي الدِّيَارَا
وَسُعُودًا وَعُسْرَةً وَيَسَارَا

جَلَّ مِنْ قَسَمِ الْحِظْوَظِ، فَهَذَا
رُبُّ لَيْلٍ فِي الدَّهْرِ قَدْ ضَمَّ نَحْسًا

الجامعة في سبيل الكفاح

وقال من قصيدة له في سنة ١٩٠٨ يدعو إلى معاضدة مشروع الجامعة المصرية.

إِنْ تَنْشُرُوا الْعِلْمَ يَنْشُرْ فِيكُمْ الْعَرَبِيَّ^(٢)
تَكُونُ أُمَّا لَطَّلَابِ الْعُلَا وَأَبَا
مِنَ الْمَعَالِي وَتَبْنِي الْعِزَّ وَالْعَلْبَا
ضَعُوا النُّضَارَ فَإِنِّي أَصْفِرُ الدَّهْبَا
قِيلَ الْعَدُوُّ فَإِنِّي أَعْرِفُ السَّبْبَا^(٣)
ذَاكَ الْعَمِيدُ وَيُرْمِيكُمْ بِهِ غَضْبًا^(٤)
فَكُلُّ حَيٍّ سِيَجْزَى بِالذِي اِكْتَسَبَا^(٥)
فَأَبْنُوا عَلَى الْحَقِّ بُرْجًا يَنْطَحُ الشُّهْبَا
قَوْلَ الْمَفْنَدِ أُنِّي قَالُ أَوْ خَطْبَا
وَطَالِبُوهُمْ وَلَكِنْ أَجْمَلُوا الطَّلْبَا

حِيَاكُمُ اللَّهُ أَحْيَاوُ الْعِلْمَ وَالْأَدْبَا
وَلَا حَيَاةَ لَكُمْ إِلَّا بِجَامِعِيَّةِ
تَبْنِي الرِّجَالَ وَتَبْنِي كُلَّ شَاهِقِيَّةِ
ضَعُوا الْقُلُوبَ أَسَاسًا، لَا أَقُولُ لَكُمْ
وَإِنِّي بَأَكْبَادِكُمْ سَوْرًا لَهَا وَدَعَا
لَا تَقْنَطُوا إِنْ قَرَأْتُمْ مَا يَزُوقُهُ
وَرَأَقِبُوا يَوْمَ لَا تُغْنِي حِصَانِيَّةُ
بَنِي عَلَى الْإِفْكَ أَبْرَاجًا مُشَيَّدَةً
وَجَاوِبُوهُ بِفَعْلٍ لَا يُقْوِضُهُ
لَا تَهْجَعُوا إِيَّاهُمْ لَنْ يَهْجَعُوا أَبَدًا
وختمها بقوله:

أَجْرُ الْمَجَاهِدِ طَوْبِي لِلذِي اِكْتَسَبَا

إِنْ تُقْرَضُوا اللَّهُ فِي أَوْطَانِكُمْ فَلَكُمْ

(١) يقصد عرس زواج (الأمير) حيدر فاضل من كريمة علي فهمي (باشا) سنة ١٩٠٢ وكان من أعظم المهرجانات.

(٢) أي يبعث فيكم مجد العرب.

(٣) أي يشير إلى ما كان يقيمه المعتد البريطاني من العقبات في سبيل إنشاء الجامعة.

(٤) حساند أي حساند الصيد أي ما يقوله لئني به العزائم عن مشروع الجامعة.

رعاية الأطفال

وألقي في إبريل سنة ١٩١٠ القصيدة الآتية في احتفال أقامته جمعية رعاية الأطفال يصف
بؤس أم فقيرة حامل وكيف لقيت الرعاية والإسعاف في مستشفى الجمعية:

شَبَّحًا أرى أم ذاك طَيْفٌ خَيَال؟
أَمَسْتُ بِمَدْرَجَةِ الخُطُوبِ فَمَا لَهَا
حَسْرَى تَكَادُ تُعِيدُ فَحْمَةً لَيْلَهَا
مَا خَطْبُهَا عَجَبًا، وَمَا خَطْبِي بِهَا؟
ذَانِيَّتُهَا وَلِصَوْتِهَا فِي مَسْمَعِي
وَسَأَلْتُهَا: مَنْ أَنْتِ؟ وَهِيَ كَأَنَّهَا
فَتَمَلَّمَتْ جَزَعًا وَقَالَتْ: حَامِلٌ
قَد مَاتَ وَالذُّهَا وَمَاتَتْ أُمُّهَا

لا ، بل فتاةٌ بِالْعَرَاءِ حَيَالِي
رَاعٍ هُنَاكَ وَمَا لَهَا مِنْ وَالِي
نَارًا بِأَنَاتِ ذَكَّيْنِ^(١) طِوَالِ
مَالِي أَشَاطِرُهَا الْوَجِيعَةَ مَالِي؟
وَقَعَ النَّبَالُ عَطْفَنَ إِثْرَ نِبَالِ
رَسَمٌ عَلَى طَلَلٍ مِنَ الْأَطْلَالِ
لَمْ تَدْرُ طَعْمَ الغَمَضِ مِنْذَ لِيَالِي
وَمَضَى الجِمَامُ بِعَمَّهَا وَالخَمَالِ

* * *

وإلى هنا حبس الحياء لسانها
فَعَلِمْتُ مَا تُخْفِي الْفَتَاةُ وَإِنَّمَا
وَوَقَفْتُ أَنْظَرُهَا كَأَنِّي عَابِدٌ
وَرَأَيْتُ آيَاتِ الْجَمَالِ تَكْفَلْتُ
لِأَشْيَاءِ أَفْعَلُ فِي النَفُوسِ كَقَامَةِ
أَوْغَادَةِ كَانَتْ تُرِيكَ إِذَا بَدَتْ

وَجَرَى الْبُكَاءُ بِدَمْعِهَا الْهَطَالِ
يَحْنُو عَلَى أَمْثَالِهَا أَمْثَالِي
فِي هَيْكَلٍ يَرِنُو إِلَى تَمَثَالِ
بِزَوَاهِنٍ فَوَادِحُ الْأَثْقَالِ
هَبِيفَاءَ رَوَّعَهَا الْأَسَى بِهَزَالِ
شَمْسِ النَّهَارِ فَأَصْبَحَتْ كَالْآلِ^(٢)

* * *

قلت: انهضى قالت: أَيَنْهَضُ مُيَّتٌ
فَحَمَلْتُ هَيْكَلِ عَظْمِهَا وَكَأَنِّي

من قبره وَيَسِيرُ شُنُّ بِالِي^(٣)
حُمَلْتُ حِينَ حَمَلْتُ عُودًا خَلَالِ

(١) ذكبن، أي توقدن واشتملن.

(٢) الألق السراب.

(٣) الشن. القرية الخلق البالية.

بالليل (دار رعاية الأطفال)
باب الحياة ومؤذن بزوال^(١)
لها من الإشفاق والإعوال^(٢)

وظفقت أنتهب الخطا متيماً
أمشى وأحملُ بئسئين: فطارقُ
أبكيها وكأنما أنا ثالثُ

أحدًا ولا مترقّبًا لسؤال
أوطرق رب الدار غير مُبالي
دقات مرضى مُدلجين عجال
صنع الجميل تطوّعت في الحال
بعضًا لوجه الله لاللمال
كالأم تكلاً طفلهما وتوالى
فوق الوسائد في مكان على
بسريير ضيقتهم كبعض الآل
ورود مكن دائها القتال
دقات قلب أم ديبب بمال؟

وطرقت باب الدار لا مُتهيبا
طرق المسافر آب من أسفاره
وإذا بأصوات تصيح: ألافتحوا
وإذا بأيد طاهرات عودت
جاءت تُسابق في المبرة بعضها
فتناولت بالرفق ماأنا حاملُ
وإذا الطبيب مُشمرٌ وإذا بها
جاءوا بأنواع الدواء وطوفوا
وجنا الطبيب يحس نبضًا خافتًا
لم يدر حين دنا ليلو^(٣) قلبها

وخرجت مُشرحًا رضئ البال
للباقيات وصالح الأعمال
تلك المروءة والشعور العالى
تنبو بحاملها عن الإذلال
ماء الوجوه فذاك خير نوال
- وهو الحواد- يُعد في البُخال

ودعتها وتركتها في أهلها
وعجزت عن شكر الذين تجردوا
لم يُجملوها بالسؤال عن اسمها
خير الصنائع في الأنام صنيعه
وإذا النوال أتى ولم يهرق له
من جواد من بعد السؤال فإنه

جم الوجيعة سيء الأحوال

لله ذرهم فكم من بئس

(١) طارق باب الحياة: الجنين. ويريد بالمؤذن بالزوال، أمه.
(٢) الإعوال، اليكاه.
(٣) ييلو: أى يختبر.

ترمى به الدنيا فمن جوعٍ إلى
عينٍ مُسَهَّدَةٍ وقلْبٍ واجفٍ
لم يدر ناظره أعْرِيانا يَرَى
فكأنَّ نَاجِلَ جسمه في ثوبه
يا بَرْدُ فاحِجٍ قد ظَفِرَتْ بأعزلٍ
يا عَيْنُ سُحَى يا قلوبَ تَقَطَّرَى
لولا هُمُ لَقَضَى عليه شقاؤه
لولا هُمُ كان الردى وقفاً على

عُرَى إلى سُقْمٍ إلى إقلال
نَفْسٍ مُرَوَّعةً وجَيْبٍ خالى
أم كاسيًّا في تلكم الأسمال
خَلَفَ الخروق يُطِلُّ من غُرْبال
يا حَرُّ تلك فريسةُ المَغْتال
يا نَفْسُ رَقَى يا مروءةُ والى
وَحَلَا المجالُ لِحاطفِ الآجال
نفس الفقير ثقيلة الأحمال

لله دَرُّ الساهرين على الألى
القائمين بخير ما جاءت به
أهل البيت وكهفه وحماته
سهروا من الأوجاع والأوجال^(١)
مدنيّة الأديان والأجبال
وربيع أهل البؤس والإحمال^(٢)

لا تُهْمَلُوا في الصالحات فإنكم
إني أرى فقراءكم في حاجةٍ
فتسابقوا الخيرات فهي أمامكم
والمحسنون لهم على إحسانهم
وجزاء رب المحسنين يجلُّ عن
لا تجهلون عواقب الإهمال
- لا تعلمون - لقائل فعّال
ميدان سَبَقٍ للجواد النال^(٣)
يوم الإثابة عَشْرَةَ الأمثال
عَدُّ وعن وَزْنٍ وعن مكيال

وقال في سنة ١٩١١ يدعو إلى العطف على البؤساء:

دعوة البائس المعذب سُورٌ
وهي حرُّبٌ على البخيل وذى البَغْ
إن هذا الكريم قد صان عِرْضِي
يدفع الشَّرَّ عن حياض الكرامِ
سى وَسَيْفٌ على رقاب اللُّثامِ
وَحَمَانِي من عاديات السقامِ

(١) الأوجال. المخاوف.

(٢) الإحمال. الجذب.

(٣) الجواد. الكريم. والنال. الكثير النائل وهو العطاء.

بكسائٍ وبدريةٍ وطعام
س وقامواً في الله خير القيام
خير وردٍ يؤممه كلُّ ظامى
فهى للبيئات دارُ السلام

عال طفلى وعالى وحبانى
وهو من معشر أغاثوا ذوى البؤ
وأقاموا للبرِّ داراً فكانت
مُليّت رحمةً وفاضت حناناً

إلى أن قال في الإحسان والزكاة:

ت بفضل الزكاة والإنعام
فس منّا جلالُ ذاك المقام
إذ تجلى في ثغرها البسام
مر تبدي في شخص ذاك الهمام
فهى ركن الأركان في الإسلام
لحياة الشعوب خير قوام
يا وأهوى على اقتناء الحطام
لركوب الشرور والآثام
لايبالى بشريعةٍ أودمى
أخذاً قوته بحدّ الحسام

قد نجا المنعم الجواد من المؤ
فأطفنا بها وقد ملأ الأند
وشهدنا ثغر الوفاء تجلى
ورأينا شخص المروءة والبه
وعلمنا أن الزكاة سبيل الله
خصها الله في الكتاب بذكر
بدأت مبدأ اليقين وظلت
لوفى بالزكاة من جمع الدند
ماشكا الجوع معدم أو تصدى
راكباً رأسه طريداً شريداً
سائلا عن وصية الله فيه

ملجأ الحرية

ومن قصيدة له سنة ١٩١٩ في تحية ملجأ الحرية، وفيها يهيب بالأثرياء أن يبروا الأيتام
والفقراء، ويشير إلى يقظة الأمة سنة ١٩١٩ وما أحدثته الثورة في النفوس من التطلع إلى المثل
العليا.

قدّر الله لنا أن نُشرا^(١)
وأبى سبحانه أن تُقبرا
تبك عيناك إذا خطب عراً^(٢)

أيها الطفل لك البشرى فقد
قدّر الله حياة حرة
لا تخف جوعاً ولا عرياً ولا

(١) نشر: أى نحيا ونبعث.

(٢) عرا: ألم ونزل.

حيث تأوى خاطِرٌ لن يُكسراً
بين أترابك عيشاً أنضراً

لك عند البرِّ في مَلجئه
حيث تلقى فيه حَدْبًا وترى

تاب عن آثامه واستغفرا
- إن أتي عارِفَةً^(١) - أن يظهرها
وهو لا يرغبُ في أن يُشكراً
محنةٌ عمت ومقدارُ جرى
وأرادتنا على أن نُقهرها
بركوب الحزم حتى نَظفرا
فَعَدَدْنَا قُوَّةً لا تُزددى
كان قبل اليوم مُنْفَكَّ العرا
زاد عن أجفانه سرح الكرى
أن يشيدوا مجدها فوق النُذرا

لا تسيءَ ظننا بئرينا فقد
كان بالأمس وأقصى همّه
فعدا اليوم يُواسى شعبه
نبيّهت عاطفة البرِّ به
جمعتنا في صعيد واحدٍ
فتعاهدنا على دفع الأذى
وتواصينا بصبر بيننا
أنشرت^(٢) في مصر شعباً صالحاً
كم محبِّ هائمٍ في حبها
وشبابٍ وكهولٍ أقسموا

آن أن يُعملَ كُلُّ ما يرى
أو نقاباتٍ لزراع القُرى
وهو ذو مقدرةٍ أو قَصُرا
جئت للأيدي له مُستمطرا
أن كلَّ الصيِّد في جوف الفِرا
بات محروماً يتيها معسرا؟
ربما أطلعتَ بدرًا نيرا
يُحكِّمُ القول ويرقى المنبرا
من حمى الدُّين وزان (الأزهرا)
مثل (شوقى) ناهياً بين الورى
يدخل الغيل على أسد الشرى^(٣)

يارجال الجدُّ هذا وقته
ملجأً أو مصرفاً أو مصنعا
أنا لا أعذر منكم من وني
فابدءوا بالملجأ الحرِّ الذى
واكفلوا الأيتام فيه واعلموا
أيها المثرى! ألا تكفُل من
أنت ما يُدريك لو أنيته
ربما أطلعت (سعداً) آخرًا
ربما أطلعت منه (عبدّه)
ربما أطلعت منه شاعرًا
ربما أطلعت منه فارسًا

(١) العارفة: العطية والمعروف.

(٢) أنشرت، أى أحييت.

(٣) الغيل: الشجر الكثير اللثف تأوى إليه الأسود، والشرى: مأسدة جانب الفرات يضرب بأساها المثل.

كم طوى البؤس نفوساً لورعت
كم قضى العدم على موهبة
منبتاً خصباً لكانت جوهراً
فتواتر تحت أطباق الثرى

كلُّ من أحيَا يتيماً ضائعاً
إنما تحمّد عُقبَى أمره
حَسبه من ربِّه أن يؤجرا
مَن لأخراه بدُنياهُ اشترى

جمعية إعانة العميان

وقال في سنة ١٩١٦ في احتفال أقامته جمعية إعانة العميان:

إن حق الضَّير عند ذوى الأب
لم يضره فقدانه نُور عينيه
أنسوا نفسه إذا أظلم العي
وجَّهوه إلى الفلاح يُفدكم
أكملوا نَقْصه يكن عبقرياً
كم رأينا من أكمه لا يجارى
لم تقف آفة العيون حجازاً
عديم الحسِّ قائداً فحداه
مثل هذا إذا تعلم أغنى
ذاك أن الذكاء والحفظ حلاً
فعلى كل أكمةٍ وبصير
صار حقُّ مستوجب التَّقديس
ه إذا اعتاض عنها بأنيس
ش يعلم فالعلم أنس النفوس
فوق ما يستفيدة من دروس
مثل (طه) مُبرِّزاً في الطُّروس
وضريرٍ يرجى ليوم عبوس
بين وثباته وبين الشمسوس
هدى وجدانه إلى المحسوس
عن كثير وجاءنا بالنفيس
في جوار النهى بتلك الرؤوس
شكر أعضائكم وشكر الرئيس

المال والعلم والأخلاق

قال سنة ١٩٢١ باسم مصر، قصيدته - مصر تتحدث عن نفسها -:

وارفعوا دولتي على العلم والأخلا
ق فالعلم وحده ليس يجدى

وقال سنة ١٩١٠ من قصيدة له (ص ١٢٦) في الحث على إعانة مدرسة للبنات ببورسعيد:

كم ذا يكابدُ عاشقٌ ويلاقى
إني لأجملُ في هَواك صَبَابَةً
في حُبِّ مَصْرٍ كثيرة العُشاق
يامِصْرُ قد خَرَجَتْ عن الأطواق

لَهْفَى عَلَيْكَ مَتَى أَرَاكَ طَلِيقَةً
 كَلِيفٌ بِمَحْمُودِ الْخِلَالِ مُتَيِّمٌ
 إِنِّي لَتَطْرُبُنِي الْخِلَالُ كَرِيمَةً
 وَتَهَزُّنِي ذِكْرَى الْمَرْوَةِ وَالنَّدَى
 يَحْمِي كَرِيمَ حِمَاكَ شَعْبٌ رَاقِي
 بِالْبَذْلِ بَيْنَ يَدَيْكَ وَالْإِنْفَاقِ
 طَرَبَ الْغَرِيبِ بِأَوْبَةٍ وَتَلَافِي
 بَيْنَ الشَّمَائِلِ هِرْزَةَ الْمُشْتَاقِ

* * *

فَإِذَا رَزَقْتَ خَلِيقَةً مَحْمُودَةً
 فَالِنَاسِ هَذَا حَظُّهُ مَالٌ وَذَا
 وَالمَالِ إِنْ لَمْ تَدْخِرْهُ مُحْصَنًا
 وَالعِلْمِ إِنْ لَمْ تَكْتَسِفْهُ شَمَائِلُ
 فَالْمُتَحَسِّنُ العِلْمَ يَنْفَعُ وَحَدُّهُ
 فَقد اصْطَفَاكَ مُقْسِمُ الأَرْزَاقِ
 عِلْمٌ وَذَاكَ مَكَارِمُ الأَخْلَاقِ
 بِالعِلْمِ كَانِ نِهَآيَةَ الإِمْلَاقِ^(١)
 تُعْلِيهِ كَانِ مَطِيَّةَ الإِخْفَاقِ
 مَا لَمْ يُتَوَجَّ رَبُّهُ بِخِلَاقِ^(٢)

فضل المرأة على المجتمع

وقال في هذه القصيدة ينوه بفضل المرأة في المجتمع:

من لى بتربية النساء؟ فإنها
 الأم مدرسة إذا أعدتها
 الأم روض إن تعهده الحيا^(٤)
 الأم أستاذة الأساتذة الألى
 فى الشُّرْقِ. عِلَّةُ ذَلِكَ الإِخْفَاقِ
 أَعْدَدَتْ شَعْبًا طَيْبَ الأَعْرَاقِ^(٣)
 بِالرَّيِّ أَوْرَقَ أَيْمًا إِيرَاقِ
 شَغَلَتْ مَأْتَرَهُمْ مَدَى الأَفَاقِ

* * *

أنا لأقول دعوا النساء سوافراً
 يدرجن حيث أردن لا من وازع
 يفعلن أفعال الرجال لوأهيا
 فى دورهن شئونهن كثيرة
 بين الرجال يجئن فى الأسواق
 يحذرن رقبتنه ولا من وافى
 عن واجبات نواعس الأحداق
 كشئون رب السيف المزراق^(٥)

(١) الإملاق: الفقر.

(٢) أخلاق: النصب من الخير والصلاح.

(٣) الأعراق: الأصول، الواحد عرق.

(٤) الحيا: المطر.

(٥) المزراق: الرمح.

كَلًّا وَلَا أَدْعُوكُمْ أَنْ تُسْرِفُوا
 لَيْسَتْ نَسَاؤُكُمْ حَلِيًّا وَجَوَاهِرًا
 لَيْسَتْ نَسَاؤُكُمْ أَثَاثًا يُقْتَنَى
 تَتَشَكَّلُ الْأَزْمَانُ فِي أَدْوَارِهَا
 فَتَوَسَّطُوا فِي الْحَالَتَيْنِ وَأَنْصَفُوا
 رَبُّوا الْبَنَاتِ عَلَى الْفَضِيلَةِ إِنَّهَا
 وَعَلَيْكُمْ أَنْ تَسْتَبِينَ بِنَاتِكُمْ
 فِي الْحَجَبِ وَالتَّضْيِيقِ وَالإِزْهَاقِ
 خَوْفِ الضِّيَاقِ تَصَانُ فِي الْأَحْقَاقِ
 فِي الدُّورِ بَيْنَ مَخَادِعِ وَطَبَاقِ
 دَوْلًا وَهِنَّ عَلَى الْجُمُودِ بِوَأَقِي
 فَالْشَّرُّ فِي التَّقْيِيدِ وَالإِطْلَاقِ
 فِي المَوْقِفِينَ لَهُنَّ خَيْرٌ وَثَاقِ
 نُورِ الهُدَى وَعَلَى الْحَيَاءِ الْبَاقِي

المناصب والفضائل

من قوله في رثائه لمحمود سامي البارودي:

إِنَّ الْمَنَاصِبَ فِي عِزْلِ وَتَوَلِيَّةِ غَيْرِ الْمَوَاهِبِ فِي ذِكْرِ وَتَخْلِيدِ

ومات حافظ سنة ١٩٣٢ بعد أن خلف لمصر والشرق ذخيرة من الوطنية وكنوزا من الشعر والحكمة والأخلاق لا تفتنى ولا تنفد على مر الزمان.

خليل مطران

شاعر الحرية

١٨٧٢ - ١٩٤٩



شاعر الحرية والعروبة، حمل لواء التجديد في الشعر،
نيفا ونصف قرن من الزمان، وبلغ الذروة في عالم الشعر
والفن والبلاغة والخيال.

ولد سنة ١٨٧٢ في بعلبك إحدى المدن الشهيرة بלבنا،
ونشأ نزاعاً إلى الحرية سمح النفس، كريم الخلق، صفي
السريرة، محباً للخير، وديعاً في شمم وإباء، معتزاً بكرامته،
عيوقاً عن الصغائر.

ضاق صدرًا منذ صباه بجوٍ يضغظ على حرية الرأي
والفكر، فارتحل إلى باريس يتم فيها دراسته وعلومه،
وهناك ارتوى من مناهل الآداب الغربية، وإذ كانت
شاعريته وليدة فطرته وسليقته، فقد اتجهت نفسه بتأثير الأدب الفرنسي إلى التجديد في شعره،
فجمع بين البلاغة العربية والأساليب والمعاني الأوروبية.

ثم هاجر إلى مصر، واتخذها موطنه الثاني، بل موطنه المختار.
أخلص لها، وغرّد في أكنافها، وتعشق نيلها وأرضها وساءها، وهو ثالث الثلاثة الذين عاشوا
معا وانتهت إليهم زعامة الشعر في العصر الحديث: شوقي وحافظ ومطران.
ألهمه حب الحرية نظم القصائد الرائعة في تمجيدها والذود عنها، والجهاد في سبيلها، فكان من
أعلامها الخالدين.

كان إنساناً في شخصه وفي أخلاقه وفي شعره وأدبه.
كان في شعره ينشد الكمال، ويخلق في أجواء الحرية والوطنية.
كان يستلهم شعره من المثل العليا، وفي ذلك يقول عن نفسه في الاحتفال بيوبيله الذهبي
سنة ١٩٤٨.

كان في الشعر لى مرأى خطير
هائم في الوجود أسأله الوح
أكبرونى ولست أكبر نفسى
لا يَضُقُّ صدرُ شاعرٍ بأخيه
والسماوات لو تأملتَ فيها
كل جرم يعلو ويصبح نجماً
والنجوم التى تلوح وتُخْفَى

فَعَدَا طَوْقِي المَرَامُ الخطيرُ
سى كما يسأل الغنىَّ الفقيرُ
أنا في الفن مستفيد صغير
يكره الفضلُ أن تضيق الصدور
ليس تُحْصَى شموُسُها والبدورُ
فله حَيَزٌ وفيه يدور
رَبَوَاتٌ وما يضيّق الأثير

وبهذه الروح العالية، والنفس الصافية، والود الخالص، والإيثار والأرحية، عاش محبوباً من معاصريه: يحبهم ويحبونه، وينسب لهم الخير والكمال.

وقد أرخ في شعره الوطنى العذب مراحل النهضة المصرية والشرقية، وسجل حوادثها ووقائعها، وترجم لرجالها وأشخاصها، وغذى بقصائده الروح الوطنية جيلاً بعد جيل.

يمتاز شعره بسعة الخيال وجمال التصوير وبلاغة التعبير، هذا إلى اقتباسه من آداب اللغة الفرنسية التى درسها وتمكن منها تمكّنه من آداب اللغ العربية، فجمع بين الثقافة العربية والثقافة الأوروبية، وهو زعيم مدرسة التجديد فى الشعر العربى، وسار على نهجه تلاميذه ومريده.

وقد عبر أبلغ تعبير وأرقه عن منهج التجديد فى شعره، بقوله فى مقدمة الطبعة الثانية لديوانه سنة ١٩٤٨ قال:

«هذا شعرى، وفيه كل شعورى، هو شعر الحياة والحقيقة والخيال، نظمته فى مختلف الآونة التى تخلّيت فيها عن العمل لرزقى، نظمته مصبِحاً وممسياً، منفرداً ومتحدثاً مع عشرائى، وقيدت فيه زفراقى وأحلامى، وسجلت بقوافيه أحداث زمانى وبيئتى فى دقة واستيفاء.

«أتابع السابقين فى الاحتفاظ بأصول اللغة، وعدمى لتفريط فيها، واستيحاء الفطرة الصحيحة، وأتوسع فى مذاهب البيان مجازاة لما اقتضاه العصر، كما فعل العرب من قبلى، أما الأمانة الكبرى التى كانت تجيش بى، فهى أن أدخل كل جديد فى شعرنا العربى بحيث لا ينكره، وأن أستطيع إقناع الجامدين بأن لغتنا أم اللغات إذا حفظت وخدمت حق خدمتها، ففيها ضروب الكفاية لتجارى كل لغة قديمة وحديثة فى التعبير عن الدقائق والجلائل من أغراض الفنون، وإنى لأرجو أن يرى المطلعون على هذا الجزء الثانى وما يليه من أجزاء (ديوان الخليل) مصداقاً لدعواى.»

وقال عنه صنوه وصديقه حافظ يشيد بنزعته في التجديد:

«هو في طليعة أولئك الذين خرجوا من أفق التقليد وصدعوا قيود التقييد، وأوسعوا صدر الشعر العربي للخيال الأعجمي، وأفسحوا فيه للقصص وتصوير الحوادث، وطوّفوا بسرد وقائع التاريخ، ففتح بذلك فتحة جديداً شنت فيه الغارة على أهل الحفاظ والتمسيك».

وكان من أركان المسرح العربي بما كتب لهذا المسرح وعرب، فقد ترجم ليالى الفريد دى موسيه، ورواية هرناني لفكتور هيجو، كما ترجم لكورنيل مسرحيات (السيد) وسينا وبوليكت، وترجم روايات شكسبير: هاملت، ومكبث، وعطيل، وتاجر البندقية.

النهضة العربية

قال سنة ١٩٠٨ يحيى نهضة الشعوب العربية:

داع إلى العهد الجديد دعاكِ	فاستأنفى في الخافقين علاكِ
يا أمة العرب التي هي أمنا	أى الفخار نَمِيَّته ونماك؟
يَمضى الزمان وتنقضى أحداثه	وهواك منّا في القلوب هواك
إنّا نقاضى الدهر في أحسابنا	بالرأى لا بالصّارم الفَتّاك
وملاك شيمتنا الوفا فإنّه	لسعادة الأقبام خير مِلاك
آمالنا آلامنا أرواحنا	أشباحنا يوم الفداء فداك
بالعلم نُنشّرُ ما نطوى من مجدنا	وبه نركى في الورى ذكراك

مطران ومصطفى كامل

كان بينه وبين الزعيم مصطفى كامل صداقة وود داما طول العمر، كان مؤيدا لدعوته نصيرًا لرسالته، دافع عنها في حياة مصطفى، وظل وفيها لها بعد وفاته، ويبدو مبلغ إعجاب به وتقديره لعبقريته في قصيدته التي أنشدها سنة ١٩٠٨ في حفلة الأربعين لوفاته، وقد نشرها في ديوانه وصدرها في طبعته الأولى بهذه الكلمة التي تعد في ذاتها قصيدة من النثر المنظوم، قال: «مصاب الشوق في رجله المفرد، وبطله الأوحده، مصطفى باشا كامل، أيتها الروح العزيزة! إن في هذا الديوان الذى اختتمه برثائك، نفحات من نفحاتك، ودعوات من دعائك، فى هيكلك المدفون بالتكريم تحية الأنخ المخلص للأخ الحميم، ووداع المجاهد المتطوع للقائد العظيم».

وجعل عنوان القصيدة (حق الوطن وحق الإخاء) قال:

فانعم بطيب جواره يا (مصطفى)
خيرًا، وكلُّ واجدٌ ما أسلفا
ومن الأسي الماضي بمقتبل الصفا

أعلى مكاتك الإله وشرفا
اليوم فزت بأجر ما أسلفته
وجزيت من فاني الوجود بخالد

بك واصفاً ذلك الجلال فيوصفا
حافين حولك في السيرير وعكفا
سرباً يجوز بك الدراري موجفا
والأرض مائدةً عليك تأسفا
يذرو الرجال به المدامع ذرفا
بهم الرحيب من المسالك مصرفا
ساروا بطيف ناحل أو أنحفا
فلك يظلل اللواء مرفوفا
آثاره من رفعة لا تقتفى

أعظم بيومك في الزمان ومن له
حيث الوفود من الملائك أقبلوا
وتحملوك على الأشعة وارتقوا
فوردت وردك في الخلود منعما
لم تُلَف قبلك أمة في مشهد
يمشون من حول الجنازة ضائقا
متثاقلين من الوقار وإنما
بحر من الأحياء نعشك فوقه
يبكون في آثاره العلم الذي

مُلقي على الأبصار سترًا أغدفا
خطبُ الآن برُوعه صم الصفا
من دمعه إن خانهم متكفكفا
بعد الفقيدي فتى بهم فتوقفوا
هو خير من والي وأوفى من وفي
ليزيل ذلك العارض المتكشفا
لما مضيت ولست فيهم تخلفا

سعت الخوايد حاسرات والأسى
ولئن سفرن ولم يخلن فإنه
فزع الشباب إلى الشيوخ بشأهم
ومن الغضاضة أن دعا داعي العلا
جزع النصارى واليهود لمسلم
بگوا المرجى في خلاف عارض
واشتر رزة المسلمين وحرزهم

يُعلى لهم صوتًا وينشر مصحفًا؟
ويرد نقد الناقدين مزيفًا؟
ويزيل ما يلد التناكر من جفا

من بعد كاتبهم وبعد خطيبهم
من يبرىء الإسلام من تهم العدى
يبدى لأعين جاهليه فضله

همماً تعيد له المقام الأشرفا
 سُمرًا تهزُّ لكل خطبٍ معطفًا
 ليذودَ عنه خصمه المتعسفا
 فلقد تجاوزت الهدى متفلسفا
 أيكون منقصةً لها أن تُكسفا؟
 يثنى أشعتها إلى أن يُكشفا
 للعالمين ورادعًا ومثقفًا
 أن قصر الأقوامُ عنه فأخلفا
 أن خالفوه فما استحال ولا انتفى
 نلنا به هذا الرقيُّ مُسلفًا
 ومُنَى السماحةِ عودهُ مستأنفا
 والشرُّ كل الشرُّ أن يتخلفا
 بين العناصرِ أويهنَّ ويضعفا
 سَقَمٌ ولم يُتَلَفَ عَمٌّ وأتلفا
 بسلامة الإسلام وهي لها نينفا
 أرضت خبيرًا بالحياة ومنصفا
 حقُّ الإبانة هل تبالى مرجفا؟
 حتى أنارَ الكونَ منها مُشرفا

ويشير من غضب الغضاب لمجديه
 لكنَّ من أقلام جنديك حوله
 ولعل حُرًّا لا يدين به انبرى
 قِفْ أيها الناعى عليه جموده
 إن يعتر الشمس الكسوفُ هنيهةً
 وهل الكسوف سوى تعرض حائل
 لم تنزل الأديان إلا هاديا
 بشعارٍ حيٍّ على الفلاح وما بها
 وبكل أمرٍ موجبٍ لإصلاحهم
 قد كان للإسلام عهدٌ باهرٌ
 ملأ البلاد إنارةً وحضارةً
 فالخيرُ كلُّ الخير فيه مقبلًا
 يدعو البقاء إلى التكافؤ بالقوى
 والخلق جسمٌ إن ألمَّ ببعضه
 بشرى البرية بعد مُزْمِنِ دائها
 إن أغضبت تلك السلامة جائرًا
 يا من نهضت بنصره وأبنته
 مازلت في مصر تقيم مناره

* * *

وأرى ترابك من حنينٍ قد هفا
 وكأننى بك مُوشِكُ أن تهتفا
 بأعز منك ولم تعزِّ بأحصفا
 في الحالتين ملاينًا ومعنفًا
 بصبيب دمك جارياً مستنزفا
 متصدراً لرماتها مستهدفا
 ومُنَى لتكفيها المُغير المجحفًا

مصر العزيزة قد ذكرت لك اسمها
 وكأننى بالقبر أصبح منبرًا
 مصرُ التي لم تحظ من نجباتها
 مصرُ التي لم تبغ إلا نفعها
 مصرُ التي غسلت يداك جراحها
 مصرُ التي كافحت لددِ عذاتها
 مصرُ التي سُقت الجيوش مناقبا

بلغ الفداء نزاهةً وتعففنا
من شملها ما لم يكن ليؤلفنا
لو لم يضافرُها رداك فيسعفنا
شعبٌ يعزُّ بنفسه مستنصفا

مصرُ التي أحببتها الحبُّ الذي
حتى مضيت كما ابتغيت مؤلفنا
أمنية أعيت خلالك دونها
وهي التي لو قُسمت لَنما بها

* * *

بالحق لا شكسًا ولا متصلفا
يعيى الحكيم مدبرًا ومصرفًا
فيه مهيب الطبع والمستظرفًا
يُجدي البلادَ فتبتغيه مُلحفًا
تهوى ومعطاءً لغيرك مُسرفًا
بما تقولُ ولا تعاهدُ مُخلفًا

من كان أجراً منك يوم كريمة
من كان أقدراً منك تصريفًا لما
من كان أظهر منك خُلُقًا جامعا
من كان أزهدي منك إلا في الذي
من كان أسمع منك مناعًا لما
من كان أصدق منك لا متصلاً

* * *

على اللواء حمى المروءة والوفا
أغدت معالمهن قاعًا صفصفا
ورجائه كذب النعنى وأرجفا
ملء الوجودُ به ويصبح قد عفا
بك في جهادك أو أشد وأشعفا
عن مصر تضربُ في البلاد مطوفا
بضو الطريق وتدفع المتخلفا
همًا وتوشك أن تطم فتجرفنا
ويكساد يعزفُ كلُّ حرف معزفا
فهو النسيم وقد ذكا وتلطفنا
نقش المداد رسومها وتخففنا
وتعاف تحلية لئلا تكشفنا
تلك النفوس مروعا ومشفنا
ذكرى وعرفنا الحياة لنعرفنا

لهفى على فخر الصبي هادى النهى
يا من نعى تلك الفضائل والعلى
لألا وحقك يا شهيد وفائه
ما أنت بالرجل الذى يمسى وقد
إنى أراك ولا تزال كعهدنا
ثابر على تلك العزائم ذائدا
أصدر صحائفك التى تحيى بها
تجرى بها الأنهار وهى دوافق
وتكاد أسطرها تهب نواطقا
فإذا حنوت على الحمى متحببا
وكأنما الألفاظ ما خففت
تستام من أثوابها أرواحها
قم للخطابة فى الجامع واملك
أعد القديم من الممالك والقرى

حتى نبيتَ ولا نرى متخوفا
 شرراً وتهوى الشهبُ فيها أحرفا
 ما ذلك التفويفُ ليس مفوفا
 هبطت رواسبَ عنه والمغزى طفا
 متماهلاً الإشراق أو متخطفاً
 وقفَ القضاء من المنصّة موقفا
 وكأمره أمرُ الزمان مصرفاً

شدّد عزائمنا وقاتل ضعفنا
 ما هذه الآيات يرمى لفظها
 ما ذلك الترصيعُ ليس مرصعاً
 وحيّ بأهجيةٍ إذ ما أطلقت
 تُحيى حرارتها ويهدى نورها
 تالله ما أنت الخطيبُ وإنما
 عن نطقه تقع الصروف موعظاً

* * *

لكنه حُلمٌ مضى مستطرفاً
 متلهبين تشوقاً وتشوفا
 وبأى ألفاظ المحامد يُكتفى
 فيك الرثاء منسّقاً ومصنفاً
 صوغُ الكلام مرصعاً ومزخرفاً

يا حبذا لو كلُّ ذلك لم يزل
 والآن نحن لدى ثراك نحجّه
 نثنى وهل يوفى ثناؤك حقّه
 ماذا يُعيضك من شبابك نظمنا
 ويُعيض منك وكنت جوهرة الحمى

* * *

كبكاء مصر تحرقاً وتلهفا
 كشف الجوى عنه الحجاب فأشرفا
 وكسته ناسجةً الطهارة مُطرفاً
 حققت آمال الهدى متطرفاً
لامفتري فيه ولا متكلّفا
 ويجلُّ في مجراه عن أن يصدفا
 مصر الفتاة جى يعز ومألفا
 للصلحات وبالعظام أكلفا
 وكفاهم من قدرهم أن يعرفا
 فهم مرأىك ساء دهرٌ أو صفا
 علماً وأمنه النهى أن ينسفا

يا أخلص الخلاء أبكى بعدّه
 هذا مثالك لاح يرعانا وقد
 جاد الهلال برسمه تاجاً له
 يا من رماه عُدائته بتطرف
كهواك للأوطان فليكن الهوى
 يجرى على قدر المطالب تامياً
 أنشأت من مصر الشتاتِ بفضله
 أحدثت فيها أمةً أندى يداً
 عرفت أهلها حقيقةً قدرهم
 نفحات روحك خامرت أرواحهم
 حصن أشمّ تساندت أجزاؤه

فارقُ رقادك إن ربك قد محا بك ذنب مصر كما رجوت وقد عفا

وله في سنة ١٩٣٣ قصيدة عصماء ألقاها لمناسبة مرور عام على وفاة حافظ إبراهيم، ضمنها وصفاً رائعاً للنهضة القومية التي كونت حافظاً، وجعلته الشاعر المطبوع المترجم عن آمالها وآلامها، وكيف أن هذه النهضة هي غرس مصطفى كامل، وكيف تعهدوا بجهاده إلى أن مات، وبموته كانت الآية التي تم بها استقرارها، قال فيها:

طرأت حالةٌ تيقظُ فيها
فإذا (حافظ) وقد بثَّ ما في
وبدا للمنى الجلائلِ فيها
ما تجلَّى نبوغُه كتجليه
يوم نادى الفتى العظيم فلبى
وورى^(٣) ذلك الشعور الذي كا
فتأني بعد القنوط الدُّجوج
مس منه السوادُ فانجست نا
أكبر الدهرُ وثبةً وثبتها
وثغاء^(٥) غدا هزيماً^(٦) فألقى
ما الذي أخرج الشجاعة من حيد
وجلا غرة الصلاح فلاح
فإذا أمةً أبيةً ضيم
نهضت فجأة تنافح في آ
أجنبيًّا ألقى المراسى حتى
وهواناً كأنما طبع الشعب
حلبة يُعذرُ المقصر فيها
ليس تغييرٌ ما يقوم يسيراً
غير أن الإيمان كان حليفاً

(٤) المظلم.

(٥) الثغاء: صوت الشاة والمعز.

(٦) الهزيم: صوت الرعد.

(١) يريد الجمهور.

(٢) نبا: جأى وتباعد.

(٣) ورى الزند: خرجت ناره.

فاستعانوا به على ما ابتغوه
إلى أن قال:

بعد وثبٍ في إثر وثبٍ عنيف
ساور الأمة الترددُ والتا
لا تسل يومذاك عن جلد القا
كلما ازدادت الصعاب أبوا إ
يبدلون القوى وفوق القوى غير
و (الزعيمُ الأبرُّ) أطيبيهم نفس
هل ينجى شعباً من اليأس إلا
مصطفى مصطفى بحسبك إن يذ
مصطفى مصطفى ليهنك أن أح
دب فيهم روحٌ جديد له ما
تنقضى الحادثات بعدك والرؤ
كادَ يومٌ شيعت فيه يريمهم
صدروا عنه بالتعارف فيما
واستشفوا لبأسهم فيه سرا
هذه مصر الفتية هبت
رجل مات مُخْلِفاً منه جيلاً
عهد نور من الحفاظ ونار
تخذت عبقرية الشعر فيه
أبلغت (حافظاً) من الحظ أوجاً

وارتدادٍ في الشوط غيب ارتداد
ث^(١) عليها في السير وجهُ الرشاد
دة في مُلتقى الخطوب الشداد
لأ كفاحا وعزمهم في ازدياد
مبالين أنها لنفاد
عن النفس صراع العوادي
حَدَث من خوارق المعتاد
كُر فداءً أن كنت أول فاد
سيت قومًا بذاك الاستشهاد
بعده في القلوب والأخلاق^(٢)
ح مقيمٌ فيهم على الأباد
لمحةً من جلال يوم المعاد
بينهم وهو قوة الأعداد
كم تحامى أن يدركوه الأعداى
في صفوفٍ فتيةٍ للذيات
رابط الجأش غير سهل المقاد
بعد طول الخمود والإخماد
سلياً للعروج والإصعاد
زاد منه العلياء كل مراد

إزاحة الستار عن تمثال مصطفى كامل

وله في سنة ١٩٤٠ قصيدة عن مصطفى كامل نظمها لمناسبة إزاحة الستار عن تمثاله بع
ظل حبيسا في «مدرسة مصطفى كامل» من سنة ١٩١٤. قال:

(١) التات عليه الأمر: اختلط والتبس.

(٢) الأخلاق: العقول.

ماذا خشوا من فتنة التمثال؟
فاضت أسي ودموعهن غوال
وجلاء من أوفى بنيتها جال
وتذاد عنهم يوم الاستقلال؟
في بدئها ولكل بدء تال
فيها ادعى صلفا وجدك عال
تلقاك بالإكرام والإجلال
من غر فتانٍ وصيد رجال
في هذه الآساد والأشبال
وسواك يحسبه رجاء محال
سرف لمطلوب بعيد نوال

أمنوا بموتك صولة الرئبال
حسوه عن مقل إليه مشوقة
حتى أردت مصر غير مرادهم
أتهيب استقلال قومك جاهداً
أنصفت بعض الشيء بل هي توبة
فلقد تثوب وجد غيرك عائر
يا حسن عودك والكنانة حرة
أيروعك الحشد الذي بك يجتفى
ماذا بثت من الحياة جديدة
بعث لموطنك العزيز رجوته
خاطرت فيه بالشباب وبذله

* * *

شوقى إليك فهن جد طوال
زالوا ولم يشأ القضاء زوالى
فأحق حى بالأسى أمثالى
وجب الرثاء فإنما يرثى لى
وشخصهم ملء الزمان حىالى
وإلى يمينى تارة وشمالى
في كل حادثة ولست بآل
يقضى الحمى من حقهم ويوالى
متجددا بتعاقب الأحوال
يغدو الفراق بها شبيهه وصال
لا ينقضى بتحول الأحوال

أى مصطفى ا ولت سنون وما اشطفى
عجب بقائى بعد أكرم رفقة
هم صفوة الدنيا وكانوا صفوها
حزن بعيد الغور فى قلبى فلين
ماذا أقول وهذه أسماؤهم
تعتادنى فى مسمعى أو ناظرى
إنى لأحفظ عهدهم وأصونه
وكان حسى حسهم فرحا بما
كم فى مغارسهم جنى ألفيته
سلوى أتاحتها مآثرهم وقد
وكذاك مجد العبقريّة والفدى

* * *

لو كان يتصف امرؤ بكمال
غير المكاره فيه والأهوال
عانيت فى الغدوات والآصال
من جهد أيام وسهد ليالى

أى مصطفى ما كنت إلا كاملا
ماذا لقيت من الصبى ونعيمه
إنى شهدت شهادة العينين ما
متطوعا تسخو بما يفنى القوى

إذ قمت بالأمر الجسام ولم يكن
 حال التورع دون إغراء المني
 والقوم في ظمأ ووعدك مطمع
 تسعى ويعترض السبيل قنوطهم
 فتظل تضرب في جوانبه وما
 لك دون ما تبغى مضاء مصمم
 حتى إذا وضح اليقين وصدقت
 فتويت أظهر ما تكون على عدى

* * *

هزت منيتك البلاد ولم تكن
 فالقوم من جزع عليك كأنهم
 كشف الأسى لهم الحجاب فأيقنوا
 وتبينوا أن الخنوع مهانة
 لله حسن بلائهم لما أبوا
 وتوثبوا بعزيمة مصدوقة
 يردون حوضا والمنيا دونه
 حتى أتيح الفتح يجلو حسنه
 فتح بدا اسمك وهو في عنوانه
 إليها شديد الحب للبلد الذي
 أبهج بأوبتك السنية طالعا
 للذكر آفاق سحيقات المدى
 فإذا دنت منا فتلك عوالم
 تطوى من الأدهار مالا ينقضى
 أنوار وجهك طالعتنا اليوم من
 قد أثبتتها مصر بين عيونها
 نعم الثواب لذى مآثر في الفدى

* * *

فتيان مصر وعهدا غير الذي عانتة في الأصفاد والأغلال

حيوا مديل حياتها من يأسها
حيوا زعيم اليقظة الأولى بها
هذى مواكبها وتلك وفودها
حفلت برمز نهوضها ومثاله
لكنها مهج بنته ولم تكن
وكفاه فخرا أن ذاك المال لم
رسم يلوح وفيه معنى أصله
لان الحديد له فصاغ لعينه
كم فى بليغ سكوته من عبرة
هو خالد ويظل مدره قومه
ومذلل الآلام لآمال
وخطيب تورتها فى الاستهلال
فى ملتقى ذى روعة وجمال
مالا تدانى صنعة المثال
إلا ذرائعها فضول المال
يك مكس جاب أو تطول وال
فيروع بين حقيقة وخيال
أثراً على الأيام ليس يبال
أوفى وأكفى من فصيح مقال
فى كل نازلة وكل نضال

تحيته للمجاهدين فى المؤتمر الوطنى ببروكسل سنة ١٩١٠

ونظم فى سنة ١٩١٠ قصيدة ناجى فيها الوطنيين الأحرار الذين اغتربوا عن مصر لحضور المؤتمر الوطنى الذى عقد برأسه المرحوم محمد فريد بمدينة بروكسل فى سبتمبر سنة ١٩١٠. قال:

أتراه فوق مناكب الأدهار
حقبٌ دَجَّتْ منها السُّفوح ولم يزل
يا مغرب الماضى أما من آية
هذا صباحٌ مقبل من غيبه
تجد العيون على نواصى أفقه
سَحَر الرجاء بدا لكم وإزاءه
شقان من حلى أغرّ تصوغه
شفقٌ تخلَّفَ عن بديع نهار^(١)
فوق الذرى منها بريق نضار^(٢)
فتعود فى سَحَر من الأسحار؟
فتبينوه يا أولى الأبصار
ضواءً تألَّق من وراء ستار
شفق البقية من علّاء وفخار^(٣)
تاجاً لمصر أنامل المقدار^(٤)

(١) يشير إلى ذكرى المجد القديم وأنها ناقية على الدهر ويعبر عنها بالشفق، أى النور المتخلف عن الشمس بعد غروبها.
(٢) الحقب السنون. ودجا أظلم. الذرى؛ جمع ذروة، أعلى الشيء. والنضار الذهب. أى أن عهود التأخر قد تركت ظلاماً نجيباً على البلاد. ومع ذلك لا يزال فوق الذرى نور الشمس التى غربت.
(٣) أى يتجلى فجر الأمل وأمانه الذكرى الساطعة للمجد القديم.
(٤) الحلى وجمعه حلى ما يصنع من مصوغ المعادن، أو الحجارة الكريمة والمقدار هو القدر، يريد أن يجد الماضى والمجد المأمول للمستقبل يتقابلان كشقى تاج لمصر.

تأجّ ستلبسه الفتاة مخلّفاً عن أمها في سالف الأعصار
ويكون من آياته وشُعاة آيات مجد رجالها الأخيار

* * *

نجباء مصر الواترين لعزها وحولها من ذلة وصغار^(١)
خوضوا غمار الضيم دون رجائكم لا فوز إلاّ بعد خوض غمار
ما شاء سعدُ الدار أن تشقوا له فاشقوا له ما شاء سعد الدار
إن شقّ ترحالُ فهذى هجرة لا سُقة^(٢) في مثلها فبدار
سيروا تتموا في الحياة فطالما كان التقاعس مؤذنا بيوار
ما اللجّ وادّع أو تشاكس حارناً إلا ذلول الراكب الكرار^(٣)
ما البرّ أنجد أو أغار بجائب إلا سليب خطى ونهب قطار^(٤)

* * *

ركبَ النجاة استطلعوا لبلادكم في الغرب كل مطالع الأنوار
هزوا منابره بعالي صوتكم حتى يرنّ صده في الأقطار
أنتم جنود السلم رُسل جهاده أنتم أشعة مصر في الأمصار
أنتم أشعة حزمها شفافة عن حزنها والنور بثّ النار
ترجون أن تحيوا وتحيا مصركم حق الحياة وما بها من عار
لا تسأمون تغربا في مبتغى أسمى الهنات وأشرف الأوطار

* * *

الحكم شورى لا تفرّد صالح في غير حكم الواحد القهار
لا تسترق عسيرة وديارها لعشيرة غلابة وديار

(١) غاظب ركب المؤقر وأعضاه. ويصفهم بأنهم ذاهبون ليثأروا لمصر مما أصابها من ذلة وضم.

(٢) الشقة: السفر البعيد.

(٣) لحج البحر أمواجه. أى ليس البحر إن سهل أو صعب إلا كالركوبة الذلول للفارس الذى يروضها.

(٤) الجانب المسافر.

العدل إن يُقصد فليس بكائن
الرأى تكمد شمسُه في موطنِ
الخير تُفقد سُبُلُه في مجمع

في نُكر معرفة وغصب جوار
متناقض الإعلان والإسرار
متعارض الإقبال والإدبارِ

ماذا عليكم أن تكون شعاركم
لستم بسفاكي دم، لستم إلى
لستم غلاة، والأقل مرامكم
لستم غلاة، خال ذلك منكم
ليس الذي تبغونه من مطلب
من لم يخل في مصر عبداً شاكياً
أجزع بسارٍ آمنٍ في معهد

هذى المطالبُ وهي خير شعار
غير الحقيقة طامحي الأنظار
بين الشعوب السُّبِق الأحرار
من لم يخلكم من ذوى الأخطار^(١)
إلا أحتق مطالب الأحرار
في فترة التفكير والإضرار
وثبت عليه فجاءةً التزآر^(٢)

إني ليعجبني كبيرُ مرامكم
وأقول للمزرى بسنُّ صغاركم
أمهاجري أرض الكنانة إنكم
إمضوا دعاءً للهدى واستنصفوا
كونوا الشهود له على أعدائه

وهو الحقيق بغاية الإكبار
ليس العظيم نفوسهم بصغار
وجميع من فيها من الأنصار^(٣)
بالحق للبلد العزيز الجار
برجوع شمسِ نهاره المتواري

الثبات في الكفاح

وقال لما زاد اضطهاد الحكومة للأحرار وسلطت قانون المطبوعات على الصحف:

شَرِّدُوا أَحْيَارَهَا بَحْرًا وَبَرًّا
وَأَقْتُلُوا أَحْرَارَهَا حُرًّا فَحُرًّا

(١) أى لستم غلاة كما توهم ذلك من ظن أنكم لستم من ذوى الكفايات والأقدار.
(٢) أجزع: أى ما أشد جزع. والفجاءه مصدر فجأة. والتزآر زبير الأسد. يريد أن الإنجليز فوجئوا بالحركة الوطنية في ذلك العهد؛ كما يفاجأ السارى بزبير الأسد.
(٣) يسعى أعضاء المؤتمر المهاجرين، وسكان مصر الأنصار، تشبيها لهم بالمهاجرين والأنصار في صدر الإسلام.

إِنَّمَا الصَّالِحُ يَبْقَى صَالِحًا آخِرَ الدَّهْرِ وَيَبْقَى الشَّرُّ شَرًّا
كَسَرُوا الْأَقْلَامَ هَلْ تَكْسِيرُهَا يَمْنَعُ الْأَيْدِيَّ أَنْ تَنْقُشَ صَخْرًا
قَطَّعُوا الْأَيْدِيَّ هَلْ تَقْطِيعُهَا يَمْنَعُ الْأَقْدَامَ أَنْ تَرْكَبَ بَحْرًا
حَطَّطُوا الْأَقْدَامَ هَلْ تَحْطِيطُهَا يَمْنَعُ الْأَعْيْنَ أَنْ تَنْظُرَ شَرًّا
أَطْفَأُوا الْأَعْيْنَ هَلْ إِطْفَأُهَا يَمْنَعُ الْأَنْفَاسَ أَنْ تَصْعَدَ زَفْرًا؟
أَخْمَدُوا الْأَنْفَاسَ، هَذَا جُهْدُكُمْ وَبِهِ مَنَاجَاتُنَا مِنكُمْ... فَشُكْرًا!

وقال في هذا المعنى حين توعدته الحكومة بالنفى من مصر على أثره نشره الآيات السابقة:

أنا لا أخاف ولا أرجى فَرَسِي مَوْهَبَةٌ وَسَرَجِي
فإِذَا نَبَأَ بِي مَتْنُ بَرٍّ فَاَلْمَطِيئَةُ بَطْنُ لُجٍّ
لا قول غير الحق لي قَوْلٌ وَهَذَا النَّهْجُ نَهْجِي
الْوَعْدُ وَالْإِبْعَادُ مَا كَانَا لَدَيْ طَرِيقِ فُلْجٍ (١)

يحيى رأس السنة الهجرية

ونظم سنة ١٩١١ قصيدة عشاء حياً بها العام الهجرى (١٣٢٩)، خاطب فيها شباب مصر ودعاهم إلى الاعتبار بما في هجرة الرسول الكريم من المعاني الجليلة، والأغراض السامية. وأهاب بهم أن يضاعفوا جهودهم لبعث الحياة في مصر والشرق. قال:

هَلْ الْهَلَالُ فَحْيُوا طَالَعَ الْعِيدِ حَيُّوا الْبَشِيرَ بِتَحْقِيقِ الْمَوَاعِيدِ
يَا أَيُّهَا الرَّمْزُ تَسْتَجَلِي الْعُقُولَ بِهِ لِحِكْمَةِ اللَّهِ مَعْنَى غَيْرِ مَحْدُودِ
كَأَنَّ حُسْنَكَ هَذَا وَهُوَ رَائِعُنَا حُسْنٌ لِيَكْرَهُ مِنَ الْأَقْمَارِ مَوْلُودِ
لِلَّهِ فِي الْخَلْقِ آيَاتٌ وَأَعْجَبُهَا تَجْدِيدُ زَوْعَتِهَا فِي كُلِّ تَجْدِيدِ

فَتِيانَ مِصْرَ وَمَا أَدْعُو بِدَعْوَتِكُمْ سَوَى مَجِيْبِينَ أَحْرَارًا مَنَاجِيدِ (٢)
سَوَى الْأَهْلَةِ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ أَدَبٍ مُؤْمَلِينَ لِفَضْلِ غَيْرِ مَجْحُودِ

(١) الفلج: الظفر.

(٢) المناجيد: الشجعان السياقون إلى النجدة.

المستسير شِعَار المقتدين به
ما زال من مبدإ الدنيا يُبَيِّننا
فإن سيروا إلى الغايات سيرته
العاملين بِمَغزَى منه مقصود^(١)
أن التَّمَام بِمَسْعَاةٍ وَبِجُهود
إلى الكمال فقد فُزْتُمْ بِمَنشود

* * *

يا عِيدُ جئتُ على وعدٍ تُعيدُ لنا
بل كنتَ «عِيدين» في التقريب بينها
رُدِدْتَ يوماً يُسرُّ المؤمنون به
أولى حوادتك الأولى بتأييد
معنى لطيفٍ ينافي كل تبعيد
ولم تكن بادئاً يوماً لتعييد

* * *

رسالةُ الله لا تُنهي بلا نصبٍ
رسالةُ الله لو حلت على جبلٍ
ولو تحملها بحرٌ لَشَبَّ لظى
فليس بدعاً إذا ناء الصفيُّ بها
ينوى الترحل عن أهلٍ وعن وطنٍ
يكاد يكثُّ لولا أن تداركه
يُشقى الأمين وتغريب وتأكيد
لأندك منها وأضحى بطن أخذود
وجف وانهاه فيه كل جلمود
وبات في ألمٍ منها وتسهيده
وفي جوانحه أحزان مكبود
أمر الإله لأمرٍ منه موعود

* * *

فإذ غلا القوم في إيدائه خطلاً
دعا الموالين إزماعاً لهجرته
مضى هو البدء، والصديق يصحبه
مؤلياً وجهه شطر (المدينة) في
حتى إذا اتخذ الغار الأمين حمى
حماءً وشئ بياب الغار منسدلاً
يا للعقيدة والصديق في سهرٍ
وشردوا تابعية كل تشريد
فلم يجبه سوى الرهط الصناديد
يغامر الحزن في تيهاء صيخود^(٢)
ليل أغر على الأدهار مشهود
ونام بين صفاه نوم مجهود
من الألى هددوه شر تهديد^(٣)
تؤذيه أفعى ويكي غير منجود

(١) المستسر: المستتر، أى القمر الذى لم يبد فى مطلقه إلا أقله.

(٢) التيهاء: أرض يتيه فيها السالك. وصيخود شديدة الحر.

(٣) إشارة إلى ما نسج العنكبوت ببابه فضل المعقنين للرسول.

مُنَى الْقَرْىِ فَهِيَ حَصْنٌ غَيْرُ مَهْدُودٍ
سَارِينَ فِي كُلِّ مَسْرَىٍ غَيْرِ مَرْصُودٍ
كَهَوْلَاءِ الْأَعْزَاءِ الْمَطَارِيدِ^(١)
فِرْسَانَ رُؤْيَا لَشَانٍ غَيْرِ مَعْمُودٍ
مَالِ خَيْرِ سِرْتٍ فِي مَهْجَةِ الْبَيْدِ
فَوْقَ الظُّلَالِ عَلَى الْمَهْرِيَّةِ الْقُودِ

إِنَّ الْعَقِيدَةَ إِنْ صَحَّتْ وَزَلَزَلَتْ
أَمَّا الصُّحَابُ الَّذِينَ اسْتَخَرُوا تَلَوًّا
مَاجِدًا قَيْصَرَ أَوْ كَسْرَى إِذَا افْتَخَرُوا
كَأَنَّهُمْ فِي الدُّجَى، وَالنَّجْمُ شَاهِدُهُمْ،
كَأَنَّهُمْ وَضِيَاءُ الصُّبْحِ كَأَشْفُهُمْ
فِي حَيْطَةِ اللَّهِ مَا شَعَتْ أَسْنَتُهُمْ

لِمَ أَرَبٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ
حَتَّى يَعُودَ بِتَمَكِينٍ وَتَأْيِيدِ
قُدْرِ الْحَيَاةِ، وَمَنْ فَادَى بِهَا فُودَى
لِلْإِحْتِفَازِ بِعَمْرٍ رَهْنِ تَحْدِيدِ
وَلِيَبِغَ فِي الْأَرْضِ شَقًّا كُلِّ رِعْدِيدِ
عَدَا الْفَنَاءِ بِذِكْرِ غَيْرِ مَلْحُودِ

عَانِي «مُحَمَّدٌ» مَا عَانِي بِهَجْرَتِهِ
وَكَمْ غَزَاةٍ وَكَمْ حَرْبٍ تَجَشَّمَهَا
كَذَا الْحَيَاةَ جِهَادًا، وَالْجِهَادَ عَلَى
أَدْنَى الْكِفَاحِ كِفَاحُ الْمَرْءِ عَنِ سَفِهِ
لِيَعْنَمَ الْعَيْشَ طَلْقًا كُلِّ مَقْتَحِمِ
وَمَنْ عَدَا الْأَجَلَ الْمَحْتَمُومَ مَطْلَبُهُ

لَكِنَّ صَوْتِي فِيكُمْ صَوْتُ تَرْدِيدِ
مِنْ صَالِحَاتٍ أَعَدَّتْهَا لِتَخْلِيدِ
طِوَالِ مَا خَلَقْتُ^(٢) فِيهَا بِتَسْوِيدِ
فِي كُلِّ مَسْرَحٍ بِإِدِّ كُلِّ تَوْطِيدِ
إِلَّا كَعْبِيدٍ لِهِمْ فِي شَكْلِ مَعْبُودِ
بَعْضَ الْمَعَادِنِ أَوْ بَعْضَ الْجَلَامِيدِ^(٣)
ثِقَالَ بَطْشٍ لِدَانٍ كَالْأَمَالِيدِ^(٤)
إِلَّا مَنَازِلَ تَشْتِيَتِ وَتَبْدِيدِ
إِلَّا كَمَا صِيحَ فِي عُفْرِ عِبَادِيدِ

لَقَدْ عَلِمْتُمْ، وَمَا مِثْلِي يُتَبَثِّكُمْ
مَا أَثْمَرَتْ هَجْرَةُ الْهَادِي لِأُمَّتِهِ
وَسَوَّدَتْهَا عَلَى الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا
بَدَا وَلِلشُّرْكِ أَشْيَاعٌ تُوَطِّدُهُ
وَالْجَاهِلِيُونَ لَا يَرْضُونَ خَالِقَهُمْ
مَوْلَهُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ صِنَاعَتِهِمْ
مُسْتَكْبِرُونَ أَبَاةَ الضِّيمِ غُرُجِجِي
لَا يَنْزِلُ الرَّأْيُ مِنْهُمْ فِي تَفْرِقَتِهِمْ
وَلَا يَضُمُّ دُعَاءً مِنْ أَوَابِدِهِمْ

(٣) الجلاميد: الصخور.

(٤) لدان، جمع لدن، وهو اللين.

(١) المطاريد، فرسان الطراد في الحرب.

(٢) خلقت: استخقت.

ولا يطيقون حكماً غير ما عقدوا لذي لواءٍ على الأهواء معقود

بأى حلمٍ مبيد الجهل عن ثقةٍ أعاد ذلك الفتى الأمى أمته لتلك تالية الفرقان في عجبٍ صعبان راضهما: توحيد معشرهم وزاد في الأرض تمهيداً لدعوته وبدئه الحكم بالشورى يتم به هذا هو الحق والإجماع أيده

وأى عزمٍ مُذلّ القادة الصيّد شملاً جميعاً من الغرّ الأماجيد بل آية الحق إذ يُبغى بتأكيد وأخذهم بعد إشراكٍ بتوحيد بعهدته للمسيحيين والهود ما شاءه الله عن عدلٍ وعن جود فمن يُفنّده أولى بتفنيده

أى مسلمى (مصر) إن الجُدّ دينكم طال التّعاس والأعوام عاجلة هبوا إلى عمل يُجدي البلاد فبا سعيًا وحزمًا، فوّد العدل وودكم تعلموا كلّ علمٍ وانبغوا وخذوا فكّوا العقول من التّصفيد^(١) تتطلقوا

وبئس ما قيل: شعبٌ غير مجذود والعام ليس إذا ولّى بمردود يفيدها قائلٌ: يا أمّتى سودى وإن رأى العدل قومٌ غير مؤدود بكلّ خلقٍ نبيه أخذ تشديد وما تبالون أقدمًا بتصفيد

(مصر) الفؤاد فان تُدرِك سلامتِها فالشرق ليس وقد صحّت بمفؤود^(٢) الشرق نصفٌ من الدنيا بلا عملٍ والغرب يرقى وما بالنسرق من همٍ تشكو الحضارة من جسمٍ أشلّ به

سوى المتاع بما يُضنى وما يودى سوى التفاتٍ إلى الماضى وتعيد شطرٌ يُعدّ وشطرٌ غير معدود

أبناء (مصر) واجبٌ جَلَلٌ لبعث مجدي قديم العهد مفقود

(٢) المفؤود: المصاب فؤاده.

(١) التصفيد: التقييد.

وَلْتُرْزَهْ (مصر) بكم مرفوعة الجيد
حقيقة الفعل والذكري بتمجيد
من حاسدٍ كائد كيدًا لمحسود
حُرَّانٍ من كلِّ تقييدٍ وتعبيد
إلا تداركه الثاني بتسديد
لما يُعْمُ بنفع كلِّ موجود
من رَوْضكم كلِّ نامٍ ناضر العود
دَعَّ زعم كلِّ عدوِّ الحقِّ مرِيد^(١)

فَلْيُرْجِعِ الشرق مرفوع المقام بكم
ما أجمل الدهرَ إذ يأتي وأربُعنا
والشرق والغرب معوانانٍ قد خلاصا
صنوان بَرَّانٍ في علمٍ وفي عملٍ
لَا فِعْلَ يُخْطِئُ فيه الخيرَ بَعْضُهُمَا
ولا خصومة إلا في استباقهما
هذي الثمار التي يرجو الأنام لها
لمصر والشرقِ بل للخافقين معًا

* * *

فقد تبدَّل منحوسٌ بمسعود
يُنْفَى بحسنى ولا يُوهَى بتهديد
بُشْرَى التَّمَامِ لوقتٍ غير ممدود
بخاتمِ النورِ زَلَّاتِ الدَّجَى السود

جُوزوا على بركات الله عامكم
رجاؤكم أبدًا ملءُ النفوس، فما
بدا الفلاح، وفي هذا الهلال لكم
غداً نرى البدر في طُرسِ السَّاءِ مَحَا

يجيى بعثة الأطباء إلى حرب طرابلس

وقال سنة ١٩١١ يجيى بعثة الأطباء المصريين الذين ارتحلوا إلى ليبيا لمعاونة المجاهدين العرب
الذين قاوموا العدوان الإيطالي :

أجر الجهاد وأجر اليرِّ بالناس
صدع الرِّصاص وجرح الصَّارمِ القاسى
غولُ الرِّدى بين أنيابٍ وأضراس
ترى العيونُ غياضًا فوق أفراس
نَدَى الجفافِ وتخبو شعلَةُ البَاسِ
وإن هم استوحشوا إخوان إناس
ودافعوا الموت عنهم دَفَعَ أكياس^(٣)

سيروا على بركات الله وأغتموا
لِيَشْفِ مِبْضَعُكُمْ والرَّفَقُ يُعْمَلُهُ
لَهْفَى على شوس^(٢) أبطالٍ تلوَّكهم
كانوا وقد ركبوا للحرب أبهج ما
واليوم قد عَشروا تَنَدَى نضارِهم
كونوا لهم إن شكوا إخوان تأسيةً
رُدُّوا على الوطن الباكي أَعْرَزْتَه

(٣) أكياس جمع كيس وهو الفطن الذى يحسن الفهم.

(١) مرید: الخبيث.

(٢) شوس جمع أشوس وهو الشجاع الجرىء.

فإن أسقامهم في كل جارحةٍ
 لله مسعاتكم والحق يشكرها
 مبرةً ظهّرت أرواحكم وسَمّت
 خوضوا المصاعب لا يُلمم بأنفسكم
 هذا الهلال لكم رَأد النهار هدى
 وإن في ظلّه النّادى برحمته
 أئى عصبه الخير داووا أبرياء هَوُوا
 لو صور الله في جسم امرئٍ ملكاً

منّا وآلامهم في كلِّ إحساس
 والخلق يذكرها ترديد أنفاس
 بها مراتب فوق الضّيم والياس
 ما قد تُلاقون من من ضرٍّ ومن باس
 وفي اعتكار الدّياجى خير نبراس
 لبّسماً لجراح القلب والرّأس
 صرعى مطامع قُوادٍ وسُوّاس
 لصور المسلك الإنسى في آس^(١)

عتب وطنى

وقال سنة ١٩٢٠ يعتب على أحرار مصر في موقف تردد:

إن تكونوا حماتها وبنها
 افترضون أن تهون عتيداً
 تلك أوطانكم تباع عليكم
 ما لتلك الذناب تعس فيها؟^(٢)
 بعد ذاك الإباء في ماضيها؟
 صفقة بخسة فمن مشتريها؟

رثاؤه لمحمد فريد

ونظم قصيدة رائعة في رثاء الزعيم الشهيد محمد فريد سنة ١٩١٩؛ قال:

أفريدُ لا تبعد على الأدهار
 بالأهل بالدم بالرفاهة بالغنى
 حررت نفسك دائب المسعى إلى
 مسترسلا والدهر في إقباله
 ثبتاً إذا ما الراسخون تقلقلوا
 فبررت بالعهد الذى عاهدته
 ما كان ذاك العمر إلا قربة
 ومن المنى ما ليس يوفى حقه

أنت الشهيد الخالد التذكار
 فدّيت مصر وفديت من دار
 تحريرها لتعز بعد صغار
 مستبسلا والدهر في الإدبار
 متوافق الإعلان والإسرار
 ووفيت في الإيسار والإعسار
 موصولة الأصال بالأسحار
 حتى يكون الجود بالأعمار

(٢) تعس تطرق ليلا.

(١) آس أى مداو للجروح

فريد ومصطفى :

في مستهلها وفي الإبدار
وكلاهما لأخيه خير مبار
سبل النجاح لمقتفى الآثار
إذ ذاك في شغل عن الأخطار
لكنها تخشى أذى الإظهار
فيرى كما اقتدح الزناد الوارى
ثقة وما كانا من الأيسار
مصدوقة في خفية وجهار
فذكاء ذكاء النور قبل النار
هذا الجوار ورام خير جوار

إني لأذكر مصطفى ورفيقة
متوخياً إعتاق مصر كلاهما
وكلاهما يسعى الغداة مذلا
وكان مصر حيال كل مخاطر
في قلبها حب الحياة طليقة
وضميرها أننا فأننا يجتلى
عرفا حقيقتها وبثا بثها
لم يلبثا متآزرين بنية
حتى إذا ما أيقظا إيمانها
أبدت أساها يوم فارق مصطفى

فريد رئيساً للحزب الوطنى :

بالأنزه الأوفى من الأنصار
وسبقت من جارك في المضار
واستسق صوب العارض المدرار
أورفعةً فاظفر بالاستيزار
يتحملون غرائب الأعدار
ما أمن مقتعد متون بحار
قد تستفيق ولات حين حذار
كوفئت من عرف بالاستنكار
وتذوق كل مرارة الإقتار
وإن ابتليت بشقوة وضرار
لك أن تلبى داعى الإخفار
بالمصب المزجى أو الدينار
عند الوفاء وفوق الاستنثار

ذهب الرئيس فنيط عبء مقامه
أفريد هذا الشأو قد أدركته
فتقاض أضعاف الذى قدمته
إن تلمس جاها أصب ما تشتهى
والشرق يقبل قد عملت من الأولى
والشعب شبه البحر لا تأسن له
فغداً ويا حذرا لمثلك من غد
يسلو الأولى عبدوك أمس وربما
فتبيت صفر يد وكنت مليئها
لكن أبيت العرض إلا سالما
لم تعتقد إلا الولاء وقد أبى
وسموت عن أن يستميك خادع
فظللت مبدوك القويم كعهده

ورسوخ إيمان بالاستمرار
يرنو إليك بمقلة الغدار
والبغى جنّاء على الأظهار
عدت فضائله من الأوزار

إن السجنون معاهد الأحرار
أن اعتقالك مطلق الأفكار
نوراً تضاء به سبيل السارى
فيلوح فوق ذراه ضوء منار
ونرى هدى في وجهك المتوارى
غُيِّبَتْ عن الأسماع والأبصار
علم بأن التّم بعد سِرار
لزموا التفرد عن رضا وخيار
شظفى المعاش لا بسى الأطار
لقيام دعوتهم على الأخطار
بعثوا الهدى كالشمس في الإزهار
كلم المهيمن في اصطعاق النار
يسمو به راقٍ من الأنوار
في الغار عن صرعته في الغار
للنفس حررها بالاستئثار
من أن تمحصهم يد المقدار

ما فوق غَلِّ الجيد والإحصار
أعلى وأغلى صفقة للشارى
شرفاً إلى سجن بغير جدار
إلا ليدركه القضاء الجارى

تزداد صدق عزيمة بمراسه
ما إن تبالى ساهراً مترصدًا
يجنى عليك لغير ذنب باغيا
من كان جار السوء يوماً جاره

فريد في السجن :

قل للرئيس إذا مررت بسجنه
واقفته طوعاً ورأيك ثابت
إن يججوبوك فلين فكرك رافع
كم تججب الظلمات طوداً شامخاً
إننا لنسمع من سكوتك حكمة
وإذا النفوس تجردت لمرامها
حاشاك أن تأسى وهل تأسى على
الأنبياء انتابهم زمن به
لجأوا إلى الخلوات واحتبسوا يها
مستجمعين مروضين قلوبهم
ومن الغيابات التى أمسوا بها
سل موحشاً في طور سينا سامعاً
سل طيف جلجلة يكاد من الطوى
سل خالياً بحرّاً يلبي ربه
بالعزلة اكنتموا ورب مروض
لا شىء أبلغ بالدعاة إلى المنى

فريد في طريق المنفى :

لم يكفه ما كان حتى جاءه
النفى بعد السجن: تلك عقوبة
يسموا بها السجن القريب جداره
لا يترك الجارى عليه حكمه

إحدى المدائن سيرت ببخار
 دامي الفؤاد وشيك الاستعبار
 والزاحفات أمينة الأحجار
 ما فيه من غصص ومن أكار
 لشفاء مسغبة به وأوار
 أعطافها بالأزرق الزخار
 أنس الحمى وجماله السحار
 من طيب تلك الجنة المعطار
 لغة الأنيس إلى لغى الأطيّار
 سيهيم في الدنيا بغير قرار
 في قومه ويزور كل مزار
 بسكينة للكوكب السيار؟
 أنضته في الرحلات والأسفار
 إلا شكاة المحرب الكرار
 في العالمين، الفوز للصبّار
 عزا ويسترها بستر وقار
 أن يجنحوا وجلاً إلى الإقصار

أى السفائن تستقل كأنها
 ينأى بها عن أهله ورفاقه
 ينبو ذرا البلد الأمين بمثله
 متلفتاً حين الوداع وفي الحشى
 متشعباً متروياً مما يرى
 يرنو إلى صفر الشواطئ منطقت
 ويذوب قبل البين من شوق إلى
 يستاف ما تأتي الصبا بفضوله
 وبسمعه لحن المواطن جامعا
 لهفى عليه مشرداً قبل الردى
 من أجل مصر يؤم كل ميمم
 لا يوم يسكن فيه من وثب، ومن
 في غربة موصولة آلامها
 تنتابه الصدمات لا يشكو لها
 ثقة بأن الفوز ليس لجازع
 وتعضه الفاقات لا يلوح بها
 حرصاً على المتطولين بفضلهم

فريد في مرضه:

تردى الأسود ضرورة الأخذار
 بين الجوانح أنذرت بيوار
 واليوم عدن عليه غير قصار
 خلع النضارة واكتسى ببهار؟
 كالرسم في جرف به منهار؟
 عثرت به العلات كل عثار؟
 تنتابه هدآت الاستقرار؟
 من لم يذق في العمر طقم عقار

ما كان هذا الحد حد عذابه
 صال الشقاء على فريد صولة
 قصرت لياليه على مجهوده
 ما بال ذاك الوجه بعد تورّد
 ما بال ذك الوجه بات من الضنى
 ما بال ذاك العزم بعد مضائه
 ما بال ذاك القلب بعد خفوقه
 أمسى يعالج سكرة في نزع

يمضى الزمان بها مضى خسار
والموهبات ترد ردّ عواري
والييت خال والمقلد عارى؟
من كان جم الجاه والإيسار
عانه كل قلائد الأشعار
غير الذى نتلوه فى الأسطار

ولو استطاع لما أضع دقيقة
وفى بما أعطاه حق بلاده
أمكانه هذا أتلك حليه
أكذاك يختم فى الشقاء حياته
ماذا تفى من حقه بعد الذى
إن الذى يبلوه شارى قومه

عظة وفاته:

ذاك النعوى وذاع فى الأمصار
ما كان بالعاتق ولا الجبار

مات الرئيس فراع مصر وأهلها
مات العصامى العظامى الذى

تحية الختام:

لعشيرة فديتها وديار
من شكرها بمتوبة الأخيار
آنست فيك مشيئة للبارى

أفريد هذا ما يهينه الفدى
نم إن مصرا عنك راضية وفز
أوتسكت أجزع فانتهيت بأنى

تحية الشهداء

قال فى حفلة أقيمت سنة ١٩٢٤ لتحية أرواح شهداء الحركة الوطنية:

إلى أرواح الشهداء

بلغتم الشأو تخليدًا وتعظيمًا
بمثل إغلائه القربان تقديما
أذى يَرْدُ فِرْنَدَ الصبرِ مثلومًا^(١)
من غاصبٍ وانتصافُ الشعبِ مظلوما
فتصبرون ويأبى العزم تحطيمًا
إلى العدى واهنو الإيمان تسليما
حقٌّ ومن لا يبالى فيه ما سيمًا

تحيةً أيها القتلى وتسليما
لا يعبُد المرء ربًا ولا ووطنا
قلتم وصدّق ما قلتم تحمّلكم
ما الموت إن كان إنقاذ البلاد به
يُحطّم العظم منكم دون بُغيتكم
برًا (بصر) وخوفًا أن يُسلّمها
ليس الشهادة إلا من يموت على

(١) القرنند: حد السيف.

إمضوا رفاقاً كراماً، حسبكم عِوضاً
 للمشتري بصباهُ عِزِّ أُمته
 وللتى استبدلت بالقبر مرتعها
 لا تحسبوا مصر تنساكم فكلُّكمو
 وفي المربع من أرواحكم نَسَمٌ
 مجدُّ عزيز على الخُطَّاب إن ريمًا
 ذكرٌ يُديمُ اسمه بالتَّبر مرقوما
 قَسَطُ من الفخر فوق العمر تقويما
 يَبْقَى على الدهر مرُومًا ومرحوما
 تَظَلُّ تَأْتِي بها لأرواحُ تنسيما

تحية للذين أطلقوا من الاعتقال

وقال في هذه القصيدة مخاطبا من أفرج عنهم من الاعتقال :

يا خارجين كراماً من محابسهم
 كم كُبِّلَ الحقُّ بالأصفاد من قِدمِ
 يا سوء دهر قَضَتْه قبل نهضتها
 تَهَيَّ قَوَى اللَّيْثِ من عَيْثِ الذَّنَابِ بها
 فاليوم عاد إلى رأى يُشَرِّفُها
 دَلَّتْ على قوَّةِ فيها صلابتكم
 هل يُجْزِيءُ الشكر من ضيمِ تحمُّله
 قد أتموكم وكم من مُثَلَّةٍ نزلتْ
 وبعض ما عاقبوكم فيه جعلكمو
 لا حاكماً دون ما أوحث ضمائرُكم
 ومبتهجى كلِّ قلبٍ كان مغموما
 ثم انطَوَيْنَ وباء البُطْلُ مهزوما
 (مِضْرُ) يَجِيئُ فيها الذُّلُّ تخيما
 ويلتوى الأمرُ تحليلاً وتَحْرِيما
 من ظنِّ إقليما للخفص إقليما
 تذود عنها الأشدَّاءَ المقاحيما
 بالأس من كان منكمو في رأيه ضيما
 بالأبرياء وبالأبرار تأثيما
 صِدْقُ الهوى لِلجَمَى دِينًا وتعليما
 تُرَاقِبُونَ ولا تُرَعُونَ محكوما

لقد ظفرتم بما أدنى القصي لكم
 هل استقام زمانٌ لا يُقوِّمه
 أو نال حُرِّيَّةَ قومٍ بها جُدُّوا
 من المرام فليس الفوزُ مزعوما
 بنوه بالصبر والإقدام تقويما؟
 وهم يبالون تفتيلاً وتكليما^(١)

يا سادة كالنجوم الغرَّ منزلةً
 وسيداتٍ كِعقُودِ الدُّرِّ منظوما

هَذَا لِإِقْبَالِكُمْ هَذَا وَحَفَلْتُمْ
 مِنَ الْأُولَى مَا وَنَسُوا عَنْ وَاجِبِ فَبَنُوا
 وَأَوْلَتْكُمْ إِنْ بَدَأَ مِنْ فَضْلِهِمْ أَثْرُ
 فَلْتَحَى «مِصْرُ» وَأَبْرَارُ نُجْلِهِمْ
 تُهْنِتُونَ الصَّنَادِيدَ الْمُقَادِيمَا
 لِعَزِّ «مِصْرُ» طَرِافًا^(١) كَانَ مَهْدُومَا
 فَكَمْ لَهُمْ مِنْ جَمِيلٍ ظَلَّ مَكْتُومَا
 وَنَحْتَفَى بِهِمْ حُبًّا وَتَكْرِيمَا

رثاؤه لأمين الرافعي

ومن قصيدة له في رثاء المرحوم أمين الرافعي الذي انتقل إلى جوار ربه في ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٧. وقد ألفت هذه القصيدة في حفلة تأبينه:

بَاعُوا الْمُخَلَّدَ بِالْحَطَامِ الْفَانِي
 تِلْكَ الْحَيَاةَ أَمَانَةً أَدَيْتَهَا
 بِالصَّبْرِ وَالْإِيمَانَ أَخْلَصَ بَدْوُهَا
 أُعْرِضَتْ عَنْ لِدَاتِهَا مِنْذُ الصُّبَى
 مَتَوَخَّيًّا مِنْ دُونِهَا أُمْنِيَّةً
 تَهْوَى الْبِلَادَ وَلَا هَوَى لِكَ غَيْرِهَا
 ظَلَّتْ تَنَازَعَكَ الصُّرُوفَ بِمَا بِهَا
 مَسْتَنْزَفًا دِمَكَ الزَّكِيِّ وَلَمْ يُرَقْ
 فِي صَوْلَةِ لِلدَّهْرِ تَعْقُبَ صَوْلَةَ
 حَتَّى قَضَيْتَ شَهِيدَ رَأْيِكَ وَانْقَضَى
 وَيَحَ الْأَيُّْ تَسْوَهُ أَيَّامِهِ
 مِمَّنْ يَقْدَمُ فِي الرِّجَالِ وَمَا بِهِ
 مَاذَا دَهَى «الْفَسْطَاطُ» حِينَ تَجَاوَبَتْ
 وَجَلَا عَنِ الْقَدْرِ الْمُخْبَأَ لِيْلُهَا
 وَشَرَيْتَ بِالْأَغْلَى مِنَ الْأَنْمَانِ
 بِتَمَامِهَا لِلَّهِ وَالْأَوْطَانِ
 وَخْتَامِهَا بِالصَّبْرِ وَالْإِيمَانِ
 وَالرُّوْضُ تُغْرَى وَالْقَطُوفُ دَوَانِي
 لَمْ يَوْهٍ وَحَدَّثَتْهَا شَتِيَّتُ أَمَانِي
 أَوْ تُفْتَدِي مِنْ ذَلِيلَةٍ وَهَوَانِ
 مِنْ مُنِّيَّةٍ، وَظَلَّتْ تُبَيِّتُ جَنَّانِ
 بِشَبَابَةٍ قَرُضَابٍ وَلَا بَسْنَانِ
 مَنْتَابَةً فِي الْآنِ بَعْدَ الْآنِ
 مَا كُنْتُ تَلْقَى دُونَهُ وَتَعَانِي
 وَتَسْرُ كُلَّ مِمَّا ذِي^(٢) مَدْعَانِ
 إِلَّا الْبَطْلَاءُ بِكَاذِبِ الْأَلْوَانِ
 أَصْدَاؤُهَا لِنَوَاكِ بِالْإِرْنَانِ؟^(٣)
 وَبَدَا الصَّبَاحُ مَقْرَّحَ الْأَجْفَانِ

(١) الطرف: البيت.
 (٢) مماذق: أى غير مخلص.
 (٣) الإرنان: رفع الصوت.

والصدقِ كيفِ مصارعُ الشجعانِ
أجرى العيونِ وفاضَ بالغدُرانِ

خطبُ أراننا في مجالاتِ الفدى
فالشرقِ في سَرَقٍ من الدمعِ الذى

* * *

عادتهمو ذكرى فتى الفتيانِ
وطليعةً لطليعةِ الفرسانِ
يَهْوَى بحيث هويتِ فى الميدانِ
يتراکضونِ إليه خيلَ رهانِ
ما عزَّ من جأهِ ومن قُنيانِ
فاسمِ الرفاقِ تامةِ العنوانِ

أى «مصطفى» يبكيك قومك كلما
يوم الوفاءِ دعا فكنتَ لواءه
هذا شهيدٌ من ولاتك خامسٌ
لكأنتهم، والمسوتُ أسوأ مغنمٍ،
بذلوا النفوسَ لله آذنتُ وأرخصوا
فإذا ذُكرتَ وأنت عنوانِ الفدى

وظل خليل مطران يغرد بشعره ألحان الحرية، ولا ينقطع عن التغريد حتى فاضت روحه
الكرمية مساء ٣٠ يونيو سنة ١٩٤٩.

* * *

أحمد محرم

١٨٧١ - ١٩٤٥



شاعر ملهم، من شعراء الوطنية والأخلاق، كان أديباً الجليل يضعونه في صف سوقى وحافظ ومطران، وكان سيخ الشعراء إسماعيل صبرى يتغنى بسعر هؤلاء الأربعة ويطيب له التحدث عنهم، وامتاز محرم إلى جانب مكانته الشعرية بحرارة العاطفة، وتذوقه للفن والجمال، وقوة إيمانه، وتأملاته العميقة الفلسفية، واستمساكه طول حياته بمبادئه الوطنية، فكان شعره كله وفقاً على المبادئ، لم ينحرف عنها يوماً في قصيدة أو في أى بيت من الشعر، ظل مقبياً عليها وفيها لها في السراء والضراء، فكان حقاً مثلاً أعلى في الشعر والوطنية، وكان مصطفى كامل يعجب به

وبشعره، ويشيد به على صفحات (اللواء)، ويسميه (نابغة البحيرة)، وبقي أحمد محرم على صلته به ووفائه له ولذكراه، كما ظل وفيّاً لمبادئه الوطنية إلى أن توفاه الله في ١٣ يونيو سنة ١٩٤٥. كان شاعراً بفطرته وسليقته، قال الشعر وهو في سن مبكرة. ومعلّفته التي يقول في مطلعها:

منازل سلمى لا عدتك الغمام وإن درست بالجزع منك العالم
قد نظمها وهو في السادسة عشرة من عمره.

وطنيتيه في شعره

تتجلى روحه الوطنية التي ألهمته الشعر أكثر ما تتجلى حين أصدر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠٨، فقد أهداه إلى (النيل)، وكتب كلمة الإهداء في عنوان الكتاب (هدية النيل)، وأعقبها بهذا البيت الذي يترجم عن وطنيته الأصيلة مخاطباً النيل قال:

وَهَبْتُكَ مُلْكَ القريظ العتيد وذلك أفضل ما يوهبُ

وقال في مقدمة ديوانه يشرح المعنى الذي استوحاه في إهداء ديوانه إلى النيل:

«لقد جرى أكثر الكتاب والشعراء على أن يهدوا مؤلفاتهم إلى من شاؤا من ذوى الثروة

والجاء تعرّضاً لمؤازرتهم والانتفاع بهم وسط هذا الكساد الآخذ بأكظام الأدب في بلادنا، ولكنني انصرفت بشعري عن تلك المواقف، وبرئت إلى نفسي أن آخذ بهذه الأسباب، على ما أعلم من وعورة مسلكي، وضيق مضطربي، وما كنت في ذلك إلاّ جارياً على سنتي في سياسة نفسي، وتصريف ما آتى وأدع من أمور الحياة، فما استظهرت بغير أخ حفي، أو صديق صفي، ولا آثرت أن أهدي ديواني إلى غير (النيل)، ذلك الأب الذي وهبني نعمة الحياة، وأفاض عليّ هذه المنح والصلوات.

فيا نيلُ أنت الهوى والحياة	وأنت الأمير وأنت الأبُ
ويا نيل أنت الصديق الوفيّ	وأنت الأخ الأصدق الأطيب
وأنت القريض الذي أقتفى	فيرْهَى به الشرق والمغربُ
فإن أهب الخصبَ هذه العقول	فمما سننتَ لها تخصب
وإن أنا أطربت هذه النفوس	فصوتك لا صوتي المطرب
تسيل فتدفق الرائعات	وتجري فتستبق الجوبُ

إلى أن قال:

لئن فاتني الذهب المستفاض	فما فاتني الأدب المذهب
وهبتك مُلك القريض العتيد	وذلك أفضل ما يوهب

وقد ظهر الجزء الثاني من ديوانه سنة ١٩٢٠.

دعوة الوطنية

قال يدعو مواطنيه إلى الإخلاص لبلادهم والعمل على استعادة مجدها:

دعا فأتار الساكنين دعاؤه	ونادي فراع الأمنين ندائه
أخو وصب ما أن يحم انقضاؤه	وذو أرب ما أن يحين قضاؤه
به من بنى مصر عناء مبرح	فياليت شعري هل يزول عناؤه؟
أما إنه لو كان يُسقى غليله	بكاء على مصر لطلال بكائه
تقسّمها الأقوام لا ذوحية	فيحمر ولا واق فيُرجى وقاؤه
وما مصر إلاّ موطن نحن أهله	عزيز علينا أرضه وسماؤه

إلى أن قال يستنكر الاحتلال البغيض ويهيب بالأمة أن تحاربه:

ثوى فيه أقوامٌ مللنا ثواءهم ·
 لقد كان يَأبَى أن يذُلَّ لغاصب
 ويا رَبَّ ثاوٍ لا يُمِلُّ ثواؤه
 لقد كان يرعاه رجال أعزة
 فياليت شعري أين ضاع إياؤه؟
 بهم من صروف الدهر كان احتماؤه
 بصارم عزم ما يُردِّ مضاؤه
 هم تاضلوا عنه فصانوا ذماره

* * *

بني وطني لا تسخطوه عليكم
 بني وطني خلوا التخاذل إنه
 فليس سواءً سخطه ورضاؤه
 سلامٌ عليكم من أخ ذى حمية
 بلاؤكم يجتاحكم وبلاؤه
 دعى فأتار الساكنين دعاؤه

لواء الوطنية

وقال يمجّد لواء الوطنية ويدعو إلى الالتفاف حوله والتضحية في سبيله:

فداؤك نفسى من لواء محبب
 إذا ما دعى أنصاره التف حوله
 حمى جانبه كل ماضٍ مدرّب
 فمنهم قؤول للصواب مسدّد
 جحا جحة^(١) من ذائد ومذنب
 يدين له الجبار غير معذل
 يصرف صرّاً له وقع أشطّب
 ومنهم فعولٌ للمكارم ماجدٌ
 ويعنو له المغوار غير مؤنّب
 هم الصحب صانوا للديار لواءها
 يلبي نداءه كل داعٍ مشوّب
 يكرون كرّ الدارعين إلى الردى
 وصالوا على أعدائها غير هُيب
 إذا طلبوا حقاً تداعوا فأجلبوا
 إذا الحرب أبدت عن عبوس مقطب
 على ساليه فانتثوا غير خُيب
 إلى أن قال:

وما منع الأوطان إلا حماؤها
 هم ذخرها المرجو في كل حادث
 وذادتها من ذى شباب وأشب
 سلامٌ عليهم من كهول وفتية
 وعدتها في كل يوم عصّصب
 وبورك فيهم من شهود وغُيب

(١) جحاجة جمع جحاجح السيد المسارع في المكارم.

كبوة الشرق

وقال تحت عنوان (كبوة الشرق) يستصرخ أهله ليعيدوا إليه سالف مجده:

متى ينهض الشرق من كبوته	وحتى متى هو في غفوته؟
كَبَا وكذلك يكبو الجواد	براكبه وهو في حلبته
ونام كما نام ذو كربة	تلكه اليأس في كربته
وَهِيَ عَزْمُهُ ما يطيق الحراك	وقد كان كالليث في وثبته
تجرّ عليه عوادى الخطوب	كلا كلها وهو في غفلته
نواهبُ ما كان من مجده	سوالبُ ما كان من عزته

إلى أن قال:

فيالهف قلبي لمجدٍ مضى	ويا شوق نفسي إلى عودته!
ويالهف آبائنا الأولين	على الشرق إن ظل في نكبته
هم غادروه كروض أريض	تتوق النفوس إلى نضرته
<u>ونحن تركناه للعاديات</u>	<u>ولم نرع ما ضاع من حرمة</u>
فأذهبن ما كان من حسنه	وأفنين ما كان من بهجته

* * *

فهل يسمع القول أهل القبور	خطيبٌ فيسهب في خطبته
يناديهم فيم هذا الرقاد؟	كفى ما دهى الشرق من رقدته
لقد ضاع بعدكمو مجده	وكل المثالب في ضيعته
وأنتم رجال ذوو نجدة	فلا تقعدوا اليوم عن نجدته

يدعو إلى بعث مصر

وقال يذكر مجد مصر الغابر ويدعو مواطنيه إلى النهوض لاستعادة هذا المجد:

أهذى ديار القوم غيّرها الدهرُ	فعوجوا عليها نكبها أيها السفر
محي آيها مرّ العصور وكرها	إذا مرّ العصرُ كر من بعده عصر

وهل تنطق الدار المعطلة القفر؟
 لطول البكا من شبيه الأدمع الحمر
حوادث دهر من خلانقه الغدر
 فما برحت حتى أتبع لها النصر

نسائلها أين استقلّ قطينها
 وكائن ترى من ذى ثمانين خضبتُ
بكى وطننا أودت بسالف مجده
 أغارت عليه من جنوب وشمأل

* * *

فياويح مصر ما الذى لقيت مصر؟
 بنوها فلا عزٌ لديهم ولا فخر
 فديتكمو هبوا فقد طلع الفجر!

ألا إنها مصر التى شقيت بنا
 مضى عزّها القُدْموسُ^(١) ما يستعيده
 هم رقدوا عنها فطال رقادهم

ذكرى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢

وقال عن ذكرى احتلال الإنجليز القاهرة يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ :

وأنت على ما أنت تمضى وتقبل
 ولا أنت ماكرّ الجديدان تحفل

تلومك يا يوم النحوس ونعذل
 فلا نحن ما عشنا عن اللوم نرعوى

إلى أن قال :

نفوس رجال أوشكت تململ
 بما ضيعوا الأوطان ما ليس يحمل
 وما برحت تبغى انتصاراً فتخذل

لعلك أن تأقى بما تعد المنى
 لحي الله قوماً حملونا من الأذى
 هم خذلوها فاستبيح حريها

يهاجم الاحتلال

وقال سنة ١٩٠٢ يعنى على الاحتلال بغيه وعدوانه، وعلى الإنجليز نقضهم للعهود
 والمواثيق :

ما هكذا الأحكام والحكام
 تنتابها الأدواء والأسقام
 فتنوعت في دائها الأوهام

في كل يوم شرعة ونظام
 عشرون عاما والديار مريضة
 لم يعرف المتطبّبون دواءها

(١) القدموس: القديم.

ترك العليل تذييبه الآلام
حتى يعود الداء وهو عقام
أم كيف يزجى عزها ويرام؟
عنها على زجر المهيب نيام

إن الأساة لتعلم الداء الذى
ولربما غشّ الطبيب عليه
كيف الشفاء لمصر من أدوائها
والمصلحون كما علمت وأهلها

إلى أن قال مخاطبا بريطانيا:

علما تُنكسُ تحتنه الأعلام
إن كان منك لبوثيق إبرام؟
يا هذه، نقض العهود حرام
تأقى وتذهب بعدها الأعوام
ليطول لولا الجهل منك مقام

يا دولةً رفعت على أوطاننا
أين المواثيق التى أبرمتها
لم تحفلى بعهودنا فنقضتها
عشرون عاما ما كفتك وهكذا
طال المقام وأنت أنتى ولم يكن

وقال يهيب بالأمة أن تهب للجهاد:

ستيلها أيديهم الأيام

غنموا نفائسه ونم بقية

ويدوم منه البر والإكرام
أودى بهاتيك النفوس أوام
ترعى لدى أمثاله الأرحام

عجبا لهذا النيل كيف نعقه
لو كان يجزينا بسوء صنيعنا
لكنها رجم الجدود ولم تنزل

أبدأ يكلف نصحك ويسام
عنكم وعننا ذلك الضرغام
هبي فقد أودت بك الأحلام
والمرء يُظلم غافلا ويضام
حول الحمى مستيقظون قيام
نوم عن الأوطان واستسلام
فعلهم وعلى الديار سلام

يا آل مصر خذوا نصيحة شاعر
لا تغفلوا عنها فليس بغافل
يا أمة خاط الكرى أجفانها
هبي فما يحمى المحارم راقد
هبي فما يغنى رقادك والعدى
شيطان يذهب بالشعوب كلاهما
إلا يحن للراقدين قيام

يدعو إلى البذل والتضحية في سبيل مصر

من قصيدة له نظمها سنة ١٩٠٤ بمناسبة إنشاء مدرسة محمد على الصناعية بالإسكندرية:

من يُسعد الأوطانَ غيرُ بنيتها	وينيلها الآمالَ غيرُ ذورها
ليس الكريمُ بمن يرى أوطانه	نَهَبَ العوادى ثم لا يحميها
ترجو بنجدته انقضاء شقائها	وهو الذى بقعوده يشقيها
وتودُّ جاهدةً به دفعَ الأذى	عن نفسها وهو الذى يؤذيها
سُبُلُ المكارمِ للكرامِ قويمية	فعلامَ يخطئها الذى يبغيها؟
ما أكثرُ المتفاخرين وإنما	فخر الكرامِ بإحبتِ أيديها
يحوى الكريمُ المالَ لا يبغي به	شيئاً سوى أكرومة يحويها
والجودُ يُحمد حيث كان وخيره	مانال أوطان الفتى وبنيتها
ولقلبا أرضى امرؤ أوطانه	حتى تراه بنفسه يفديها

يا آل مصر وما يؤدى حقها	إلا فتى يكفى الذى يعنيهها
هى أمكم لا كان من أبنائها	من لا يواسيها ولا يرضيها
وهبتكم الخيرَ الجزيلَ فهل فتى	منكم بحسن صنيعها يجزيها؟
سعدت لعمري بالصنائع حقبة	دلّت على (عجل) فمن يتنيها؟
دار الصنائع خير دار تُبتنى	فالله يجزى الخير من بينيها

يطعن في الملوك، ويستهجن الرتب والألقاب

من قصيدة بعنوان (الشرف والملوك)، وإذا عرفت أنه نظم هذه القصيدة ونشرها سنة ١٩٠٨ في الجزء الأول من ديوانه، لرأيت أنه أول شاعر وطنى حمل على الرتب والألقاب، وأول من هاجم الملكية والملوك بهذه القوة والشجاعة، فسبق بهذه القصيدة الخالدة عجلة الحوادث بنصف قرن من الزمان، قال:

كذَّب الملوك ومن يحاول عندهم	سُرْفًا ويزعم أنهم سُرفَاءُ؟
رُتَبٌ وألقاب تُغرُّ وما بها	فخرٌ لمحرزها ولا استعلاء

أتمنى بشر سعاتها الأمراء
من حيث جللها أسى وشقاء
ما طال منه الزهو والتخيلاء
جم المساوي والمقال هراء
ما يصنع الأغرار والجهلاء

أنا تباع وتارة هي خدعة
كم رتبة نعيم الغبى بنيلها
لو كان يعلم ذلها وهوانها
يلقى الكرامة حيث كان وفعله
تلك الجهالة والغرور وباطل

* * *

جلى تنوء بحملها الغبراء
أيدى الملوك ولا السناء سناء
ما شاءت الأهوام والأهواء
قيم الرجال ورايت الأشياء
غوت الهداة وطاشت الحكماء
فيمن يؤمل أن يبلّ الداء؟

ذنب الملوك رمى الشعوب بنكبة
لا المجد مجدا ما عبثت به
مألوا عن الشرف الصميم وأحدثوا
رفعوا الطعام على الكرام فأشكلت
وإذا الرعاية تنكبت سبل الهدى
وإذا الطبيب رمى العليل بدائه

* * *

صم الصخور وضاءت الظللاء
يشقى بها الضعفاء والفقراء
والعدل وهمم والوفاء هباء
تبقى السفينة ما أقام الماء

لو جاور الشرف الملوك لأورقت
ظلم يبرح بالبرىء وغلظة
الحق منتهك المحارم بينهم
رفعوا العروش على الدماء وإنما

يرثى مصطفى كامل

قال سنة ١٩٠٨ من قصيدة له في رثاء مصطفى كامل:

نفسا موطنة على الأهوال
شعبا يجلك أيما إجلال
حملتها من فادح الأثقال
وبقيت تكفيننا أذى المقتال

مازلت تقتحم المصاعب مجهدا
حتى طواك الموت غير مجامل
أحييته وقتلت نفسك بالذى
هلا رحمت نفوسنا فرحتها

وختمها بقوله:

إن كان قد حُمَّ الفراق فوقفة تشفى نفوسا آذنت بزوال
هيهات ما جزع النفوس لراحل سارت به الحدباء غير خيال
سرُّ فالحياة كما علمت رواية محتومة الأدواء بالأجال

يدافع عن حرية الصحافة، ويلوم الخديو عباس

قال من قصيدة له سنة ١٩٠٩ ينعى على الحكومة تقييدها حرية الصحافة، وفيها يوجه اللوم إلى الخديو عباس الثاني في خذلانه للأمة:

صَبَّوْا المداد وحطَّموا الأقاما واطووا الصحائف وانزعوا الأفهاما؛
وخذوا على الوجدان كل ثنية واقضوا الحياة مزملين نياما
ودعوا البلاد تذوق من عنت العدا ما شاء خادمها الخؤون وناما

* * *

اليومُ نُنْعِ أن نثن لمؤلم أو نشتكى الإعنات والإرغاما
والله لا ندع الشكاية منهم أو ينعوا الأوصاب والآلاما
كيف القرار على الإساءة والأذى أم كيف نكتم في القلوب ضراما؟
ومتى رضينا أن نعيش أذلة فنطيق مسكنة أو استسلاما؟

إلى أن قال يخاطب الخديو عباس الثاني ويلومه:

ماذا بدا لك فاعتزلت صفوفنا فأصبحت حرب الغزاة سلاما؟
الحرب دائرة وجيشك قائم ينضى السيوف ويرفع الأعلاما
والملك مضطرب ومصر كعهدها تدعو الحماة وتشتكى الأقواما
إن كنت خاذلها ولست بفاعل فحماتها لا يخفرون ذماما^(١)
أتخون مصر وما تحوّل نيلها سبًا وما انقلب الضياء ظلاما
نبغى لها الشرف الأشم مؤيدًا بالبأس نؤيس صرحه الهداما

(١) يقصد حماتها أبناءها المجاهدين.

ونعز رايتها وفتح حوضها
عباسُ رأيك في البلاد وأهلها
إن كان عسف فالزمان مؤرخ
ونزيد صادق جيبها استحكاما
أن الأذى يستضرم الأوغاما
يحصى لنا الحسنات والآتاما

قلمي. كتابي. أمي. وطني. متى
نشفي نفوسا تستطير أواما؟

يندد بملوك الشرق

من قصيدة له سنة ١٩١٢ بعنوان (الملك الزائل) يندد فيها بملوك الشرق لمناسبة ضياع
مراكش بعد توقيع السلطان عبد الحفيظ المعاهدة التي قبل فيها وضع بلاده تحت حماية فرنسا:

هَوَتْ العروش وُزِّلَتْ زلزالا
رَبِعَتْ لمصرعه المشارق إذ مشى
سَلَبَ المغيرُ حياته واستأصلت
تَنجُو الممالك مانجا استقلالها
أين (الخليفة) ما دهاه وما له؟
عرشٌ هَوَى وقديم مُلكٍ زالوا
فيها النعَى وأجفلت إجلالا
أيدى الجوانح عِزَّهُ استصلا
فإذا اضمحلَّ أعارها اضمحلَّ لالا
أرضى المغيرَ وطاوع الغتالا

ماقام سعبٌ نام عنه حماته
تأبى العناية أن تصافح أمةً
واستشعر التفريط والإهمالا
ترضى الهوان وتألف الإذلالا

قد كان يأنف أن يكون قرينهم
لعب الغرورُ به فضيَّع ملكه
وإذا أراد الله سيرا بامرئ
ويسعدهم لجلاله أمثالا
واعتاض منه مذلة وخبالا
تبع الغواة وطاوع الجهالا

أخليفة يعطى البلاد وآخر
أغرور مفتون وصبوة جاهل
يهوى القيان ويعشق الجريالا؟
بئس (الخلائف) سيرةً وفعالا

فظائع الإنجليز في مصر إبان الحرب العالمية الأولى

من قصيدة له سنة ١٩١٨ يندد بفظائع الإنجليز في مصر إبان الحرب العالمية الأولى:

أيها الجنند ظافراً يتمشى
يوم غاب الحماة واستصرخت مصر
أقتلت الكماة في الحرب غلباً^(١)
أنصفى (الظالمين) يا (دولة الفنا
علمينا كيف الحياة نُعا
خففى الفتك إننا قد عيننا
إقبضى ظلك (المحبيب) عنا

في الجماهير معججاً مختالاً
ر تنادى الرجال والأبطالاً
أم قتلت النساء والأطفالاً؟
روق) منا وعلمى (الجهالاً)
نيها وصونى النفوس والآجالاً
ولقينا في ظلك الأهوالاً
واجعلها عقوبة ونكالاً

إلى أن قال يندد بغدر الاحتلال:

ماذكرنا لكم من الخير شيئاً
نذكر الحكم ظالماً مارأينا
نذكر العهد شيئاً ماعرفنا
نذكر الشر والبلاء جميعاً
رصعوا(التاج)بالوفاء وحلوا
لاتريقوا دم الضعيف عليه
أكرموا التاج إنكم إن أبيتم
طال عهد احتلالكم فحسينا

مارضينا لكم على الدهر حالا
فيه عدلاً ولاوجدنا اعتدالاً
فيه حرية ولااستقلالاً
فاذكروا عهدكم وشدوا الرحالا
بجلى الصدق(عزه والجلالا)
وانظروه من فوقه كيف سالا
زاد فينا مهانة وابتذالا
أن يوم الحساب يدعى احتلالاً

إلى أن قال منذراً الإنجليز بسوء العاقبة:

هل من الله مهرب أونجاة
يأخذ البر والبحار عليكم
تلك عقبى الأذى فلاتنكروها

حين يزجى جنوده والرعالة^(١)
ويريكم نزاله والدحالة^(٢)
جاءكم يومكم فذوقوا الوبالاً!

(١) غلباً، جمع غلب.

(٢) الرعال جماعة الخيل.

(٣) الدحال، الامتناع.

فظائع الإنجليز في ثورة سنة ١٩١٩

ومن قصيدة له سنة ١٩١٩ يندد بفظائع الإنجليز في إخماد الثورة وما ارتكبه من القتل والتنكيل بالأبرياء:

من نكبة تدع النفوس شعاعاً!
يسترسلون إلى المنون سراعاً
صُرْعَى وما سألوا العدو صراعاً
عند النداء بتائها الأسماعاً
فارتاب ثم رآهمو فارتاعاً!
يدمى القلوب ويقصم الأضلاعاً
ألقى عليه من الحياء قناعاً
حتى تراجع طرفه استفظاعاً
(للمصلحين) مقابراً ورباعاً
كانوا أبر خلانقاً وطباعاً

ياسوء ما حمل البريدُ ويا لها
ياربِّ ما ذنبُ الذين تتابعوا
جرحي وما حملوا السيوف لغارة
قالوا (الحياة) فعوجلوا أن يقرعوا
(عزريل) نُبىء ما أصاب جموعهم
مرأى يشق على العيون ومشهد
لما أطل الظلم فيه بوجهه
ودعا (بنبيرون الرحيم) فما رنا
وصفو المصاب (للدنشواي) فكبرت
واستيقنت أن الأولى نكيت بهم

* * *

ومصاب أهلك جاوز المُسطاعا
وتصيبهم نُوبُ الزمان تباعا
هوج الحوادث ركنه فتداعى
وتمور مما تحمل الأوجاعا
خطب يروّع منهم الأطماعا
حمر خلا الوادى فكن سباعا

يامصر خطيئك في الممالك فادح
قومٌ يروعهم البلاء مضاعفا
لاذوا بحسن الصبر حتى زلزلت
حملوا القلوب تفور مما تصطلى
إن هاجهم طمع الحياة رمى بهم
وإذا أرادوا نهضة نفرت لهم

* * *

يرمون شعباً لا يطيق دفاعا
ونظل صرعى في البيوت جياعا
عدلا لمن يألو العدو قرعا

سفكوا الدماء بريئة وتمنروا
لم يذكروا إذ نحن نبذل قوتنا
يشس الجزاء وربما كان الأذى

جاءوا فقوم يضمرون مسودة
فتكافأ الحزبان في حاليلها
ورضى. وقوم يظهرن خداعا
ومضت حقوق العالمين ضياعا

إلى أن قال يهيب بالشعب أن يذود عن حقوقه بالمهج والأرواح والإقدام والشجاعة:

<u>لايستقلّ الشعبُ يترك حقه</u>	<u>ويرى البلاد تجارة ومتاعا</u>
يخشى العدوُّ فلا يطيق تشدداً	ويهال منه فلا يريد نزاعا
إن الحياة لأمة مقدامةٍ	تعبى العدو شجاعة ومصاعا
تزجى إليه من الحفاظ جحافلا	وتقيم منه معاقلا وقلاعا
إن شامها في الحادثات تفرقا	عقدت على خذلانه الإجماعا
وإذا أراد بها الهزيمة أرهفت	هما يضيق بها الدهاة ذراعا

* * *

<u>ياربِّ مصر تولى مصر وهب لها</u>	شعباً يريد لها الحياة شجاعا
<u>لو سيم يوماً أن يبيع بلاده</u>	بمالك الدنيا معاً ما باعاً!

يرثى فريدا

من قصيدة له سنة ١٩١٩ يرثى محمد فريد:

أترى الكنانة كيف تعبت بالدم	الله للشهداء إن لم ترحم!
أدنى المراتب في الصباية عندهم	تلف المحب وطول وجد المغرم
تزجى تحيتها فيكذب دونها	أمل الملول ومطمع المتبرم
ضل امرؤ قتلته (مصر) فلم يحن	عهد الولاء لها وحق المنعم
معشوقة يجرى مع الدم جبهها	في قلب نصرانيها والمسلم
بعثته (مصر) مجاهداً ورميت به	فرمت بجيش للفتوح عرمرم
خاض الغمار يهدّ كل كتبية	ويهز رايات الكمي المعلم
متجرداً لله يطلب حقه	ويقيم جانب شعبه المهتم
فإذا أقياصر بالأرائك تتقى	وإذا الأرائك بالقياصر تحتمى
كل به فزع وكل جازع	يبقى القرار ولا قرار لمجرم

إلى أن قال:

أرضيت ربك في جهادك فاغنم
إلا كباديء حجة لم تختتم
ضدان من ماضٍ وآخر محجم
تنفى غرام المطلب المتجهم
أن المنية مركب المتجشم
وصفوك ظلماً بالغريب المعدم
قيست كنوز العالمين بدرهم
ويقين ذى الوجدان أفضل منجم
وارتج ما بين الحطيم وزمزم

يا سيد الشهداء بعد رفيقه
ليس الذى بدأ الجهاد فلم يمت
والناس في شرف الحياة وعزها
وأجل ما رزق الرجال همامة
تتجشم الصعب المخوف وعندها
مأوى الممالك والشعوب ومالها
لك من يقينك ثروة إن قدرت
إيمان ذى الإيمان أعظم ثروة
ضج النعاة فضج كل موحد

ثم قال:

وبرئت من ماضيك إن لم تنقنى
بين المضاجع والشعوب النوم
فامشى على آثارها وترسمى
خلق المريب وشيمة المتوهم
إلا مراقبة العدى واللوم

يا مصر حسبك مارضيت من الأذى
إن التى رمت الممالك باعدت
الأر تركض بالشعوب حثيثة
إن كان قيدك لم يحلّ فإننه
سيرى فما بك غير تلك وما بنا

الله جارك فاغتبط وتنعم
نلقى الهموم يكل أغلب أضخم
لفداء (مصر) من المهم المؤلم
وقضيت من حق عليك محتم
ودعت مسلمة عليك فسلم
وكفيت سوء الذكر من لم يخدم
إلا إذا نال السساء بسلم
والحر مؤتمن وإن لم يقسم

يا نازحاً لم نقض حق بلائه
وانقض همومك عن فؤادك إننا
إن المناكب والنفوس بأسرها
ماذا حفظت لأهلها من حرمة
حيثك (مصر) على البعاد فحيها
جاوزت حسن الصنع فى خدامها
كذب المضلل لن ينالك سعيه
أقسمت مالك فى جهادك مشبه

حتى جعلت النفس آخر مغرم
ولوى الأسنة في الوغى لم يثلم
رددت من صوت الكنانة في فمي
حور الجنان إليك شعر (مخرم)
عدة المنى وتحية لم تنظم

مازلت تسرف في المغارم دائماً
أى القواضب بعد ما قطع الظبا
رددت صوتي في الرتاء وإنما
حيتك في الملاء العلى وأزلفت
أسفى لأوبة راحل لم تقضها

ذكرى فريد

وقال سنة ١٩٢٢ في ذكرى محمد فريد:

ففى هذه الذكرى حياة لأقوام
وصرف الليالى من هداة وأعلام
على فاقة ما تستطاع وإعدام
طوى كل حى ذكره بعد أيام

ألا فاذكروا من قومنا كل مقدم
وما الناس إلا الخالدون على البلى
هم ثروة الأجيال لو لاهم انطوت
إذا المرء لم يعمل لما بعد يومه

إلى المنزل الأقصى ثلاثة أعوام
إذا ما طوى الأعمار طوفانه الطامى

سلامٌ على الحى المقيم وإن طوى
على الكوكب الطافى على لجة الردى

وكونوا أولى بأس شديد وإقدام
لما يستجيش الوثب من كل ضرغام

ألا فاذكروا الأبطال وابتدروا الوغى
هى الوثبة الأولى وإن وراءها

وقال سنة ١٩٢٥ من قصيدة له في ذكراه:

وصّفوا المجد لشعب شيق
لوعة الوجد تتحى يتقى
نابه الموقف حرّ المصدق
من يهب فيها المنايا يصعق
ليظنّ السبل من إستبرق

جددوا الذكرى لأهل المشرق
يعشق المجد فان لجّت به
عَلِّموه كيف يقضى حقه
وأروه السبل ناراً ودمًا
مزقوا الأوهام عنه إنه

إلى أن قال:

يا (شهيد النيل) لو ناجيته
شاقه الصوت البعيد المرتقى
وشجاه أن يرى صمصامه
جاشت الأحداث تستقى المدى
لشفاه منك عذب المنطق
والمقام الكسروى الرونق
غير وضاح السنأ فى المأزق
وارتمت من كل صوب تلتقى

إلى أن يندد بانقسام الأحزاب وبمساوى الحكم القائم وقتئذ (نوفمبر سنة ١٩٢٥) حكم الرجعية والسراى:

سائل الأحزاب ماذا عندها
وتأمل هل ترى اليوم سوى
فات (نيرون) رجال رزقوا
لو جرى (فرعون) أو (هامانه)
سجنوا الدستور طفلا ناعما
لاجرى (النيل) على الوادى ولا
غير ترجاف وهم مقلق
دولة فوضى وحكم أخرق
من فنون الظلم ما لم يرزق
يتعاطى شأوهم لم يلحق
واستبدوا بالسجين الموثق
بورك الشعب إذا لم يُطلق

تلك ذكرى (النيل) للنفس التى
هى عين من حياة عذبة
فزعت مصر إلى أبطالها
سائل القوم أما من غضبة
لا أرى النجدة إلا فى الأولى
ننصر الله ونحمى أمة
همة المقدام من آلائها
عكف (النيل) عليها يستقى
فى يفاع من سناء مشرق
فالبس النقع وسر فى الفيلق
لذمام صادق أو موثق
هم أولو العهد الأبر الأصدق
نحن منها فى الصميم المعرق
وبيان العبقرى المفلق

الحالة السياسية سنة ١٩٢٥

فى سنة ١٩٢٥ عين اللود جورج لويد معتمدا (مندوبا ساميا) لبريطانيا فى مصر خلفا للمارشال ألنبي الذى استقال من منصبه، وقد حضر المعتمد الجديد إلى مصر فى أكتوبر

سنة ١٩٢٥، فنظم أحمد محرم قصيدة يخاطبه فيها ويحذره مغبة السياسة الاستعمارية، وفيها يتدد بانقسام الزعماء وتكبيهم سبيل الإخلاص والسداد، وهيب بالأمة ألا تقع في شرك الاستعمار ومناوراته، وأن تصمد في الجهاد. قال:

أسأل مصر ما حمل (العميد)
هو السهم الذي عرفته قدما
تمرد مبدئى وطغى معيد
(مسيح الهند) إن بصر شعبا
فما نظر المسالم أين تبغى
دع الزعماء إن لهم لَدِينًا
إذا ذكروا الزعامة فهي دعوى
ولا تبقى البلاد إذا أصيبت
لمن تتألب (الأحزاب) شتى
تداعوا للوغى فهو صريعا
مضت أسلابه تُزجى إليهم
إذا ساد التخاذل في أناس

إلى أن قال:

عميد (الغاصبين) نزلت أرضا
يذود الواحد القهار عنها
أتذكر إذ لقومك ما أرادوا
تطوف جنوده فتصيد منا
أتذكر (دنشواى) وكيف كادت
تضج من العذاب ولا سبيل
يبعد الغاصبون ولا تبعد
إذا قهرت جنودك من يذود
وإذ (لكرومر) البطش الشديد
ومن سرب الحمام ما تصيد
جوانبها بأهلها تميد
إلى غير العذاب ولا تحيد

إلى أن قال مشيرا إلى طغيان كرومر وكيف أكرهته مصر على الاستقالة من منصبه:

سيوف الجند مظهر كل حق
أتذكر إذ نعاتبه فيطغى
ورأى (كرومر) الرأى السديد
وهدر في مقالاته الوعيد^(١)

(١) يسير إلى خطبته سنة ١٩٠٧ قبيل رحيله عن مصر وقد توعد فيها المصريين ببقاء الاحتلال

أخذناه بقارعة ألحَّتْ
 صدعنا ركنه فانقضَّ هوى
 هوى جبلٍ من العدوانِ عالٍ
 ونحن القائمون بحق مصر
 ونحن المقبلون على المنايا
 نضن بمصر إن عدت العوادي
 هي الذم المصونة والعود
 عليه فزال واشتفت الكبود
 وذاب الصخر أجمع والحديد
 وزلزل للأذى صرْحُ مسيد
 إذا ما استسلم القوم القعود
 إذا الأبطال كان لهم صدود
 ولكنا بأنفسنا نوجود
 فما يبغى (كرومر) أو (لويْدُ)

* * *

أخا (السكسون) هل نبثت أنا
 لقد كذبوا عليك فليس فينا
 إذا سعت (الوفود) إليك فاحذر
 فما أحد بمالك أمر مصر
 مضت دنيا القيود وتلك دنيا
 حينما ماحى الآباء قدما
 بلاد ما تباع وباقيات
 جلاوذة لقومك أو عبيد
 لمن يبغى الهزيمة مستقيد
 عواقب ما تقول لك (الوفود)
 وما بالشعب جبنٌ أو جمود
 تُذمُّ بها وتُحتقر القيود
 وصان لنا وللتنيل الجدود
 من الآثار معدنها الخلود

يدعو إلى اليقظة السياسية، ويندد بالتراخي في الوطنية

قال سنة ١٩٢٧ من قصيدة في (الشعر السياسي):

تسعى الشعوب ونحن في غفلاتنا
 ركبوا متون العاصفات وشأتنا
 نأبى الفعال ونكثر الأقوالا
 أن نركب الأوهام والآمالا

* * *

يا باعث الموق ليوم معادها
 أعد الحياة لأمة أودت بها
 وأضئ لها سبيل النجاة ليهتدى
 وتوَّها بالصالحات ولقها
 تنساب من أجدانها أرسالا
 غفلاتها فنَّوت سنين طوالا
 من زاغ عن وضح الطريق ومالا
 منك الأمان ووقها الأوجالا

وأمنٌ عليها من لدنك بقوة
 واجمع على صدق الإخاء فضاونا
 أودى بنا بين الشعوب تباغضُ
 تستفحل النكبات بين ظهورنا
 توهى القيود وتصدع الأغلالا
 فلقد تفرق يمنة وشمالا
 صدع القلوب ومزق الأوصالا
 ويزيد معضل دائنا استفحالا
 ويصرف الأقدار والآجالا
 والله يحكم فى المالك وحده

إلى الشعب

وقال سنة ١٩٢٧ فى هذا المعنى موجها الخطاب إلى الشعب:

ادفع بنفسك لا تكن متهيبا
 شرف الحياة وعزها لمغامر
 ما اعتز فى الأقسام من يتهيب
 يمضى فلا يلوى ولا يتنكب
 لك فى حياتك غير ذلك مأرب
 أشرع لأمتك الحياة ولا يكن

* * *

مصر الحياة وحبها الشرف الذى
 نفسى وما ملكت يداى لأمتى
 بطرازة الغالى أدل وأعجب
 وسراة آبائى ومن أنا منجب
 لك بعد والدك التراث الطيب
 إن الكريم لمثل ذلك يندب
 فانظر إلى أى المواطن تنسب
 إن الكريم لقومه يتعصب
 ومن الخلال الصالحات مؤدب
 شمر إزارك أن نُدبت لنصرها
 ما لمراء إلا قومه وبلاذه
 ليس التعصب للرجال معرة
 للمراء من شرف العشيرة زاجر

حكم التاريخ

من أنعم التاريخ أن حسابيه
 تقف الخلائق تحت راية عدله
 حق وأن قضاءه لا يُشجب
 فيقام ميزان الحقوق ويُصب
 فيداس فيه متوجج ومعصب
 يحميه منه وما لجليل مهرب
 ملك الزمان فما لعصر موئل

يخاطب النيل

يانيل والموفون فيك قلائل
 قُتل الوفاء فما غضبتَ وإنما
 تهب الحياة له وليس لقاتل
 مَنْ لى بشعب فى الكنانة لا القَوَى
 متألب يبغى الحياة كأنه
 أين الرجال العاملون وإنما
 ليت الزعاف لمن يخونك مشرب
 يحمى الحقيقة من يغار ويغضب
 فى غير حكمك من حياة توهب
 تنشق منه ولا الهوى يتشعب
 جيش على أعدائه يتألب
 تبقى المماك بالرجال وتذهب

وطن يعذب فى الجحيم

فلسطين الشهيدة

من قصيدة نظمها سنة ١٩٣٨ عن مأساة فلسطين:

لبيك يا (وطن الجهاد) ومرحبا
 لبيك إذ بلغ البلاء وإذ أبى
 من ذا يرى دمه أعزُّ مكانةً
 وطنٌ يُعذَّبُ فى الجحيم وأمةٌ
 بقلوبنا الحرى وفى أحشائنا
 وبننا من الألم المبرح ما بها
 نتجرع البلوى ونسدرع الأسى
إننا لنعلم أن آكل لحمهم
 جعلوا الكفاح عن العروبة حرثهم
 يسقون مازرعوا دماً فى مخضب
 (البيت) يطربُّ من أنين جراحهم
 لبيك من داعٍ أهابَ وثوباً
 جدُّ الزمان وصرفه أن نلعباً
 من أن يُخضب من (فلسطين) الرُبى
 أعززُ علينا أن تُصابَ وتُنكبا
 ما شَبَّ من أشجانتها وتلَّهبا
 وأرى الذى نلقى أشدُّ وأصعباً
 نرعى لإخوتنا الدمام الأقرباً
 سيخوض منا فى الدماء ليشرباً
 وتعهده فكان حرثاً طيباً
 لولا الدمُّ الجارى لأصبح مجديبا
 رأيت فى الدنيا أنيناً مطرباً؟

وقال يحمل ساسة بريطانيا وأمريكا مسئولية مأساة فلسطين:

إن الذى زعم السلام مُرادُه
 إن كان قد غمَّرَ الزمانَ وأهله
 جعل الدماء سبيله والمركبا
 كذباً فمن عاداته أن يكذباً

أرأيت إذ سكب الدموع غزيرةً
متصِّعٌ باسم الضعيف يُرِيْقُهَا
ما كان أصدق نُسْكَه لو أنه
يَهْذِي بِذَكَرِ الْعَدْلِ فِي صَلَوَاتِهِ
يا أبا الحياء لثلها أن يُسْكِبَا
وهو الذي تَرَكَ الضعيف مُعَذِّبَا
رحمَ البريء ولم يُجَابِ المذنبَا
أرأيت عدلا بالدماء مُخْضِبَا؟

وقال يهب بالأمم العربية أن تهب لنجدة فلسطين:

رُسِّلَ العروبة هل أُسَيْتَم جُرْحُهَا
جُرْحٌ تَقَادِمُ عَهْدِهِ وَتَفْتَحَتْ
أَنْتُمْ أَسَاءَ الْجُرْحِ فَاتَّخِذُوا لَهُ
وَصَفَّ الدَّوَاءَ لَكُمْ وَخَلَّفَ عِلْمَهُ
ما باله استعصَى وماذا أعقبا؟
أفواهه تدعو الأساءة الغيِّبا
مِنْ طِبِّ شَيْخِ أُسَاتِكُمْ مَا جَرَّبَا
فِيكُمْ فَأَيْنَ يَرِيدُ مِنْكُمْ مِنْ أَبِي؟

يا قومُ لستم بالضعاف فغامروا
أفما كفاكم قوَّةً من دينكم
يا (أَلْ يَعْرَبُ) مَنْ يَرِينِي (خالدا)
من شاء منكم فَلْيَكُنْهُ وَلَا يَقل
السُّرُّ باقٍ والزمانُ مجدِّدٌ
وخذوا مطالبكم سراعا وُثْبَا
ما جَمَعَ الإِيمانَ فِيهِ وَأَلْبَا
يُرْجِي الخميسَ وَيَسْتَحِثُّ المِقْنَبَا
ذهب القديمُ، فإنه لن يذهبَا
والسيفُ ما فقد المضاءَ ولانْبَا

رُدُّوا المظالمَ عن محارمِ أمةٍ
لم يَعْطِ أوطانَ العروبة حَقَّهَا
رُدَّتْ ظَنُونٌ ذوى الجهالة خيِّبا
من كان يطمع أن تُبَاعَ وتوهبا

يشفق على الفلاح

ومن قصيدة له بعنوان (رحلة عابسة) سنة ١٩٤٠، وقد مر ببعض القرى وتحركت شاعريته
إشفاقاً على الفلاح. قال:

ويلى على فلاح مضر أماكفى
يُغْنِي أَلوفَ المترفين بماله
سيحان من شرع السبيل لخلقه
ما ذاق من عنبٍ ومن إرهاق
ويعيش في فقْرٍ وفي إملاق
أكذا يكون تفاوت الأرزاق؟

أحمد نسيم

١٨٨٠ - ١٩٣٨



شاعر مبدع، من أعلام الشعر الوطني، يمتاز بجذالة الأسلوب، وتدفق المعاني والأحاسيس الوطنية في قصائده، لا يقل شعره رواء وحسن ديباجة عن شعر شوقي وحافظ وأحمد محرم.

ولد سنة ١٨٨٠، واعتنق منذ صباه مبادئ الوطنية، وتجلت مواهبه الأدبية وهو في سن مبكرة، فامتزجت الوطنية بروحه الشعاعية، وتمشت في قصائده الغر، وأضفت عليها جمالا ورونقا وبهاء، وجعلت لها رنيناً موسيقياً يأخذ بجماع القلوب.

سمى (شاعر الحزب الوطني)، واعتز هو بهذا اللقب، وسجله في ديباجة ديوانه الذي ظهر في جزءين سنة ١٩٠٨ وسنة ١٩١٠، وأهداه إلى المرحوم محمد فريد زعيم الحزب الوطني إذ ذاك، قال في كلمة الإهداء:

رئيسي المحبوب

«أما بعد فأني أتشرف بإهداء الجزء الثاني من ديواني إلى سعادتك لاحتوائه على القصائد الوطنية التي نظمتها ما بين سنتي ١٩٠٩ و ١٩١٠ ميلادية، وقد اعتمدت في نقلها على الصحف التي تفضلت بنشرها مبقياً ديباجتها كما هي حتى لا يغرب عن ذهن القارئ على مدى الأيام وصف الحادث الذي نظمت القصيدة بسببه».

«وإني إذا أهديت ديواني إلى سعادتك فكأنني أهديته إلى الأمة المصرية التي يمثلها حزبكم الموقر».

أحمد نسيم

شاعر الحزب الوطني

ويعدّ نسيم ثاني الطبقة الأولى من شعواء الحزب الوطني، وأولهم أحمد محرم، وثالث الثلاثة المعاصرين أحمد الكاشف الذي سنتحدث عنه فيما يلي، وجميعهم تبدأ أسماءهم (بأحمد).

وتبدو مكانة نسيم الممتازة في عالم الشعر من قول إسماعيل صبرى شيخ الشعراء في تقریظ الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠٨ :

لك في الشعر يا (نسيم) معان باهرات تحار فيها العقول
كل بيت يُطلُّ منه على أفهام أهل النهى محيًّا جميل

ولما ظهر الجزء الثانى سنة ١٩١٠ قرظه صبرى أيضًا ببيتين آخرين رقيقين قال :

أى غُصن في الرّوض هَزَّ (نسيم) نُثِرَتْ منه هذه الأزهارُ
حبذا شعره الجنى وأهلا ببيان تُزهى به الأشعارُ

يؤيد مصطفى كامل في قطع علاقته بالخديو

قال نسيم مخاطبا مصطفى كامل بمناسبة كتابه إلى الخديو عباس الثانى بقطع علاقته به سنة ١٩٠٤ :

خطيب الشرق لا تلوى العنانا وأمضاهم إذا كتبوا يراعًا
وأذلقهم إذا نطقوا لسانا لقد دافعت دهرًا عن بلاد
فأنت المرء أوقرهم جنانا وكم رُمّت العلاء لِقَوْمِ مصر
وأذلقهم إذا نطقوا لسانا وكنت أشد من فيها جنانا
لقد دافعت دهرًا عن بلاد كما عاف المذلة والهوانا
بقلب عاف أرزاء الليالى

وجانبت الأمير وأنت تنوى وكم من فُرقة صعبت فهانت
فعالا لا يكون بها مُداننا فزِدنا مصطفى وازدد ثباتنا
وكم من طارئ أخنى فهانا مدحتك لا لجائزة ولكن
يَزِدك القوم شكرًا وامتنانا هدية شاعر اظل يُطرى
وجدتك خير من يُهدى البياننا فكن للشرق ساعده المرجى
ويمدح فيك أخلاقا حسانا
تزرِك قصائدى أنا فانا

يهاجم المعتمد البريطاني

ومن قوله سنة ١٩٠٧ مخاطبا اللورد كرومر لمناسبة رحيله عن مصر بعد خطبته التي هاجم فيها المصريين والإسلام:

يا لورد هل لك في الإسلام من غرضٍ
هجوتَ قومي وما فارقت أرضهم
رأيتُ أنك لست المرء تصلحنا
غادرتها وهي للتقرير صارخةً
فلا رماك الحيا إلا بداجنةٍ .
ترمى إليه بسهم منك مسنونٍ؟
حتى تجرأت أن تنحى على الدين
ولست فينا على مصر بمأمون
إلى الإله بقلب منك مخزون
تهمى عليك بزقوم وغسلين

يمجد الشرق ويحزن لحالته

قال يمجد الشرق ومصر ويحزن لحالتها:
تداعت رواسي الشرق فانهار جانبه
تحاربه الأعداء من كل جانب
تحدد على هاماته سفراته
وحسبك أن الشرق في كل أمة
تخرج منه الفاتحون لأرضه
وكم كان للشمس المضيئة مطلقا
إلى أن قال:

وما الشرق إلا موطن عبثت به
أضاعوا حمى يجرى النضار بأرضه
على غرة أبنائه وأجانبه
وتهمى عليه باللجين سحائبه

يهاجم أسرة محمد على

وقال سنة ١٩٠٨ يخاطب مصر ويهاجم أسرة محمد على وهي في إبان سلطانها:

رثيتك يا أرض الفراعنة الألى
ورنت بفضل العلم عزاً ممنعا
قضوا في بلوغ المجد ما الحق واجبه
فبا بات إلا وابن غيرك غاصبه

ولا خير في عرشٍ من الغرب رَبِّهِ
أفيقى فما في الجهل إلا مذلة
أنيرى ظلام الشرق بعد انسداله
ولا تقنطى من رحمة الله مرةً
وددت بلادى أن تسود بنفسها
ولا خير في مال من الغرب كاسبه
ولا العلم إلا سُوددَ عَرَّ صاحبه
فعند طلوع الشمس تجلو غياهبه
إذا شيم من برق انخذالك خالبه
لأكتب فيها خير ما أنا كاتبه!

يدعو الأمة إلى الجهاد

ومن قوله سنة ١٩٠٨ يدعو الأمة إلى الجهاد والذود عن حقوقها واستقلالها:

هَلُمَّ ندافع جهدنا عن بلادنا
كذلكم الرئبال تعروه سورةً
ومن فقد استقلاله عاش هينا
هلم نخض غمر الصعاب إلى العلا
عسى يسعد الجد الذى مال نجمه
ألم نك كالليونان أهلاً للمجلس
ألم نك كالبلغار والصرب في الحجا
ألم نك أرقى من ممالك لم تقم
أليست بلاد النيل أوّل أمة
ععلوم وأخلاق وفضل وهمة

وقال يفند مطاعن كرومر على المصريين:

فحتّام ذبّاك العميد ينوشنا
فطوراً يعاديننا بتقرير كاشح
وياليتنه ردّ الدليل بمثله
إذا عجز المقهور عن قهر خصمه
بناجذ سرحان وظفر عقا
وطوراً يناويننا بنشر كتاب
وخفّض من طعن له وضراب
لدى البطش لم يلجأ لغير سباب

يرثى مصطفى كامل

وقال سنة ١٩٠٨ في رثاء مصطفى كامل من قصيدة تزيد على ستين بيتاً:

ما بال دمعك لا هامٍ ولا جارى
هل اكتفيت بما في القلب من نار؟

جفّت دموعك من عينيك واستترت
ضاع الصواب ونفس المرء ساهمة
فيها لواعج أحزان وأكدار
ما بين أقضية تجرى وأقدار

* * *

يا طائرَ البين لا قرّبت من سكنٍ
نعيتَ خير فتى كنا نُؤمله
ولا هدأت بأفنان وأوكار
يوم الرجاء لأوطان وأوطار
فلميرح الذئب ما شاءت مهانته
لا أيّد الله أعداء أذهم
حتى أقاموا بدار الذل والعار
فقد غفّت عنه عين الضيغم الضارى

* * *

يا بائع الصبر إن الناس في جزع
ما زال يدأب حتى خانته قدر
فبع لهم كل مثقال بدينار
ألقي عليه عصا دأب وتسيار

وقال يصف الجنائزة واحتشاد الجموع فيها:

أعزّز على حامله فوق أعينهم
كأنما النعش عرش زانه ملك
أن يرجعوا بأكف منه أصفار
يشى الهوينا بإحلال وإكبار
كأنما الناس حول النعش مائجة
فلو يعدّون ما أوفى بهم عدد
كصيب القطر لا يحصى بمقدار
هزيم رعد أجش الصوت هدار
كأنما لجب الباكين من هلع
كأنما الأرض قد سدّت طرائقها
بالناس من ثابت فيها وسيار

ومن قصيدة أخرى له سنة ١٩٠٨ في رثائه:

أملّ نأى عن أرض مصر وزالا
يا نائبا عنا وكنت محسدا
أصمى القلوب وقطع الأوصالا
فينا كما كنت الشريف فعالا
مدّت إليك يد المنون فأنشبت
بقلوبنا قضا لها ونصالا

إلى أن قال:

إننا سنبقى ذكر فضلك خالدا
قد كنت أفضل من يذود لسانه
لنكون في صدق الوفاء مثالا
فليسقى شؤبوب الحيا لك موحشا
عنا وأصدق من يقول مقالا
قد ضم مجدا بينه وجلالا

يؤيد فريداً في جهاده

قال سنة ١٩٠٨ مخاطباً محمد فريد رئيس الحزب الوطنى مؤيدا له في جهاده:

هذا يراعك يحكى السيف ما كتبنا	إجهر برأيك إن الحق قد غلبنا
ومن يظن الدجى صباحا فقد كذبا	أرى المضلين قد زاغت بصائرهم
ولا يهزك مغرور إذا غضبا	يسر في طريقك لاتحفل بدمهم
ولا تؤمل من إحسانهم رتبا	لأنت ترجو افتقاراً منهم نشبنا
حتى تراهم وكل في الوغى هربا	لازلت بالحق بين القوم تحذهم
واسل يراعك واكتب عنهم العجبا	فاهزم كتابهم وافلل مضارهم

يندد بوزارة مصطفى فهمى

وقال في نوفمبر سنة ١٩٠٨ يندد بوزارة مصطفى فهمى على أثر سقوطها، وكانت موالية للاحتلال:

باتت على دارس أعفى من الطلل؟	ما للوزارة ذات الضعف والفشل
في كل نائبة أو حادثة جلل	وزارة بلغت بالسوهن غايتها
وودعت غير مأسوف على رجل	ترحلت غير مبكى على أحد
فذكره بعد في التاريخ لم يزل	إن زال مجد الفتى أو زال منصبه
إلى جمودك في أيامك الأول	يا هيئة الصم بيني غير راجعة
ولا على صولة الأيام من قبيل	وزارة مالها في الخير سالحة
<u>بلا لسان ولا قلب ولا عمل</u>	<u>كانت تماثيل بين القوم قائمة</u>

يندد بالخدو عباس

وقال في ديسمبر سنة ١٩٠٨ حين تنكر الخديو عباس الثانى للحركة الوطنية، وحيل بين جموع الشعب والأقتراب من موكبه لمطالبته بالدستور:

خطوب ما لها أبداً نصير	وأمر حل في مصر خطير
لئن كرهت حياة الشعب يوما	فخير لو تفتحت القبور

أيارب الأريكة قدرضينا
وهبنا نطلب الدستور جهرا
أغيرك في الملوك وأنت أدرى
فهل خدعتك في البهتان ناس
بأنك لا تزار ولا تزور
ألا يرضيك ذياك الشعور؟
له شعبٌ على البلوى صبور؟
أرادوا أن يسوء بنا المصير؟
ويبكي من عواقبها الخبير)

يمجد الوطنية في رأس السنة الهجرية

وقال سنة ١٩٠٩ في الاحتفال بعيد رأس السنة الهجرية (١٣٢٧) الذي أقامته لجنة الحزب الوطني الفرعية ببولاق بمدرسة الشعب يمجد الوطنية ويخاطب فريداً:

قد مثلونا في التعصب مثلما
كذبٌ قد أبتدعوه حتى ما لهم
بأن الضلال من الهدى وبدا لنا
يا أمة ثبتت على كيد العدى
سيرى إلى طلب (الجلاء) ولاتنى
أفريد لا تخذل بلادك بعدما
هذى الشبيبة قل لها لا تحجمي
لك من يراع الكاتين صوارم
ترمي العداة إليك سهم سمومها
دعهم كما شاءوا ليوم حسابهم
إنا قد اخترناك خير مدافع

قد شاءت الآنام والأوزارُ
في مصر إلا الكيد والإضرار
في منهج الحُقِّ القديم منار
لا تجزعى إن الثبات فخار
تمنح من العلياء ما نختار
مُجعت لديك أولئك الأنصار
ما في ثبات المقدمين شنار
ولديك منهم جحفل جرار
ويذود عنك الواحد القهار
فلهم كما شاء الهوى أطوار
يرضى به الرحمن والمختار

وفي سنة ١٩١١ ألقى قصيدة أخرى في تحية السنة الهجرية (١٣٢٩) بالاحتفال الذي أقامته الطلبة لهذه المناسبة بدار التمثيل العربي يوم أول يناير سنة ١٩١١، وقد حضره المرحوم محمد فريد، وأشار الشاعر في مطلع قصيدته إلى ما أصاب الحركة الوطنية من اضطهاد في العام السابق. قال:

تجلى العام فاستجلوا الهللا
سأطريه متى عزت بلادى
فإني شيمته للسعد فالأ
وقد رزقت كما رزق الكمالا

وأمدحه متى قمنا بمصر
فأما والبلاد وساكنوها
فلمست بناظم فيه قريضا
وأرجعنا لها ذاك الجلالا
يزيد الدهر حالتهم نكالا
ولا أنا قائل فيه مقالا

* * *

إلا نطالب الأعوام خيراً
تمر وتنقضى منها ليال
وتلك ممالك الإسلام كادت
ولم تنعم لنا الأعوام بالآ؟
بأرزاء الزمان غدت حُبالي
صروف الدهر تخيلها خبالا
فلست أخصها بالذكر عنا
ونحن من البلاء أشد حالاً

* * *

أيما عامما تقضى بشس سهم
فقالوا هل صروف العام كانت
هموم لو رشقت بها فؤاداً
رमित به الغوائى والرجالا
نزاعاً قلت بل كانت نزالا
لكانت في جوانبه نبالا
لقد حملتنا للضيم عبنا
ثقيلا لا نطيق له احتمالا
وقد أجريت دمع القوم حتى
كأنا كلنا قوم ثكالى
ولولا ذكر أحمد^(١) كل عام
لما صُغنا لك الذكر الحلالا

المضى فى الجهاد

أرى فُرَّقاً قد افتترقت بمصر
أناس أخلصوا من بعد زينغ
وأقوام قد أرتدوا جهاراً
ورامت عن أوصلها انفصالا
وقال الناكسون كفى غلواً
فساءوا فى عواقبهم مآلا
خلائق فى المكارم لم يمدوا
وإلا ذقتهم منه السوبالا
أولئك عصبه بالخزى باءوا
يمينا للفعال ولا شمالا
فسموا الخزى والجبن اعتدالا

(١) يقصد الرسول ﷺ.

وقال يخاطب الشباب:

غَدُوا لِلنَّشْءِ بَعْدَهُمْ مِثَالًا	أُنَابِتَةُ الْبِلَادِ وَخَيْرَ نَشْءٍ
عَرَى الْقُرْبَى فَنَنْخِذْلُوا أَنْخِذَالًا	عَلَيْكُمْ بِالْإِخَاءِ وَلَا تَفْلُوا
إِذَا لَمْ تَحْسِنُوا عَنْهُ النَّضَالًا	سَيَنْدِبُ حِظَّهُ الْوَطْنَ الْمَفْدَى
وَلَا تَشْكُوا السَّامَةَ وَالْكَلالَا	فَجَدُّوا فِي عِلْمِكُمْ صَفَارَا
بِلا عِلْمٍ فَقَدْ رَامَ الْمِحَالَا	فَمَنْ رَامَ الْكُوكِبَ وَالْدِرَارَى
فَلَا تَنْسُوا بِرَبِّكُمْ الْقِتَالَا	وَإِنْ صَرْتُمْ رِجَالَ النَّيْلِ يَوْمَا
حَصِيفٌ وَاجْعَلُوا الْحَسَنَى جَدَالَا	وَذُودُوا عَنْهُ مَا اسْطَعْتُمْ بِرَأَى
عَلَى رِغْمِ الْخُطُوبِ وَلَنْ يَزَالَا	وَمَا زَالَ الرَّئِيسُ ^(١) لَكُمْ كَفِيلَا
تَزِيدُوا عُرْوَةَ الْوُدِّ اتِّصَالَا	وَكَوْنُوا لِلْأَجَانِبِ خَيْرَ عُونَ
مَحْمُوتُمْ عَنْكُمْ قَيْلَا وَقَالَا	إِذَا عَشْتُمْ وَإِيَاهُمْ بِخَيْرِ
نَسِيمٍ فِي قَصِيدَتِهِ تَغَالَى	لَقَدْ أَوْجِزْتَ خَيْفَةَ أَنْ يَقُولُوا:

الجهاد في سبيل الدستور

وقال يستحث الأمة على طلب الدستور وعلى الاتحاد والثبات في ميدان الجهاد:

فَلَاتَفْكَوْا عَرَى الْقُرْبَى وَلَوْ رَجَعْتَ	عَنْكُمْ شَفَارَ الظُّبَا مَخْضُوبَةً بِدَمٍ
وَلَا تَضِيعُوا مِنَ الدِّسْتُورِ فِرْصَتَهُ	فَتَقْرَعُوا السِّنَّ مِنْ ذَلٍّ وَمِنْ نَدَمٍ
إِنْ تَبْأَسُوا فَانْتِهَاءَ الْيَأْسِ مَسْكِنَةٌ	أَوْ تَسْأَمُوا فَاحْتِمَالِ الذَّلِّ فِي السَّامِ
مَا نَالَ قَطَّ الْمَعَانِي وَهِيَ دَانِيَةٌ	قَوْمٌ نِيَامٌ وَشَعْبٌ غَيْرٌ مَلْتَمِمْ
خَيْرٌ لَنَا الْمَوْتُ مِنْ عَيْشِ نَكَابِدِهِ	مَعَ الْهَوَانِ إِذَا كُنْتُمْ ذَوَى شَمَمٍ

ذكرى مصطفى كامل

وقال في فبراير سنة ١٩٠٩ في ذكرى مرور العام الأول على وفاة مصطفى كامل، وقد ألقى

(١) يريد الزعيم محمد فريد وكان حاضرا الاحتفال. وكانت النيابة العامة قد استدعته لاستجوابه في تهمة صحفية باطلة، ثم أحالته إلى محكمة الجنايات، وقد حوكم فعلا وقضت عليه المحكمة ظلما في ٢٣ يناير سنة ١٩١١ بالسجن ستة أشهر.

هذه القصيدة في دار اللواء بين يدي محمد فريد وأعضاء الحزب الوطني قبل أن يتحرك موكب الذكرى بالسير:

ما بال عينك بالمدامع تسجُم
قد عادت الذكرى فجددَ عودُها
يا يوم كامل كنت يوماً قائماً
يا يوم لا كانت طلائعك التي
رفقاً بنفسك فالقضاء محتم
بين الحشا جرحا يشور فيؤلم
كالليل أقبل وهو أسود أقتم
بالنحس أنذر وجهها المتجهم

وختمها بقوله مخاطباً محمد فريد:

أفريدُ يا ابن الأكرمين تحيةً
أفريد يقرئك السلامَ معاشرُ
حصنت بيضتهم وصنت ذمارهم
ركبوا مطايا الحزم نحو رئيسهم
من شاعر لعقود مدحك ينظُم
مدوا إليك يد الولاء وسلّموا
بعزيمة قد أصغرت ما استعظموا
إذ أنت بينهم الأجل الأحزم
فالرأى في بعض المواقف مخذم
فاضرب برأيك في مواقف حمة

يهاجم الاحتلال في إبان سلطانه

قال سنة ١٩٠٩ من قصيدة يحمل فيها على الاحتلال ويفضح نكته بعهوده ويستنهض الهمم للجهاد، وقد بدأها يستصرخ الإنسانية لتمد إلى مصر المكافحة يد العون والتأييد، وهى من عيون الشعر الوطني:

يا نَاشِرِينَ لواء العدل في الأمم
مُدُوا إلينا يدا بيضاء نشكرها
إننا مُنينا بأقوام جبابرة
لو استطاعوا لساقونا أمامهم
جاءوا إلينا وفي أيانهم سرف
قالوا لنا: إننا جننا بلادكم
حتى تخدرت الأعصاب وانسدلت
ولم يزالوا على هذا الدعاء وهم
الله في أمة أنت من الأملر
عند التحدث شكر الروض للديمر
ما بين مغتصب منهم ومحتكم^(١)
ما بين متهم منا ومجترم
يموهون به في العهد والقسم
نبنى لكم ركن مجد غير منهدم
على العقول سجوف البطل والوهم
لا يقصدون سوى الإخاد للهمم

(١) يريد المحتلين.

حتى إذا انتبهت منا جوارحنا
حَكَّوا القلوب فأذكوها ورُبَّتْها
فلا عهد لهم ترعى ولا ذمم
صَبَّوا على مصر سَوَطا من تعنتهم
هم أخرجونا بهذا الضيم من زمن
وأدرك الحال فهمُ الحاذقِ الفهم
أدَّى إلى النار حَكَّ البارد الشيم
كما استباحوا الدينا النكث في الذمم
وأججوا في حشاهها جَمْرَ بَغِيهم
فإن همنا بدفع الضيم لم نلَم

* * *

يا قائمين بأمر النيل حَسْبُكم
ناموا هنيئًا قريرى العين أن لنا
ما أخرج القوم من ظلم ومن غشم
عَيْنًا من الشعب لم تغفل ولم تنم

وقال فيها يدعو الشعب إلى الاعتماد على نفسه:

أنت يا شعب وادى النيل كن حَكْمًا
كم أمة حكمت في مصر وارتحلت
سَلْ أمة الروم هل أبقت لنا أثرًا
مضوا ولم يتركوا في مصر مآثرة
هذى عجائب هذا القطر من زمن
فليس غيرك من مستنصف حكم
عنها حليفة جد بعد لم يقم
يبقى على الدهر أو سَلْ أمة العجم
ينبيك عنها لسان النيل والهزم
وتلك حالات وادى النيل من قدم

يحيى جريدة العَلَم

قام في سنة ١٩١٠ خلاف على ملكية (اللواء) بين بعض ورثة المرحوم مصطفى كامل، طرح أمره أمام القضاء، وعين حارس قضائى على اللواء، وكانت صحيفة الحزب الوطنى، وأراد الحارس أن يتدخل فى تحريره وتوجيه سياسته، فرفض المرحوم محمد فريد هذا التدخل، وأنشأ جريدة (العلم) وجعلها لسان حال الحزب الوطنى، وابتدأ ظهورها يوم ٧ مارس سنة ١٩١٠، فحيها نسيم بقصيدة بديعة، قال:

ألا فليخفق (العَلَمُ) الجديد
أياعَلَم البلاد عليك منى
أرى الأعلام معلقها بناءً
برَبِّكَ خَبْرُ الأَقْوام عنى
يمينا إن طالعه سعيد
سلامُ الله ما خفقت بنود
ومعقلك الجوانح والكبود
بماتنوى الوزارة والعميد^(١)

(١) وزارة محمد سعيد والعمد إلدون جورست معتمدا بريطانيا.

رفعت لنا وبالأبصار شك
فجئنا من لدنك بكل فأل
وإن كنا نرى الأعلام شتى

* * *

أيَا(عَلَم) البلاد أرى احتلالا
أصرَّ على الجفاء ونحن شعب
وكم من جذوة في القلب شبت
فقل لهم أثيروا كل عسف
متى ينأى احتلال النيل عنا
قَضُوا فينا بما شاءوا وصدُّوا
لقد فرحوا بما أوتوا فجاروا
ضروب في المكاييد يوم تُحصى
وكم ودَّوا الشقاء لأهل مصر
مكاييد يفزع التاريخ منها

* * *

أقول الحق لا أخشى انتقاما
أإنَّ المضميم فقال رفقا
إذا مدَّوا حبال السوء يوما
يَهَمُّ إليه (طاغية) مريد
تشدُّ له السلاسل والقيود؟
فإن الله يومئذ شهيد

* * *

أيَا(عَلَم) البلاد إليك شعرا
ودونك عقد نظمي من جان
يريد الشامتون بنا نكالا
فكن في الحق مثل الحق يمضى
ولا تتبع هواهم بعد علم
فليس بنافع فيهم رشاد
تردده التهائم والنجود
ومن درر يقال لها قصيد
(ويأى الله إلا ما يريد)
يكنُّ لك بينهم بأس شديد
يضلوا في الغوالة أو يزيدوا
ولا من بينهم رجل رشيد

إلى الزعيم محمد فريد في سجنه

في سنة ١٩١١ حوكم الزعيم محمد فريد أمام محكمة الجنايات بتهمة أنه حبّد الجرائم وأهان الحكومة إذ كتب مقدمة لكتاب (وطني) الذي تضمن قصائد نظمها الأستاذ على الغياثي، ومع أن هذه المقدمة كتبها الزعيم دون أن يطلع على محتويات الكتاب وقبل أن يتم المؤلف وضعه ثم سافر الزعيم إلى أوروبا في مايو ولم يظهر الكتاب إلا في شهر يولييه، وليس في المقدمة ما يقع تحت أي نص من قانون العقوبات. ومع ذلك فقد أقامت عليه النيابة الدعوى العمومية، وكان الغرض من محاكمة إرهابه وتهديد أنصاره واضطهاد الحركة الوطنية، وقد حكم عليه في ٢٣ يناير سنة ١٩١١ بالحبس ستة أشهر في هذه التهمة الباطلة، ونفذ فيه الحكم يوم صدوره.

فنظم أحمد نسيم قصيدة من روائع الشعر الوطني بعنوان (إلى الرئيس في سجنه) حيّاه فيها بأبلغ تحية، وعبر عن الشعور العام بإزائه أصدق تعبير، قال:

فأصبرُ على المقدور ستة أشهر	ياليتَ سجنك لم يكن بمقدّر
بعض الرثاء وأنت لما تقبر	قد جلّ رزؤُ التمر حتى خلّته
لجعلته مثل الشواظ الأحمر	لولا احترام الحاكمين وحكمهم
أقصرا أم كنتَ غير مقصر ^(١)	أقصرتَ في ما قلتَ حتى لم تسَلْ
بالمُدْرَه المشهور أو بالأشهر	وتركت أقيالالذفاح فلم تعن
من أكبر يطأ الثرى أو أصغر	يكفيك عطفُ العالمين ووجدهم
وتزلزت أرض (الصفاء) و (المشعر)	حتى لقد ماد (البقيع) و (يشرب)
رب المحامد والعلل والمفخر	التعاع قلبُ (محمد) لمحمد

* * *

فظننتُ أنك واقف في المنبر	إني نظرتك في اتهامك واقفا
لهواكها بين اللظى المتسعر	لتقول شعبي أو بلادى إننى
خلف الشباك جلوس من لم يُدْعَر	ولقد رأيتك جالسا مستبلا
فهى العرينُ وأنت أجزأ قسور	فرايتُ في هذا الشباك معانیا

(١) يشير إلى إيجاز الفقيه في جوابه على أسئلة المحكمة وعدم استماتته بمحاميل للدفاع عنه إيمانا منه ببطان التهمة وتحديا للمؤامرة التي اتخذت شكل المحاكمة.

تعتز بينهم بقدر أوفر
أم «جواهر» يختال بين العسكر

ولقد لمحتك ماتميا في ثلّة
فسألت هل هذا المسور «خالد»

من شاعر بسوى الأسي لم يشعر
فاردد مكايدهم إليهم وانحر
ما قيمة الإنسان إن لم يُذكر؟
لعبت لعبا بالنضار الأصفر
لشأوت في العلياء نجم المشتري
من مظلم في ذاته أو نير

أفريدُ يا ابن الأكرمين تحيةً
في مصر قوم ناوأوك بشرهم
ذكروك في حب البلاد وأهلها
لو كنت ممن تاجروا بضميرهم
أو كنت ممن يطلبون مراتبا
وسبقت أجرام السماء وفُتها

مستجمعا للطارئ المتنمر
ما فضل مفتول الذراع غضنفر؟
تهدى سبيل الطارق المتنور
وغدا مُناه ورود هذا الكوثر
بك من كريم الأصل زاكى العنصر
جاءت بعيش بالهموم مكندر

أ (محمد) كن في النوائب ضيغاً
إن بت أنت من الفوادح جازعا
أشرق لعلك بين سجنك مشرقا
فالشعب بعدك بات ينتجع العلا
أنعم بسؤددك العظيم ومرحبا
أعزّز علينا يا ابن «أحمد» حالة

ظلمات غيم في السماء كنهور
أو دمة مخبوءة في محجر
وضياع نفحتها إذا لم تستر
حذرا عليه من القذى والعثير
أو بعض مكنون القضاء المضر

فكأنه بدرٌ يحجب نوره
أو ذرة مكنونة في زاخر
أو زهرة فيحاء خيف ذبولها
أو ناظر غمضت عليه جفونه
أو أنت سر الكائنات محجب

بالفادحات من الزمان الأكر

إلى أن قال:
أحمد ما أنت أول مبتلى

إني عهدتك خير من يسدى الورى
 فاشهرُ لدى الأهوال عزمًا صادقًا
 ما الناس إلا اثنان ذاك ميسرُ
 جلّ الإله فقد أرائنا علمه
 بانث مراحمه بأكمل رونق
 لولا الفؤاد وما أصاب دقينه
 لولا مراس الداء صغت قصيدة

* * *

عفوًا رئيسَ المخلصين فإننى
 قد جئتُ أزعجى فى القريض خريدة
 عطرية فيحاء طورًا عن شذا
 فيها معان صاغها لك مبدع
 فاخلع عليها من خلالك نفحة
 لى فيك ملء الخافقين لآلىء
 فعليك منى ما حييت تحية

ما رمت إلا جل عفوك فاغفر
 قد بات يحسدنى عليها (البحترى)
 ورَدٍ وطورا عن أريح العنبر
 جم البيان خياله لم يحصر
 حتى تضوع بنفح مسك أذفر
 زهر تبيع بها الرواة وتشتري
 وسلام كسرى فى الملوك وقيصر

يحيى الوحدة الوطنية

قال سنة ١٩١٩ يحيى الوحدة الوطنية والتآخى بين المسلمين والأقباط:

أقباط مصر ومسلموها ضمهم
 الناشئون على الطهارة والتقى
 والخالدون إلى السكينة كلما
 برح الخفاء وبان أننا أمة
 إننا لندرجو أن نعيش بغبطة
 دين المسيح وشرعة الإسلام
 والقائمون بمصر خير قيام
 جاء الزمان بشدة وعرام
 لم تبغ غير محبة ووئام
 توحى السلام وتنتهى بسلام

يرثى فريدا

قال سنة ١٩١٩ من قصيدة فى رثاء محمد فريد:

رمانا الزمان بإحدى الكبر
 ومنه العظاظ ومنه العبر!

رماه القضاء بها والقدر
كسرب النجوم فقدن القمر
ولم تسترح من عناء السفر
وورد الردى ماله من صدر
ولم يجفها عند مس الكبر
ولم يبق إلا اجتناء الثمر
فقال من العيش أقصى الوطر؟

شهيد تصارع في حومة
وخلف من بعده أمة
أقى جثة سافرت للبلبل
منى أوردته حياض الردى
تعلقها عند سرخ الصبا
وأيمنع في روصها غرسه
وأى امرىء عاش أقصى المدى

إلى أن قال:

وطوبى لحى وعى وأذكر
فقد حصدت كفه ما بذر
وأطبقها بعد طول السهر
فأدى الحقوق وأسدى البدر
لكل ضريك إليه افتقر
فهان على نفسه ما ادخر
يرى المال يفنى وتبقى السير
إذا نزل القبر لا ما يذر
بأى فصاح كآئى السور
كمن شاع صيب له وانتشر
على صفحات العلى مستطر
وأسلس من فوق جمع نثر
فكم من جواد كبا أو عثر
فيانى الفجائع حتى ضمير
كوارث كاسرة للفقير

هنيئاً لميت نعتة العلى
وحسب فريد منى نالها
فتى أغمض الموت أجفانه
أفاض على قومه ماله
طوبل نجاد الجدوى عائل
رأى الحرص عارا على نفسه
وكان بصيرا بعقبى الندى
وأخلد ما للفتى ذكره
وكم صامت ناطق فى الثرى
وليس الذى ذكره خامل
وليس بميت أغر اسمه
خطيب المنابر منطقها
فإن يكب يوماً بضماره
وما زال ينهب فى عدوه
وحتى دهنه بأعناتها

وختمها بقوله:

وأودى «فريد» حميد الأثر

أرى «كاملا» راح فى شرخه

زعيماً بلاد خلت منها،
عزاء العلا عنها أمة
وشعب سعى نحو آماله
وما من ضعيف القوى واهن

«أبو بكر» مات وولى «عمر»
تنادت لتجديد مجد دثر
بعز توعد حتى استعر
تشبث بالحق إلا انتصر

يجيب جريدة الأخبار

قال سنة ١٩٢٠ يجيب المرحوم أمين الرافعي لمناسبة إصداره جريدة الأخبار:

ياوحى أسعفى ينظم قلادة
هذا (أمين الرافعي) ومن له
يا (رافعي) لأنت أصدق مخلص
جَرْد يراع المخلصين وذُدُّ بها
واحذر على (الأخبار) من آفاتها
اليوم هنأت البلاد بكاتب

صِغَتْ لألثها من الأشعار
خير السجايا الغرِّ والآثار
للنيل في الإعلان والإسرار
بطش القوى وصوله الجبار
إن (الرواة) لآفة الأخبار
ملكته يدها صحيفة الأحرار

يندد بالانقسام ويدعو إلى التآخي

وقال سنة ١٩٢١ حين استند الانقسام بين سعد وعدلى وأنصارها، يندد بهذا الانقسام ويدعو إلى توحيد الصفوف:

قالوا انقسمنا فقلنا فتنه عمم
ولم نكن غير جيش راكب طرفا
حتى يرف لواء الفوز منعقدا
وكيف نُقسَم والتاريخ يثبتنا
فحاذروا أن تحلوا عقد شملكم
ونظمو ما استطعتم من صفوفكم
ولا أحدثكم عن إرثكم عجبا

بها تُفل مواضى العزم والهلم
شقى المسالك من سهل ومن أكم
على الزمان بحق غير مهتم
أن الفلاح لشعب غير منقسم
فتقرعوا السن من حزن ومن ندم
فالجيش إن بعره الإخلال ينهزم
فمنه كان بسزوغ المجد والكرم

والمجد يدرك بالأعمال منجزة
لا درك المجد بالألفاظ والكلم

أحمد الكاشف

١٨٧٨ - ١٩٤٨



من الرعيل الأول من شعراء الوطنية، ولد سنة ١٨٧٨ بالقرشية من بلاد مركز السنطة غربية، وهو ابن المرحوم ذو الفقار الكاشف، وجدّه من ضباط الجيش المصرى الذين خاضوا غمار المعارك فى عهد محمد على، تلقى علومه الأولية فى منزل والده بالقرشية، ثم التحق بمدرسة الأقباط الابتدائية بطنطا حتى استوفى دراسته، ثم عاد إلى بلدته وأقام فيها، ومالت نفسه منذ صباه إلى الشعر والأدب، وكان الشعر طبيعة له وسليقة، فعكف على المطالعة وأكب على كتب الأدب ودواوين الشعراء المتقدمين يدرسها ويستوعبها، فحاكاهم فى الأسلوب والبلاغة، واتجهت نفسه إلى نظم الشعر فى المعانى الوطنية، فجادت قريحته بشعر وطنى من الطراز الرفيع، ووقف حياته على هذا اللون من الشعر، وعاش عمره عيونا أبا، معتكفاً فى بلدته (القرشية)، وفى ذلك يقول عن نفسه:

ولقد تحاشيتُ المدائن زاهداً وبسدت أطلب وحدةً وسكونا
لا أرتضى غير الطبيعة مأنساً والذكر كأساً والقريض خدينا
وله قصائد عصاء نظمها فى مختلف المناسبات، وعبر فيها أبلغ تعبير عن أحاسيسه ومشاعره الوطنية، وظل وفيًا لمبادئه طول حياته، وتألق شعره فى سماء الأدب والوطنية، وبلغ الذروة فى هذا المجال.

اتفاقية السودان

قال عن اتفاقية السودان التى أكرهت مصر على إمضاها سنة ١٨٩٩ على أثر انتصار الجيش المصرى فى السودان.

انتصرنا وما الذى قد جنينا ه من النصر بعد طول العناء؟

ماجنينا سوى (الوفاق) جزاء
وإذا شارك الضعيف قويا
إن هذا الوفاق شرّ جزاء
في منال فحظه كاهلباء

الجندي في المعركة

وطنى أنت الحبيب الدائم
وغرامى بك طبع لازم
لك أسعى دائباً مجتهدا
لأبالي في طريقي أبداً
وطنى أفديك بالروح إذا
وأرى اللذة في دفع الأذى
دمت يا نيل أبر الأنهر
دمت تجرى يا شبيه الكوثر
دمت يا صحراء ميدان الجنود
مظهرا للباس من بيض وسود
لك في قلبي المقام الأشرف
سرّنى أنى به متصف
برجاء ثابت مقتدر
طال ليلى أو نغادى سهرى
مسك الدهر يسوء لا يطاق
عنك بالنيران والبيض الرقاق
بنفوس كم رأت منك وفاء
مُهدى الوادى هناءً ورخاء
بين قطريك اللذين اتحدا
يضمن النصر لنا والسوددا

قصيدته في اللورد كرومر سنة ١٩٠٧

لما رحل اللورد كرومر عن مصر على أثر حادثة دنشواى، شيعه الكاشف بقصيدة ندد فيها بطغيانه وجبروته، قال:

أعيا عزائمك القضاء الأغلب
أرأيت كيف يُفاجأ السباق في
وليث تبدو في زخارف مخلص
غافلتهم حيناً فلم يتلفّفتوا
وطوى صحيفتك الزمان القلْبُ
غاياته ويقاطع المتوتّب
للقوم تخفى ما اعتزمت وتحجب
إلا ونابك فيهم والمخلب

وذكر حادثة دنشواى وكيف فرح المصريون بإقصائه عن منصبه:

وختمت عهدك بالذى اهتزت له
وتنفس الصعداء شعبٌ حاملٌ
ماذا كسبت وأنت عنا راحلٌ
إلا الجفاء وبئس هذا المكسب
أركان (مكة) واستعادت (يثرِب)
هنا يضيق به الفضاء الأرحب

ينذر الإنجليز

وقال يخاطب الإنجليز وينذرهم سوء العاقبة:
 قلدتم الرومان في استعمارهم هلاً ذكرتم منتهى الرومان؟
 اليوم سؤددكم وسؤددنا غداً كم أدرك المتعادي المتواني
 رحاكم فينا لنذكركم إذا دار الزمان وحالت الحالان
 إنا لترجو من بنينا عُدَّةً لا عُدَّةَ الجيران والضيفان

يندد بوزارة مصطفى فهمى

قال في أبريل سنة ١٩٠٨ يدعو وزارة مصطفى فهمى إلى الاستقالة، وكانت بغیضة إلى الشعب:

أفى كل يوم يشهد النيل نابغا يعيش ففرجوه ويُقضى فنجزع^(١)
 وليس لكم فى موسم الحى مظهر وليس لكم فى ماتم الميت مفزع
 لقد ستمت تلك الكراسى مكنكم فهلا شعرتم وهى تشكو وتضرع^(٢)
 وهلاً اعتزلتم منصباً لا ينيلكم من الأمر إلا أن تذلوا وتخضعوا؟
 أخاف عليكم أن تموتوا وأنتم أضر من العادى علينا وأشنع
 فإن ستمت أن يعفوَ النيل عنكم ويكبركم أبناء مصر ويرفعوا
 فخلوا وزارات البلاد لأهلها إذا أرعد الجبار لم يتزعزعوا
 إذن لرأيتم ما رأى من كرامة ومرحة ذاك الشهيد المشيع^(٣)

يمجد الفلاح ويمدحه

وقال يمدح (الفلاح المصرى):

إذا استبقيتُ فى الدنيا حبيبا فخير أجبتى فلاح مصر

(١) يشير إلى مصطفى كامل وقد توفى فى فبراير سنة ١٩٠٨.
 (٢) مكنت وزارة مصطفى فهمى تتولى الحكم ثلاثة عشر عاماً من نوفمبر سنة ١٨٩١ إلى نوفمبر سنة ١٩٠٨، وكان عهدها خضوعاً وتسليماً للاحتلال البريطانى.
 (٣) يشير إلى مصطفى كامل.

كريم يملأ الوادى ثراه ولا يَلْقَى سوى الإجحاف أجرا
 فقيرٌ ما أراه شكاً افتقارا ولو يُجْزى على تعب لأثرى
 فمحرثٌ يشقُّ الأرض عندى ويخرج من ثراه الخصب تبرا
 كسيف في يد الجندى لاقى به جيشا وحِصْنا مُشْخِراً

صلته بمصطفى كامل

كان الكاشف صديقاً ونصيراً لمصطفى كامل، وكان لدعوة الزعيم وتعاليمه صداها في قصائده، وكان مصطفى يقدره ويعجب به ويسميه (شاعر الغريبة النابغة)، وكثيراً ما كان هو يردد كلمات مصطفى كامل ومعانيها ويصوغها في قالب شعري رفيع.

قال عن صلة الخطابة بالشعر:

ولئن هزرت العالمين فإن من تلك الخطابة هذه الأشعرا

وقال يردد كلمة مصطفى كامل (لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً):
 لو كنتُ في الخلد أو في غيره ملكاً وددت لو أننى في مصر إنساناً!
 وقال في محاربة اليأس:

وما معنى القنوط وأنت حىٌّ وما معنى القنوط مع الحياة؟

وقال في قيمة الاستقلال:

إن البلاد بلا استقلال صاحبها قفراً لديه وإصبحن جنات

ولما مات الزعيم رثاه الكاشف بمرثية رائعة بلغت نحو مائة بيت، قال فيها:
 لطفى عليك وقد رحلت اليوم لم تدرك لغرسك في البلاد ثمارا

إلى أن قال يشير إلى الرحلة التي كان يعتزم الزعيم القيام بها في الشرق:

لطفى وما لانتك (يثرب) ضيفها وخطيبها المسترسل المكثرا

لطفى عليك ولم تسر متفقدا في الهند إخوانا لمصر حيارى

لطفى ولم تنقل من اليابان ما يهب البلاد حضارة وعمارا

قد كنت مزعم هجرة لو قدرت قربت أعوانا لمصر كبارا

وجعت بين السابقين وأمة مهضومة تتبع الآنارا

ثم يستنكر على وزراء مصر. وقتئذ تخلفهم عن تشييع جنازة الزعيم خشية إغضاب الإنجليز، قال:

ويل الذين تخلفوا عن مشهد مَشَت الملائك حوله إكبارا
هل يعرضون ترفعا وتكبرا أم يسكنون تهبيا وحذارا؟

ثم يصف احتشاد الأمة يوم تشييع الجنازة قال:

يا قائد الأبطال هذا جيشك الـ جرّار فانظر جيشك الجرارا
يوم كيوم الحشر ضمهم وكم رحبت في أرب لهم مضمارا
فلئن بكوا فلقد بكيتهم وهم غرباء في أوطانهم وأسارى
أو يحملوك على رءوسهم فقد أصدتهم فوق النجوم فخارا

وختم مرثيته بقوله:

أشهدت مصر على علاك ونيلها وصعيدها والنبت والأحجارا
لو لم تسل قطع النفوس لشيدوا منها لك التمثال والتذكارا
ما مات من ورثت مناه أمة تجرى على منهاجه استمرارا

يحمل على سياسة الوفاق، ويعاتب الخديو عباس الثاني

في سنة ١٩٠٩ كانت سياسة الوفاق بين الخديو عباس الثاني وإنجلترا تسيطر على الجو السياسي في مصر، وكان هدف هذه السياسة محاربة الحركة الوطنية، وبدأت مظاهر هذه السياسة في تنكر الخديو للكفاح الشعبى ومناصرتة للاحتلال وسياسته.

نظم الكاشف هذه القصيدة سنة ١٩٠٩ يحمل فيها على سياسة الوفاق ويخاطب الخديو عباس الثاني ويعاتبه ويحذره مغبة الاستنامة إلى وعود الإنجليز، وهى من أبلغ قصائده وأقواها:

أهلاً وسهلاً بالوفاق ومرحباً لو كان فيه قضاء ما وعدوكا
إن كنتَ مشرطاً (الجلاء) فواجبٌ لك أن نودهم كما ودوكا
خير لنا أن يعلنوا البغضاء من أن يعلنوا ذا الموثق المفكوكا
حاستنتهم لتردّ عنا شبهة كم حاربوك بها وما حربوكا؟
ما كان حُباً ما ترى لكنه كتمّ المخائِلُ سرّه المهتوكا
أرأيت كيف وشى بكل مهذب حرّ قكان الإِفك المأفوكا؟

اليوم يشكونا إليك وما بنا غير الوفاء وفي غد يشكوكا
أعياء على أوهامه ووعيده هذا المراس فقمام يستصفيكا

ماذا ترى في غاصبين يسوءهم أنا نحس وأننا نروكا
أتخاف شكوى المخلصين ولم تخف فيها مضى عدوان مضطهديكأ؟
يأليتهم جعلوا القيود لكل ذى نظر وما انتقموا بأن حجبوكا
هل كان مُسْمِعُكَ السَّلامَ مشاغبا أم كان غير مشوق رائيكأ؟
إننا وإياك ابتليناهم فهل صدقوا الورى يوما وهل صدقوكأ؟
أولى بهم وقد اتهمنا نصحهم أن لا تصدقهم إذا نصحوكا

أرهم مراسك قبل أن يستأسدوا إننا لنخشاهم إذا أمنوكا
يا حبذا يوم (الجلأء) ولا نرى جندا يصول ولا دما مسفوكا

يخاطب اللورد كتشنر

في سنة ١٩١١ عين اللورد كتشنر معتمداً لبريطانيا في مصر، وكان معروفاً عنه الصلف والغطرسة، فاستقبله الكاشف بقصيدة رائعة تفيض وطنية وشماً وإباءً. قال في مطلعها:

مهلاً لتمتحن الطريق خطاكا إن كلفوك لغاية إدراكا
في مصر شعبٌ لا يُضام ومالك^(١) متفرد لا يقبل الإشراكا
ما أنت حابس نيلها يوماً ولا أهرامها مهدومة بقواكا
الله أكبرُ من جيوشك سطوة والدهر أبعد من مدى مرماكا

إلى أن قال:

هل يُذنب الجرحى إذا هم حاولوا دون الضواري صيحةً وحرাকা؟
لسنا قطيعاً غابَ راعية كما كنا ولست الضيغم الفتاكا

(١) لعله يقصد المالك الأمة فهي مصدر السلطات ولا تقبل إشراكا في سيادتها.

إن كنت طلق الوجه أو متجهها
ولعل شأنك في مشييك غير ما
فإنه يعلم منتهى نجواكا
أسلفته في عنفوان صباكا
إلين قال:

وأذكرُ لوادى النيل نعمته عسى
فإذا تجاوزت الكنانة فافتتح
في غير مصر ذرائع ومواقع
ولئن غضبت على الأباة فصبرهم
فأعرف لهم عذر الحريص إذا هم
تُعطيُ بنيه بعض ما أعطاك
ما شاء عزمك واصعد الأفلاك
للمستزيد مطامعا وعراك
أولى وأجمل من رجاء رضاكا
لم يسلموا لك ما تنال يداكا

يبشر بالاشتراكية

في أعقاب الحرب العالمية وبعد توقيع معاهدة الصلح في فرساي (مايو سنة ١٩١٩) بين ألمانيا والحلفاء، نظم الكاشف قصيدة عصماء تناول فيها شتى المعاني السياسية والوطنية. فمن قوله يبشر بالاشتراكية:

للاشترائية العقبى إذا شملت
فلا الكثيرون ملكاً للأقلينا
ولا نرى واحداً ملأى خزانته
ولا نرى درة في رأس محتكم
سقى الشعوب وجاراها المجارونا
ولا الأقلون ملكاً للكثيرينا
بالمغنيات وآفا يجوعونا
تهفو إليها قلوب المستظلينا

يندد بغدر الإنجليز وتنكرهم لمصر

وقال في هذه القصيدة يندد بغدر الإنجليز وتنكرهم لمصر بعد أن عاونتهم في تلك الحرب:

يا نائلين من الحرب العوان سوى
نَجوتُم من رزاياها ومالكُم
مدُّ الحديد لكم في كل مرحلة
ورابطوا لأعاديكم على هدف
ما كان منتظراً منها ومظنوننا
لا تذكرون وفاقا غير ناجينا؟
وذللوا لكم أطواها لينا^(١)
وألحقوا النيل بالأردن ساقينا

(١) يشير إلى تسخير العمال المصريين في مد السكك الحديدية في سيناء إلى العريش أثناء الحرب العالمية الأولى.

وكم عتبخ على قوم لأجلكم
وقلتُم لم ينل قومٌ بغير دمٍ
ونال من دمنا في عصر جندكم
فهل غسلتم خطايا الأبرياء به
أستهيئون بالإنسان ماثلكم
هبوا حَمَى مصر والسودان مزرعةً
ورثتم خصمكم ميتاً وصاحبكم

* * *

جربتمو مصر في تقييدها زمنا
أمتنمُ مصر فيما نال أمتكم
وقلتُم: مصر للهند السبيل فإن
أما إلى الهند إلا مصر من سُبُل
يهدد الهند أهلوه وجيرته
خافوا سوانا وأعطونا أمانينا
وإن فردا. لذي ملك يرُّ به
عن أى شىء لمصرٍ تسألون وقد
بالسيف والنار يدعو الناس جندكم
ضَعُوا السلاسل عنا واطلبوا جدلا
وربما قبلت دعواكم دولٌ
لَيْتَ الذى حَرَمَ الألمان غايتهم
وليت من زاد قوما قوةً وغنىً
أتسفكون لظلوم دماءكم
وهل وفيتم بميثاقٍ لمصر كما

فجربوا مصر في إطلاقها حيناً
فأى سىء على مصر نخافونا؟
ضاع السبيل أضعنا الهند ساهينا
ملأى شواهين أو ملأى سراحينا^(١)
ولا يزال سبيل الهند مأمونا
فما تضرُّكم يوماً أمانينا
خيرٌ له من جماعات يثورون
هزّت مسائل مصر الهند والصينا^(٢)
وتطلبون من الصرعى مجيبينا
تروا أدلة مصر والبراهينا
وأق مصر أباهُ غير راضينا
أخاف قوما سواهم لا يبالونا
يرعى ويحرس أقواماً مساكينا
وبالكلام على عانٍ ترضوننا؟
رعتنمُ العهد للبلجيك موفينا؟

(١) السراحين: الذئاب.

(٢) يسير إلى تأليف الحكومة البريطانية للجنة المعروفة بلجنة ملنر بدعوى البحث عن أسباب ثورة سنة ١٩١٩ والوسائل للملاحة هذه الأسباب.

كم أعجبتكم من الأحرار عزتكم
فهل ذكرتم وأكبرتم لنا غرضا
كم أنجب البطل الأحداث عالية
كنا أمانة دهر عندكم وأتى
وقد أقر مصر كل منتصف
قد أصرت على استقلالها فعلى
كانوا موالين أو كانوا معاديننا
كما ذكرتم وأكبتهم (وشنطونا)^(١)
وأنجب الحدث الأبطال عالينا
وقت الأداء فهل أنتم مؤدونا؟
بحق مصر فهل أنتم قرونا؟
أى المآرب أصبحتم مصرينا؟

يحذر قومه من التحالف مع بريطانيا

وفي هذه القصيدة (التي نظمها في أواخر سنة ١٩١٩) يحذر قومه من فكرة التحالف بين مصر وبريطانيا. قال:

أواهبون لمصر كل ما طلبت
وإن رفعتم عن الوادى حمايتكم
وإن تروا بدلا منها (مخالفة)
إنا لنعجز عن حق الحليف وعن
وما مجاورة الأقوى وشركته
ادعوا بنى مصر أندادا لكم ودعوا
وغادروها لأكفاء تجارهم
يفدون مصر وإن شاكت منابتها
وإن تدفق في البيداء منصرفا
أحرار مصر تبارمهم حرائرها
أم آخذون بمقدار ومعطونا؟
فما اسم لاحقتها فيما تُسمونا؟
فمن لنا بضمانات المساوينا؟
حق الشريك وأنتم تستزيدونا
إلا كما جاوز العصفور شاهينا
ولاية مصر ملوكا أو سلاطينا
تغنيهم عن تكاليف المشيرينا
وإن جرى نيلها مهلا وغسلينا
وإن أقام وراء السد مخزوننا
ففاديات كما نرجو وفاديننا

يندد بالاستعمار والطغيان

وفي هذه القصيدة يندد بالاستعمار والطغيان ويحملها مسئولية الحرب الطاحنة التي أكتوت الشعوب بنارها. قال:

أمضى على الصلح قوم يعيشون به
وقد نأى عنه قوم غير مُمضينا

(١) جورج واشنطن محرر أمريكا، وكان على رأس الجيش الوطنى الأمريكى الذى حارب الإنجليز وقد اعترفت بريطانيا باستقلال الولايات المتحدة سنة ١٧٨٣ بعد أن انتهت الحرب بظفر الأمريكان.

تنفس الصعداء اليوم بعضهم
 هل يعرف الدهر حربا كالتى شهدت
 صناعة هي يعتز الملوك بها
 أم كانت المرض الموروث في دول
 ما كان أكبر آثام الأنعام وما
أين الأسرة والتيجان أسأها
الرافعين على الأشلاء دورهم
 جنت على ملكهم أسلاب غيرهم

إلى أن قال:

دانت لعسكر (ولسون) جبابرة
 أغرى البرية باستقلالهم ونأى
 وأين ما صنعت آراء ولسونا^(١)؟
 عنهم وهم بالذى أغرى يهمونا

القوة سناد الحق

والحق في كل عصر فاقد سندا
 فذو السلاح هو المرهوب جانبه
 إن لم يجد طلبا بالبأس مقرونا
 إذا انثنى الأعزل المغلوب مغبونا

أمل مصر في بنيتها

وختم هذه القصيدة الرائعة بقوله:

من لم ير اليوم في العمران موضعه
 ونحن أولى بأن نرعى مواطننا
 لم يلق في غده دنيا ولا ديننا
 نوفي المكاييل فيها والموازيننا

مؤتمر لوزان

الحق للقوة

في سنة ١٩٢٣ ترامت الأنباء عن مؤتمر لوزان بأنه يخذل مطالب الشعوب الشرقية فقال
 الكاسف يدعوها إلى القوة والتعاون في مكافحة الاستعمار:

(١) ولسون الرئيس الأسبق لجمهورية الولايات المتحدة الأمريكية. يشير الشاعر في هذا البيب والأبيات الثالثة إلى مبادئ
 ولس التي أعلنها حين دخول أمريكا الحرب إلى جانب بريطانيا وحلفائها وكيف تنكر لها بعد انتصار الحلفاء.

فد يفعل البأس ما لاتفعل الحُطْبُ
والحق منقلب في الغرب مغترب
ودونه في سوى لوزان مضطرب
ودون ما يبتغيه الهول والنُّوب

عودوا إلى البأس بعد اللين فهو لكم
لا حق للسرق إلا في معاقله
هل يملك الحكم في (لوزان) خصمكم
ما كان (كرزون) بالموفى لأمته
إلى أن قال:

يقضى الحديدُ عليها فيه واللهب
فالشرق أسوان والإسلام ينتحب
والبيت منتهبٌ و (القدس) مغتصب
من الدم الحرّ لا الدمع الذي سكبوا
بُدلُ النفوسِ له بعض الذي يجب
فالأرض تحمله حرا أو الشُّهب

إني لأشفق من يوم على دُولٍ
ممالك الشرق والإسلام تذكرة
أين الأمانة والميناق بينكم
مجد الرجال على مقدار ما بذلوا
ذودوا عن الوطن الغالى وعن شرف
ومن أراد حياة العز طيبة

في الغرب ينتظر العقبي ويرتقب
ماخطه في فروق الفتية النجب
في سائر الأمر جدّ القوم أولعبوا
وأنه أمل الأبرار والأرب
وليس يعلم ما يأتي به رجب

ياوافتد الشرق جواً بلا سند
مصير كل قبيل بعد جولته
فصل الخطاب لهم بعد القضاء غداً
أين السلام وأين العاملون له؟
كل يد وراء الغيب غايته

يتندر على عيد ١٥ مارس سنة ١٩٢٢

قال من قصيدة له في مارس سنة ١٩٢٣ يتندر على عيد الاستقلال الذي جعلوا تاريخه يوم
١٥ مارس سنة ١٩٢٢ حيث أعلن الملك فؤاد استقلال مصر على أثر صدور تصريح ٢٨ فبراير
سنة ١٩٢٢:

يا عيد الاستقلال أن
للعتيق أم للرق ما
أبهرجان تحفى الـ
ت له خيال أم حقيقه؟
خطوه في تلك الوثيقه
ظمأى وتحتفل الغريقه؟

وتنال مصر مرامها
يتكلفون^(٢) الصالح
إن أطلقوا أمس البلا
وحديقة أضحت ول
وإن استبدَّ بنيلها
من بعد ماسدوا طريقه^(١)
ات لها وتأبها السليقه
د فمهم ليست طليقه
كن للغريب جنى الحديقة
قتل الشقيقة بالشقيقه^(٣)

وأحرَّ أكبادٍ إلى
هذا زكئ دَمى لها
حرية الوادى مشوقه
أجد الرضا في أن أريقه

أتحاذلُ زعماء مصر
أى العقاب أحق بال
عاد الغريم لمصر يع
فإن افترقتم عنده
ر أمام هاوية عميقة؟
رجل الذى يؤذى رفيقه؟
بس بعد خدعته الدقيقه
كنتم جميعكم فريقه

يحذر من نوايا الإنجليز ويدعو النواب إلى أداء واجباتهم

وقال من قصيدة له يوم ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ وهو اليوم الذى اجتمع فيه البرلمان الأول
وكان سعد زغلول يتولى رئاسة وزارة الأغلبية.

سلاما على حصنكم والعلم
سلاما على ذلك الملتقى
ورعياً لندوتكم فى الأمم
سلاما على ذلك المزدهم

إلى أن قال:

أمانة مستوثق معلن
وهذا غريمكم^(٤) الملتوى
لكم من سرائره ما كنتم
تجمل بعد الأذى واحتشم

(١) يشير إلى الإنجليز الذين وضعوا العقبات أمام مصر فى جهادها لتحقيق أهدافها.

(٢) الإشارة هنا أيضاً إلى الإنجليز.

(٣) مصر والسودان.

(٤) يقصد الاحتلال.

تسوّى بغاياته عابساً
 وعابودها فاتنا فابتسم
 إلى أجل أم إلى منتهى
 مراميه يلزمكم ما التزم
 وهل ينجلى الأفق أم يرتى
 بعاصفة بعد هذا النّسم
 ولو كان يعرف عُقبى النزا
 ع في الحق من زمن لا نحسم

وقال يدعو إلى التآخي وصفاء القلوب بين المواطنين:

وليس يقال فريقُ هفا
 وليس يقال فريقُ ظلم
 يضيع على مصر هذا النعي
 وما أنا بالأمن المطمئن
 أعد المرابط في المسلكين
 إلى المستعد الذي لم ينم^(١)
 وهل يترك الذئب عاداته
 ومن ملك المسلكين اقتحم
 وإن لبس الذئب ثوب الغنم؟

* * *

وداهية مرجف بالذي
 وليس الذي قاله حجة
 وهل يستطيع اغتصاب الرقا
 وما صنعت بالمغير القلا
 وحسبكم شملكم عُدّة
 وما أحسن العفو من قادر
 سيجلو عن الأرض جبارها
 ولا دولة لسوى المصلحين
 تعدّى به غيره فانهزم
 فقد ألفت الناس هذا النغم
 ب من جراس النفوس اصطدم
 ع صنّع إبانكم والشمم
 وحسبكم صبركم معتصم
 إذا ما اشتهى حاقداً وانتقم
 ويلبث فيها كريم الشيم
 ولائلك لأهل الهمم

عيوب الحزبية

وقال سنة ١٩٢٥ من قصيدة له حين اشتد التنافر بين الأحزاب، يدعو إلى نبذ الخصام:

وقفت وما أدري أعُدّ حوادثنا
 تدور أمامي أم أعُدّ ذنوبنا
 تحملت عن قومي نصيباً من الأسى
 ولم أرج من أجر الجهاد نصيباً

(١) يريد الانجليز.

أرى فرجا للأمتين قريبا
إذا لم يكن خلق الرجال خصيبا

وأمعنت في غيب المقادير علني
وليس بمن أمة خصب أرضها

* * *

فلم أر إلا ساليا وساليا
توالت صنوفا بينهم وضروبا؟
أرى بين أبناء البلاد حروبا
فصال شمالا واستطال جنوبا
إذا لم يطيعوا نافذا وحسيبا
رفاقا كما يلقي العليل طبيبا

تنازع قومي اليوم جنداً وقادة
مبادئ أحزاب أرى أم منافعا
تقضت حروب العالمين ولم أزل
بقومي على قومي استعان غريبهم
فمن لهم بالمنفذ الأمر حازما
يردهم بعد القطيعة والنوى

قريتي

قصيدة نظمها بهذا العنوان سنة ١٩٣٦، يصور فيها حياته في بلدته (القرشية) ويؤثرها على حياة المدن، قال:

وملتقى الآل حولي كل أمالي
ولست للقوم غير العم والخال
منهم على أمم شتى وأجيال

جمعت في العيد حولي سائر الآل
أبنا دعوئي ومالي فيهم ولد
كأنني وهم في الدار مطلع
إلى أن قال في إيثاره الإقامة في الريف:

من الرجال ولا لاهٍ وختال
فيسا ملكت وماء فيه سلسال
بكل ناحية همى وأشغالي
لم ألقها من رجال غير جهال

أقمت في الريف لا أشقى بطاغية
وعشت بالرطب من بقل وفاكهة
أطلت فيها اعتزال العالمين ولي
لقت في عشرة الجهال عاطفة

يحذر قومه من مفاوضات سنة ١٩٣٦

وعرج في هذه القصيدة بالمفاوضات التي كانت جارية وقتئذ بين مصر وبريطانيا وأسفرت عن معاهدة سنة ١٩٣٦، فحذر قومه من مقبة هذه المفاوضات، قال:

ولم أزل بينهم للخصم متقيا
دخائلا هي في ذهني وفي بالي

٢٢٩

أخشى على رسلهم نياته وهم
وما تزال كما كانت سياسته
وموضع الند أرجو عنده لهم
وقد يكون لهم من ضيقهم فرج
منه أمام جلاميد وأدغال
يدور فيها بأشكال وألوان
لا موضع الصيد من أتياب رنبال
كما تُدافع أهوال بأهوال
وظل الكاشف في قرينته وعزلته، وفيًا لشعره ومبادئه، إلى أن أدركته الوفاة في ٢٩ مايو سنة

.١٩٤٨

* * *

محمد عبد المطلب

١٨٧٠ - ١٩٣١



هو الشاعر البدوي البليغ، والمجاهد الوطني الصميم، محمد عبد المطلب، ولد سنة ١٨٧٠ ببلدة (باصونه) من قرى مديرية جرجا لأيوين عرييين مصريين من سلالة قبيلة جهينة إحدى قبائل جزيرة العرب، وكان والده رجلاً صالحاً متفهماً، فأرسل ابنه إلى الأزهر وتلقى فيه العلم نحو سبع سنين، ثم انتقل إلى (دار العلوم) ومكث بها أربع سنوات، وتخرج منها عالماً أديباً، وتولى التدريس في مدارس الحكومة، واختير مدرساً بمدرسة (القضاء الشرعي)، ثم مدرساً في (دار العلوم)، ونضج علمه، واكتمل شعره وأدبه، فصار من فطاحل الشعراء الذين

يستار إليهم بالبنان، ولما شبت ثورة سنة ١٩١٩ ساهم فيها بشعره وأدبه وجهاده، وخلّد حوادثها بقصائده الغر، وكان حجة في الأدب واللغة، وشعره يجمع بين البلاغة والجزالة وروعة الأسلوب، وبلغ في مكانته الشعرية منزلة فطاحل الشعراء المتقدمين، وكانت الروح الوطنية الدفاقة تتجلى في معظم أشعاره وقصائده؛ وله في هذه الناحية إنتاج ضخم يصلح في ذاته أن يكون ديواناً مجتمعا من الشعر الوطني؛ وقد ظل على إنتاجه الشعري إلى أن أدركته الوفاة سنة ١٩٣١.

روحه الوطنية

إن أحسن وصف لروحه الوطنية ومساهمته في الجهاد وخاصة في ثورة سنة ١٩١٩ ما قاله في رثائه صديقه وزميله الشاعر محمد الهراوي إذ يقول عن (جهاده الوطني):

فذاك وإن جدّت خطوبٌ وأجلّبت
فإنك لُلجلى وللحادث الجدّ
تخاطر والجنّد المدجج محقق
وتقضى وصوت (الموزيّات) كالرعد
فتبكي وتستبكي العيون على الحمى
وتعدو على العادى عليه وتستعدى
وتخطب حتى تستشير وتننى
وقد حميت أناف قومك من وقد

وما هالك الجنْدُ الذى كان محمداً
نزلت عن النفس الكريمة فديّةً
ونفسك من فرط الحمية في جُند
إلى الوطن العاني، كذلك مَنْ يفدى

مصر أثناء الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨

قال من قصيدة له يصف ما عانتها مصر أثناء الحرب العالمية الأولى، وينعى على الإنجليز
بغيرهم وعدوانهم وإعلانهم الحماية في ديسمبر سنة ١٩١٤، ويندد بفظائع السلطة العسكرية
البريطانية في سنى الحرب:

وعادت رياض النيل نازراً جحيماًها
فكم سيدُّ بين الغيابات حتفُه
ترى أدمع النعمى بناعم جسمه
يقضى الليالى بين ظلم وظلمة
وقمى نَجِيّ الحزن جارةً بيته
وفي حجرها لو أبصروا ذو تائم
إذا فزعت في الخدر من هول ما ترى
ودارة عَزْ أوحشت من أنيسها
تحُمّل أهلوها على غير موعده
ينادى لسان الحال من شرفاتها
ولم يُنْسها التوديع موقف شامت
وما ملّهم فيها نواءً وإنما
يناديه فينا قائد الجيش^(٢) قومُه
تعسف بالأحكام غير موفّق
فكم ساقَ من مصر إلى الموت فتيةً
جوعُ كآجال النعام تلفّها

يُشَبَّ لغير الخائن المتملق
وآخر بالأصفاد والسوط مرهق^(١)
نجيِّع دم من جلده المتمزق
طريد الكرى فيجوف أغبر مطبق
سواد الدجى بالدمع المترقرق
يكلّمها بالعين من غير منطبق
فلا راحماً تلقى ولا عطف مشفق
وما كان فيها من جلال ورونق
وبانوا على حكم الزمان المفرّق
«قفوا ودّعونا قبل وشك التفرّق»
يقلب في الغادين أجفان مُحَنّق
نَجَحُوا بالنوى من ظلم أرعن أحق
وما قادهم إلا إلى شر مأزق
وما ظالم في حكمه بموفّق
زهاها الصبا في عنفوان وريق^(٣)
يدُ القمر للأجال من كل منعق^(٤)

(١) يريد بالغيابات السجون والمنفى.

(٢) يريد قائد جيش الاحتلال.

(٣) الريق: أول الشباب.

(٤) آجال أى القطيع والمنعق من نعق الراعى غنمة إذا زجرها.

له عُصَبٌ فِي غُورِهَا وَصَعِيدُهَا
فَفِي كُلِّ إِقْلِيمٍ حُجُولٌ مُقَيَّدٌ
وَفِي كُلِّ وَادٍ مِنْهُمْ سَوْطٌ مُعْجَلٌ
وَمَنْ لَمْ يَسْقُهُ السَّوْطُ وَالسَّيْفُ سَاقَهُ
تَخَيَّرُ أَبْنَاءَ الشَّبَابِ وَتَنْتَقِي (١)
لِغَيْرِ عَصِيٍّ أَوْ حِبَالٍ مُرَبَّقٍ (٢)
يَهْدِدُ بِالتَّنْكِيلِ كُلَّ مَعْوِقٍ
إِلَى حَيْثُ شَاءُوا جَهْدُ عَيْشٍ مَرْمَقٍ (٣)

يوم إعلان الحماية

وقال عن إعلان الحماية في ديسمبر سنة ١٩١٤:

بِإِلاءٍ عَلَى الْقَطْرَيْنِ أَغْطَشَ لَيْلَهُ
دَجَّتْ يَوْمَ إِعْلَانِ (الْحَمَايَةِ) شَمْسُهُ
بِهِ لَقِيحَتْ سُودَ اللَّيَالِي فَلَيْتَهُ
قَضِينَا بِهِ يَوْمَ الْمَدْلَةِ بِالْأَسَى
عَشِيَّةً يَدْعُو «مَكْسُوِيلَ» (٧) سَرَاتِهَا
يُبُوِي عَرْشَ النَّيْلِ مِنْ شَاءَ جَانِفًا (٨)
«رَوَيْدِكِ حَتَّى تَنْظُرِي عَمَّ تَنْجَلِي
فَمَنْ دُونَ عَرْشِ النَّيْلِ كُلِّ مَدْرَبٍ
بَصِيرٍ بِأَسْبَابِ الرَّدَى غَرَبَ سَيْفِهِ
تَوَتَّ نَفْسُهُ مِنْ بَأْسِهِ فِي مَجْنَّةٍ» (٩)
ضَحَى يَوْمَ نَحَسَ بِالْخَطُوبِ مَوْوَقٍ (٤)
فِيَالِكَ مِنْ يَوْمٍ عَلَى مِصْرٍ أَوْرَقٍ (٥)
قَضَى فِي بَطُونِ الْغَيْبِ لَمْ يَتَخَلَّقْ
وَبِتْنَا عَلَى لَيْلِ السَّلِيمِ الْمَوْرَقِ (٦)
لِعَيْدَيْنِ يَوْمِ الْجَمْعِ يَوْمِ التَّفَرُّقِ
فَنَنْشُدُهُ وَالْخَطْبُ بِالْخَطْبِ يَلْتَقِي
غِيَابَةَ هَذَا الْعَارِضِ الْمَتَأَلِّقِ
كَمَيِّ مَتَى يُرْعِدُ لَهُ الْهَوْلُ يُبْرِقُ
لِبُوسِ الْمَنَايَا بَيْنَ هَامٍ وَمَفْرَقِ
مَتَى يَدُنْ مِنْهَا طَائِفُ الْمَوْتِ يُصَعِّقُ

نقض العهود والمواثيق

وقال يهاجم الإنجليز وينعى عليهم نقضهم للعهود والمواثيق:

فَسَائِلُ بَنَّا أَعْلَاجَ «لَنْدُن» هَلْ وَفَوْا
بِعَهْدِ لَنَا بَيْنَ الْأَنْامِ وَمَوْثِقِ

- (١) يريد بالفور الوجه البحري ونخير أي تتخير.
- (٢) الحجول القيود، وربق أي شد.
- (٣) المرمق من يشبع جوعاً ويمسك رمقاً.
- (٤) أغطش ليله أظلمه ومووق اسم مفعول فعله أوق. يقال أوقه أي حمله المشقة.
- (٥) الأورق الذي لونه إلى الرماد. يريد أنه مغب بالخطوب.
- (٦) المدله: الداهل.
- (٧) الجنرال مكسويل قائد القوات البريطانية حين إعلان الحماية.
- (٨) جانفا أي ظالماً.
- (٩) المجنة: الترس

حمية حام أو تقيّة متقى
ولا بلداً بناؤها لم يحرق
سوى صلف المستكبر المتعزّق^(١)
ولا طيب مخضّر من العيش غيدق^(٢)
وهول زمان بالحوادث متأق^(٣)
نفى إلى عام من البؤس أبلق
سفاهة غار في المكاييد مغرق
مق ما نذكره القوانين يحنق
لغير الهوى في حكمه لم يوفق
وتدبير أعمى في الحكومة أحق
لأعلم منه بالنكايه أحذق
ويُسعد أشقاها ويشقى به التقى
على النهج لم يعدل ولم يترفق

لدى فتنة لم يغن عن مصر عندها
جرت عمّا لم تبق أرضاً أمانةً
ثلاثين عامًا لا ترى مصرٌ منهم
ثلاثين عامًا لم تشم برقّ راحة
ثلاثين عامًا بين يأس وحسرة
إذا ودّعت (عامًا) من الجور أبقعا
ثلاثين عامًا بالهوان تسومها
يرى نفسه فوق القوانين بيننا
يبيح غداً ما حرّم اليوم بالهوى
إلهة جبار وإمرة خاطل
إذا ما شكوناهم عميدًا فأمرنا
يقرب خوأننا ويرفع جاهلا
إذا ما مضى هذا أتى ذاك بعده

إفساد التعليم

وقال يذكر إفساد التعليم والدور المشثوم الذى قام به دنلوب في هذا الصدد:
وبالعلم سلّ «دنلوبهم»^(٤) لم لم يدع
هو الجهل فينا حشدته لحكمة
رمتنا به حمى أصابت بلادها
فحلّ بنا فيمن تمزّق منهم
ولو وزنوا في غير مصر مقامه
فأصبح داءً في المعارف قاتلا

(١) المتعزق: السر الخلق.
(٢) الغيدق: الرخص الناعم.
(٣) متأق أى مملوء.
(٤) المستر دنلوب وكان سكرتيرا عاما ثم مستشارا لوزارة المعارف والمسئول الأول عن انحطاط التعليم في عهد الاحتلال.
(٥) المدوق: المهزول.
(٦) الفدم: الأحمق، والحيلق: الصغير القصير.

فواها على تلك العقول التي ثَوَّتْ
 ثلاثين عاماً يسْكُبُ النيلُ حسرةً
 وما وردوا من عذبه غير لامع
 ولولاه كانت مصر بالعلم روضة
 «دتلوب» ما تلك المباني رفيعةً
 وما العلم أن يعلو رتاجُ وقُبة
 «دتلوب» هل أَرْضِيَتْ قومك غايةً
 بكفِّيه في لحدٍ من الجهل ضيقٌ
 على العلم دمَعُ الواله المتشوق
 من الآل في بيدائها مُتْرِيقٌ
 تلالاً بالأنوار للمتأنق
 متى ما تسامق هَامُها النجم تَسْمُقُ
 على فُذُنِ بالأرجوان مزوَّقُ
 أم العَيْرِ^(١) إنَّ يَبْعُدُ به السُّوطُ يَنْفُقُ

ثورة سنة ١٩١٩

وله قصائد غراء في ثورة سنة ١٩١٩ أرخ فيها جهاد المصريين والمصريات وفظائع الإنجليز في قمع الثورة.

حضارة مصر ومجدها

قال من قصيدة له أنشدها سنة ١٩١٩ في الاحتفال بعيد النيروز يشيد بحضارة مصر ومجدها وفضلها على العالم:

فلا. يا ابنة البيتِ الذي عند بابهِ
 رويدكِ إنّا في العُلا يوم ننتمى
 لنا ذِرْوَةُ المجدِ الذي تحت ظلِّهِ
 لنا آية الأهرام يتلو قديمِها
 ملأنا بها لوحَ الوجودِ متاقباً
 وللعلم من آثارنا في جبالنا
 وللملك منا كلُّ أروع نظمت
 ومنا الذي ساق الأساطيل شُرْعاً
 إذا جهلوا «ميناً» و«خوفو» و«كفرعاً»
 وإن أنكروا مُلْكَ «ابن يعقوب» بيننا
 تحرّـر ملوك العالمين إذا مروا
 كلانا أبوه النيلُ أو أمه مصر
 تناسلتِ الأحقاب واعتمل الدهر
 حديثُ اللبالي فهي في فمها ذكُرُ
 إذا ما خلا عصرٌ تلاه بها عصر
 على الدقر آياتُ بها ينطق الصخر
 على تاجه الأفلاكُ والأنجم الزهر
 على البحر يستحيى لصولتها البحر
 فليس «برميسس» على ملكه نُكِرُ
 «فموسى» على ما أنكروا شاهدُ برُّ

(١) العير: الحمار وينفق: يهلك ويموت.

لنا كل ما في الأرض من مدينة بها تَعمرُ الأمصار والبلد القفر

جزى الله مصرًا ما جزى أهل نعمة
فكم كشفت من ظلمة «عين شمسها»
لنا في الوري حق المعلم لورعوا
فهل يُنكر اليونان أنا هُدايتهم
وهل نسي الرومان للنيل أنعمًا
فنحن الأولى قد أورثوا كل أمة
إذا اعتز قوم بالجديد سمّت بنا

على الناس يعيا دونها العُد والحصر
فما تم سهل لا يضى ولا وعر
لنا ذمة والدهر شيمته الغدر
إلى حكمة في العالمين بها بزوا
بما ورثوا منها سما لهم الفخر
من الفضل ما يغنى به الحمد والشكر
مكارم في طي الزمان لها نشر

الوحدة بين العنصرين

وقال يشيد بالوحدة بين عنصرى الأمة:

بيننا على آداب عيسى وأحمد
فنحن على الإنجيل والذكر أمة
لنا كل ما في مصر والحق قائم
فلن يستطيع الدهر تفريق بيننا
كلانا على دين به هو مؤمن
إذا ما دعت مصر ابنها نهض ابنها
ترى ذكر مصر في الهياكل قربة
فلا يحسب للناس أنا تزلزلت
ألم ترنا في كل عيد وموسم
إذا كان عيد الفطر فالكل مُفطر
وإن جاء بالنيروز يوم تزامت
فيا عيد أهل النيل عد أهلك المنى
وصافح بشعبك السعادة مُقبلاً
تلاقت أمانينا على خير غاية

منازل عزّ دونها يقع النسر
يؤيدها الأنجيل بالحق والذكر
تؤيده الآيات والحجج الغر
وان جرّ قوم بالسعاية ماجروا
ولكن خذلان البلاد هو الكفر
لنجدتها سيان مرقس أو عمرو
وفي صلوات المسلمين لها ذكر
بنا قديم أو مس وحدتنا الضر
حليفى ولاء لاجفاء ولا هجر
يهل بالبشرى ويزهو به البشر
عليهم به الأفرأح وانتعش القطر
تجلى منار الحق وانبلج الفجر
بصر على الأفرأح وليقل الشعر:
وسارت بنا الآمال يقدمها النصر

ثورة الأمة سنة ١٩١٩

ومن قصيدة أخرى أنشدها في حفلة لعوائل السيدات في مسرح برنتانيا سنة ١٩١٩:

مصرُ أمِّي، فداء أمي حياتي	سلمتُ أمنا من العاديات ^(١)
يارياح الحياة في مصر هُبي	رُوحينا بطيب رِيا الحياة
ياسماء الحياة في مصر جودي	أنفسًا فوق نيلها صاديات ^(٢)
مالأم الأمصار حملها الدهر	ر صوف الآلام والموجعات؟
مبارعي ذمة لها يوم كانت	زينة في عصوره الخاليات
إن تناست قديم مصر ليالٍ	أنكرت صالحاتها الباقيات
فاسألوهن عن حديثٍ حديثٍ	لبنيتها عَدُوه في المعجزات
دهش الناس يوم قيل صحت مص	رُ وكانت في غفلة وسُبات
إذ لقينا الخطوبَ وهي شدادٌ	فتولت جموعها مُدبرات
وركنا متن الزمان ذلولا	فمضينا لغاية الغايات
بين ش٣يب بالحزم تحدو شبابا	صادقى العزم ثاقبي النظرات

دور المرأة في الثورة

وقال يشيد بدور المرأة في الثورة:

وغوان سمعن دأعي مصر	بين تلك القصور والغرفات
أفزعتهنّ حادثات الليالي	في بنيهنّ بالردى راميات
فترامين من وراء خدور	كنّ فيها البدور مخدرات ^(٣)
سافراتٍ ولسن أهل سفور	حاسراتٍ من شدة الحسرات
وكتبن الوفاء للنيل عهدا	في قلوب بحبه داميات
وتواصين لا يضيّعن ديننا	أو يعظنن سنة المؤمنات
إيه. لله سعيكنّ جيلا	يا بنات الأنجاب والمنجيات

(١) العاديات: الأحداث والنواب.

(٢) صاديات: عطشى.

(٣) مخدرات: مستترات في خدورهن.

سبل جهلا في زُمرة الجاهلات
 سلم ونور العرفان محتجيات
 سل وراء الآفاق والظلمات
 ساطع في بدورها النيرات
 من وراء الأستار والحجرات
 كيف يقفوا أباه في المكرمات
 فتولتته بالتقى والأناة
 عن كرام الآباء والأمهات
 خالد في آثاره الخالدات

ظلموا النيل يوم عدوا بنات الند
 زعموهن بالحجاب عن الع
 بنت مصر كالشمس يحجبها اللب
 وهي في أفقها ضياءً ونور
 أو هي المسك ينفذ العرف عنه
 عرفت كيف يكبر المرء طفلا
 أبصرت منيت المحامد فيه
 وغذته المجد الذي ورثته
 يا ابنة النيل أنت للنيل دخر

وثبة مصر

ومن قصيدة له سنة ١٩٢٠ يصف وثبة مصر:

وأملى على الأيام فليكتب الشُّعراً
 وحسب الليالي أن يُقال صحت مصر^(١)
 وياربما أزرى بصاحبه الصبر
 ولكن صمت الليث يعقبه الزأر
 ولا زهدت فينا مناقبنا الغر
 لنا علم بين الدهور ولا ذكر
 وهم في بطون الغيب عرفانهم نكر
 مقدسة والنيل في لوحها سطر
 ونحن الجبال الشَّم والزهرة النضر
 بحاضرنا تعلقو المحامد والفخر
 مضاربه وانشق عن ليله الفجر
 وذو الذل أولى ما يكون به القبرا

تكلم وادى النيل فليسمع الدهر
 فحسب العوادى نعمة النيل زاجراً
 صحت بعد ما أزرى بها الصبر والأنى^(٢)
 لعمرك ما صبر الأبي مهانة
 فلا تحسبوا أننا ونينا عن العلا
 ولا أنكرتنا شمس جيل ولا انطوى
 وفي الناس من شابت قرون «وأعصر»
 وهل مصر إلا آية أزلية
 تفلقت الأجيال حول وجودنا
 لئن كان ماضينا فخاراً فإمنا
 وقفنا لرهب الدهر حتى تغللت
 حرام علينا أن نعيش أذلة

* * *

(٢) الأنى: الأناة.

(١) النمة: الصوت.

فضائع الإنجليز في قمع الثورة

وقال حين اشتد عدوان الإنجليز في قمع الثورة سنة ١٩١٩ وفتكوا في طريقهم ببعض القرى كالعزبية والبدرشين:

لو أن مفجوعا يردّ سؤالاً
وعدا عليهم بالخطوبِ وَصَالاً
للسلم في أرجاء مصر مجالاً؟
سارت رسائلكم بها أرسالا؟
أنا بمصر نكابد الأهوالاً؟
شعبٌ يريد بأرضه استقلالاً؟
عن مصر صوتاً بالشكاة تَعَالَى؟
طار الزمان لوقعها إجمالاً؟
يتفيتون من السلام ظلالاً
صفواً وشربٍ رحيقه سَلَسَالاً
شَرَعَ^(١) المنايا مُسرِّعين عجلاً
تمدوا عليه وخادعوا الآمالاً
في أرض مصر نكايَةً ونكالا
هتاك الستورَ ومزق الأوصالا
نصب الخداعَ حَبائلاً وحبالاً
ليس المسوح مُرائياً مُحْتالاً
ويعلموا من أهله الجهالاً
ساموا بنيه الضيِّم والإذلالاً
خُلقت لهم ثمراتها أنفالاً

يا مصرُ ما بال الأسي لك حالا
ظلم الزمانُ بَنِيَّ في أحداثه
يا ناشري عَلم السلامِ، ألم تَرَوْا
ما العدل؟ ما حرية الأمم التي
ما عهد (ولسن)^(١) أين ولسن هل درى
أمن العدالة عنده أن يُبتلى
سفراء (ولسن) هل لكم أن تُبلغوا
صرخات أهل النيل من أحلافكم
أضحت شعوب الأرض في بُبوحه
وهمُّ أحق العالمين بورده
لكنهم سيموا الردى فتواردوا
تَعَسوا بحكم الإنجليز وطالما اد
ما بال أبناء الحضارة أوغَلُوا
وثبوا على القطرين وثبة قاهر
نزلوا بأرض النيل منزل غادر
حلفوا لأهل الأرض جلفة فاجر
أن يسطوا ظل الحضارة فوقه
حتى إذا ملكوا أزمّة أمره
واستنزفوا ثمراتِ مصر كأتما

(١) ولسن: الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية. ويريد بعده مبادئه المشهورة التي أعلنها عند دخول أمريكا الحرب العالمية الأولى وأساسها احترام حرية الشعوب واستقلالها.
(٢) شرح، جمع شرعة وهي المورد.

فإذا بدأ وجه الخداع وأشرقت
نغضوا^(١) رءوسهم لغييلة أمة
شمس العدالة في الوردى تتلالا
خُلِقَتْ تعاف الغادر المغتالا

شجاعة المصريات في الثورة

وقال في هذه القصيدة يصف شجاعة النساء المصريات في مقاومة الإنجليز:

تلك العقائل يرتمين مع الظبا
تغضى عيون بنى البلاد مهابة
وأرى ابن لندن نحوهن مصوباً
يا بن اللكيعة^(٢) إنهن عقائل
يا بن اللكيعة إنهن عقائل
يا بن اللكيعة ما حملن صوارما
أبناؤهن إذا الأصول تقارعت
يا بن اللكيعة تلك سبتك التي
وارحمناه لقرية مفعوعة
محزونة خباً القضاء لأهلها
من غادة غال البغاة عفافها
ومصونة في الخدير طار يلها
ماذا أرى؟ جن أحاط بمضجى
ما هذه الجلبات؟ لا أدرى لها
أنا لست نائمة؟ وهذى جنة^(٣)
ويلاه! ما لأبي عالى نائماً؟
أعلى ناد أباك، لا، أنا خائف
هذى جنود الإنجليز رأيتها
صاحوا بصحن البيت صيحة فأتك
فإذا متاع البيت يُنهب بينهم
ولرب دار بالقنابل أصبحت

مستقبلات للردى استقبالا
من حوّلن وتنحنى إجلالا
بيض الظبا متوثباً مجتالا
يفيدن من فتكاتك الأنجالا
يسألن حقاً لا يرُدن قتالا
لبنى أبيك ولا دعون زوالا
كانوا الكرام وكنتم الأنذالا
صدع المقطم خزنها فأمالا
والليل يرخى فوقها أسدالا
تحت الظلام وقبعة ونكالا
فبكى الحجاب عفافها المقتالا
صيححات كلب في الحظيرة جالا
أم تلك أحلام تمر خيالاً؟
معنى ولست أعى لهن مقالا
تدنو كأعجاز النخيل طوالا
والبيت من وقع الحوافر زالا
يا أم لا تتكلمى؟ لا لا لا
(بالبدرشين) تقتل الأطفالا
عات يرى النفس الحرام حلالا
وقد استحلوا نهبه استحلالا
قبراً تضم نسوة وعيالا

(٣) جنة: جن.

(١) نغضوا رءوسهم: حركوها وهزوها.
(٢) اللكيعة: اللثيمة.

وأب تحيط به هنالك صبيّة
ظلمًا تُشول به القنابل فهو في
يا رَبِّ، إنَّ الإنجليز تعمّدوا
يا رَبِّ، مصرُ بك استجار ضعيفها
فأذقُ عدوكُ سوءَ ما مكروا به
تبكى عليه وتُكثِرُ الإغصالا
جوَّ السماء مع القناعمِ نِزالًا^(١)
إرهاقِ مصرَ سفاهةً وضلالا
في عبْرَة تُذري الدموعَ سجالا
وأجعل عواقبه عليه وبالا

يخاطب مؤتمر الصلح بباريس سنة ١٩١٩

ومن قصيدة له أنشأها حين اعتقل سعد زغلول لأول مرة في أوائل سنة ١٩١٩، يذكر الثورة ويعاتب مؤتمر الصلح في إهماله مطالب مصر :

يادماء الشباب تجرى على الأر
ما لباريس لاترى أهل مصر
كل شعب له بمؤتمر الصلح
ليت شعري فهل أتاه كتابُ
أو درى أننا نراد اختلاسا
سفراء الملوك، ضجة مصر
كم رفعنا إليكم في شكاة
وسألناكم البلاغ فلم نسّم
إنّ لثليل ذمةً وعهودًا
لو حقنتم تلك الدماء اللواق
كان سهلا عليكم أن تصونوا
ض جسادا^(٢) به تَرى مصر يُطلى
بين أهل السلام للعدل أهلا؟
ح نصير من البعوث ومولى
أو تلقى من جانب النيل رُسلًا؟
في بياض النهار والشمس تُجلى
حولكم من زمازم^(٣) الرعد أعلى
حُجّة كالصباح أو هي أجلى
مع جوابًا يردّ في الغمد نصلا
هي دينٌ عليكم ليس يَبلى
أهرقتها بنادق القوم سيلا
أنفسًا وردّها الردى كان سهلا

يندد بفظائع الإنجليز في إخماد الثورة

وقال في هذه القصيدة موجهها حديثه إلى المارشال ألنبي الذي عهدت إليه بريطانيا قمع الثورة :

(٣) الزمازم، جمع زمزمة، وهي الصوت البعيد المدى.

(١) تشول، تملو، والقشاعم؛ النسور.

(٢) الجساد (بالكسر)؛ الزعفران.

قاتلَ اللهُ مَنْ عَلَيْنَا أَدْلًا
 كانَ هذا بأرضِ (بلجيك) (١) أولى
 فإذا جدَّ جِدُّها عادَ هزلاً
 لم تكنَ للحروبِ والسيفِ قبلاً
 وهى زَيْنُ السيفِ هزاً وحماً
 تركتهم حوادثِ الدهرِ عُزلاً؟
 ف بدارِ الأمانِ (٣) نسيماً وسلاً
 ر بلادٍ ولم يُجْر للحربِ خيلاً
 أشرفَ الموتُ فوقه أو أطلا
 رَ لَديكم وبالدنيّةِ تُبلى
 من حياضِ المنونِ عَلاً ونَهلاً
 جُبْتُم الوعرَ من فلسطينِ سَهلاً
 فى بلادِ العراقِ للفوزِ حَبلاً
 ل عليكم، لا تنكرِ العُجْمُ فضلاً
 حَرَمَ الأَرْضِ غيرةً أن تُغلاً
 ميز) عنه وناءً بالعبءِ حملاً
 تفضخِ الجارياتِ ووزناً وكيلاً (٦)
 كم بها القطنُ كلَّ عامٍ أهلاً
 ما وفيتم منها القليلَ الأقلأ
 إن تقولوا قد يُنكرُ الفضلُ جهلاً
 من هباتِ ما جاوزتِ بعدُ حولا
 تُ بهم فى الوغى وباءً وقتلاً

أيها القائدُ المُدِلُّ علينا
 صَلَفٌ بينَ أهلِ مصرَ وعُجْبُ
 صَلَفٌ جدُّ فى مواطنِ هزل
 علمَ الناسَ أن مصرَ بلادٌ
 منعتهما الأيامُ حَمَلِ المواضى (٢)
 فَلِمَ الكبرياءِ بينَ أناس
 أيها القائدُ الذى حيرَ السيد
 عَلمَ الخيلِ كيف تُختالُ فى غيد
 إنما يُحمَدُ المَخيلةُ (٤) يومُ
 ما لمصرُ تُجْزى جزاءً سِنماً
 وأراكم لولا بنوها سُقيتم
 سائلوا الشامَ هل بغيرِ بنينا
 أو مددتم بغيرِ أبناءِ مصر
 إبُلُ مصرَ وأتتها (٥) تعرفَ الفض
 لو درى النبلُ ما سيلقى بنوه
 كم ظفرتم منه بما عجز (التسا
 كلُّ عامٍ تجبى إليكم حبوبُ
 وقناطرُ من نضارِ يوافي
 نَعَمُ لو أردتموهن شُكراً
 ما جهلتم لمصرَ فيها صنيعاً
 أنسيتم لمصرَ ما منحتمكم
 أم نسيتم أبناءها يفتك المُو

(١) يشير إلى هزيمة الحلفاء أمام الزحف الألماني فى بلجيكا إبان الحرب العالمية الأولى.

(٢) المواضى: السيوف.

(٣) الشيم: اغماد السيف.

(٤) المخيلة: الكبر.

(٥) الأتن: الحمير؛ والعجم: البهائم...

(٦) الجاريات: السفن؛ وتفضخها: تسكرها. لتفلها وكثرتها.

وختمها بقوله:

معشرَ الإنجليزِ مصرَ لأهليها ومن ظن غير ذلك ضلًّا
معشرَ الإنجليزِ مصرَ استقلت وجديرٌ بالنيل أن يستقلا

يخاطب مؤتمر الصلح أيضًا وينادي بالاستمرار في الكفاح

ومن قصيدة أخرى له سنة ١٩١٩ يخاطب مؤتمر الصلح بباريس، وينذر بالاستمرار في الكفاح إذا لم تجب مطالب مصر:

أباريسُ إن كانت لضيفٍ كرامة	لديك فضيف النيل أبلغ من يُثني
أباريسُ إن تُدنى العدالةُ وافدًا	عليك فأهل النيل أكرم من تدنى
أباريسُ كم للنيل عندك من يد	تناقلها التاريخُ قرنا إلى قرن
ومن شكرها أن تعرفوا حق أهله	وألا تسوموا (وقسده) صفقة الغبن
حرامٌ عليكم أن يراق له دم	حرامٌ وأنتم قادرون على الحقن
فيا أمراء الغرب دعوة مُسمع	يُصرح في رفع الشكاية ولا يكنى
سلوا جلفكم عما جرى في ديارنا	وما جرحوا مما يشين وما يظنى
وما هذه الغارات يعلو صريخها	مؤججة، هذى ترؤغ وذى تُفنى
وما هذه الأجسادُ في كل بلدة	مُصرعةً فوق التراب بلا دَفن
إذا طفح الخزان من دم أهله	فتم دم في الثغر يُربى على الخزن
نرى الحرب فيما بينكم جفَّ عودها	فما بالها في مصرَ ناضرة الغصن؟
على غير ما ذنب جنينا فما لنا	نسامُ الدنيايا لم نحارب ولم نجن
فيا عجبًا شعب يساق بأرضه	أسيرًا إلى دار المذلة والسجن

* * *

ملوكُ الوَرى، لن يترك النيل حقه	ولو مزقونا بالثقفة اللدن ^(١)
ملوكُ الوَرى، لن يترك النيل حقه	ولو طحنوه بالثقفة الدكن ^(٢)

(١) يريد بالثقفة اللدن الرماح المقامة.

(٢) يريد بالثقفة الرصاص والقنابل، والدكن: ما تضرب إلى السواد.

ظننا بهم خيراً من الدهر حِقْبَة
صبرنا وأشهدنا الأنام عليهم
ثلاثين عاماً بعدها سبعة خلت
عواصف بأس ينشدها النيل تحتها
سَقونا بها مُراً من العيش أجنا
فإن تُنصفوا أبناء مصر فينةً
ولاً رددناها عليهم كريمة

فكانت قصارانا بهم خيبة الظن
إلى أن رَمونا بالمهانة والجبن
طوال الليالي السود حالكة الدجن
نقمتُ الرضا حتى على ضاحك المُن
وباليتهم لم يرهقوا الناس بالْمَن
لكم أبداً نُثني عليها بما نُثني
وللدهر شأن لا يُقاس على شأن

رثاؤه لمحمد فريد

ولما جاء نعي الزعيم محمد فريد في منفاه (نوفمبر سنة ١٩١٩) - وكانت مصر في إبان الثورة - رثاه بقصيدة مؤثرة تفيض وطنية وبلاغة قال:

سَلُوا جفَنَ عيني ما له بات ينزفُ
ويا رَبِّ هَمِّ يملك النفسَ بالأسى
وما أنا! ما دمعي! وفي مصر أنه
بكين غريباً طوَّحَ البينُ دارَه

وعهدى به إن سُمته الدمعَ يأنفُ
ويعدو على العين الجمود فتذرفُ
بها الطير نوح والغمام كُفُّ^(١)
فلا العودُ مأمول ولا الدارُ تعرفُ

* * *

وما أنكرتُ مصرُ ابنها فنبتَ به
ثوى غريبةً، بعد المعاد قرأها
وكنا حسينا شُقةَ البين تنطوى
وأطمعنا في الملتقى لمحُ بارقِ
فلم نر سلماً ينتهى النأى عندها

ولكنه دهرٌ على الحر يُجِنفُ^(٢)
فيا طول ما يستشرف المُشوفُ
فياوى إلى منرباعه المُتصيفُ^(٣)
من السُّلم في ليل الحوادث يُخطفُ
بناءٍ ولا حتم الردى يتخلفُ

* * *

بعيني من نادى مناديه للنوى فودَّع لا يأنى ولا يتوقف

(١) وكف: مرسلات بآنها.

(٢) أجنف: أجاز وعدا.

(٣) المرباع: المكان ينبت في الربيع؛ والمتصيف: المصطاف.

لها حُرَّقُ تُدمى القلوب فتنتطف
يكاد لها من تحته البحر ينشف
يكفكفها كِبْرًا فلاتتكفكف
قسا أهله جهلا عليه وأجنفو
يُعنَى عليها جارم أو يُعنَف
إذ الدهر ألسى والحوادث تُعصف
تؤيدنا يوم العتاب وتُنصف
بذى حَدَبٍ يُقسى عليه فيرأف
هو الدهر في أحكامه يتعسف

يُدافع ألامًا تياسرن قلبه
ففى قلبه مما دهى النيل زفرة
وفى عينه من لوعة البين عبرة
وفى نفسه عُتْبَى على البلد الذى
برمت بنا يا مصر لا عن جناية
وكيف تناست مصر حسن بلاتنا
مواقفنا يا أم فيك شهودها
رويدك نفسًا أنكرت فعل قومها
على رغم قومى ما لقيت وإنما

وللنيل ما ألقى وما أتكلف
فيجتمعتا يوم بمصر وموقف
ومالى من أسبابها أتخوف
بأن المطايا بي إلى الموت تزحف
بلادى تحبو فى الإسار وترسف
أليّة^(١) من لا يترى حين يحلف
فإما الردى أو يُنصف النيل مُنصف
وحجبه ستر من الغيب مُسجف^(٢)
وبين ديارينا جبال وُصُفُف^(٣)

سلام على قومى، وداعًا بنى أبى
ويا موقف التوديع هل تُسعد المنى
أخاف المنايا أن يكن رواصلًا
تحدثنى طير جريّن بوارحًا
ويحزنى ورد المنايا ولم تزل
حرام علينا أرضها وسماؤها
ويا فلُك باسم الله بجرارك ألقى
فما كان إلا ن طوى البحر والثرى
فدون تلاقينا ليال وأشهر

على همة من همها الدهر يُكلف
عوادٍ إذا صبّت على «الألب» يح تحرف
جدير بها الليث الهصور المقذف

هنالك ألقى فى بنى الغرب رحله
بعيد المرامى لا تهد صفاته
تقدّفه فى زاخر اليأس همة

(١) الصفص: الفلاة.
(٢) جبال الألب المشهورة.

(١) الألية: القسم.
(٢) أسجف الستر: أرسله.

سوى الحق أو يعنو لبأس فيضعف
 وفي الغرب للعاني مراد ومألف
 وأنيابها من شدة البأس تصرف
 على القرّ أسمال به يتلقف
 تجلّد لا يشكو ولا يتأفف
 وفي مصر بيكيه البناء المطّف
 بهم نعتلى هامّ الفخار ونشرف
 على البأس ماضٍ ذو غرارين مرّهف
 بذكرهم تلهو القيان وتعزف
 تمّتهم لعلياها معدّ وخندف^(٢)
 مناقبهم وُزق من الفخر هتّف

وهيهات أن يخشى أخو الحق قوّة
 ثوى في بلاد الغرب بالنيل عاتياً
 بصرف أحداث الليالى غواشياً
 فطوراً تراه في «جنيف» لباسه
 إذا صُفرت من ذات دنياه كُفه
 ويأوى إلى بيت وطىء عماده
 ويكنفه من فتية النيل أنجم
 إذا احتدمت للبأس نارٌ فعلهم^(١)
 وإن ذكر المجد القديم فإيما
 إذا ما انتمى قوم لدنيا جدودهم
 وإن ذكروا أبناء فرعون رجعت

مُنَى قومه والحرّ للحرّ يُنصف
 من الغرب ناعٍ قام باسمك يهتف
 رسائلهم بالموجعات وأرجفوا
 على فُرش البلوى ببرلين مُدنف
 وقاموا بأكتاف السيرير وطوفوا
 وتبكى له منهم قلوبٌ وترجف
 من الموت مُضنىّ داؤه يتجوّف
 كؤوسا بالاستسقاء للنفس تخطف
 عليك بنيتها، والردى ليس يُصرف
 بنو مصر غَالوا في الفداء وأسرفوا
 بما جمعوا من تاليدٍ أو تطرّفوا
 براها الأسى من بعده والتلهف

فيا مُسمَع الأحرار من كل أمة
 لقد فجّع «الفسطاط» فيك وأهله
 لقد فجّعونا فيك يوم تتابعت
 فيا ويح يومٍ قال فيه غريبها
 بروحى إذ جاء الأطباء خُشعاً
 يعلّله بالقول منهم مُبشّر
 تجوّفه الداء العُضال وهل نجا
 قضى الله أن يُسقى «فريد» بأرضنا
 يعز على «برلين» أن يغلب الردى
 أطباءه؛ لو يستطيع فداءه
 فليل عليه لو يُفدّيه قومه
 فليت الليالى سالت فيه أمة

(١) العلهم: الضخم العظيم.

(٢) معد وخندف حيان من العرب؛ يريد أن أصولهم عريقة في النسب والشرف.

عرفنا له بِرّ الوفيّ بعهدِها
أفاض عليها نفسه بعد ماله
ولولا رجال مؤمنون نَجَّوْا بها
إذا خان قومٌ عهدَ مصر فلم يُفْوَا
ومالٌ بهم عنها متاعٌ وزُخرف
لراحت بها ريح من الغدر زَفَزَف^(١)

يندد بالفرقة والانقسام، ويدعو إلى الوحدة

وحين حدث الانشقاق في الوفد سنة ١٩٢١ وقام الخلاف بين سعد وعدلى وانقسمت الأمة تبعاً لذلك، نظم قصيدة يندد فيها بالفرقة والانقسام، ويدعو إلى توحيد الصفوف قال فيها:

كنا أشقاء الإخاء فيما لنا
بالأمس كان إخاؤنا مثلاً
كنا إمامَ المشرقين، سبيلنا
يترسمون على الحياة طريقنا
فإذا بنا جارت هَوَادِي رَكْبِنَا
عَبَثَتْ بوحَدْتنا الخُطوبُ وأَعْلَمَتْ
والخِصْمَ يَجْجَلُ بَيْننا لِلشَّرِّ فِي
مُتَمَتِّرٍ يُغْرِي العداوة بَيْننا
أَوْ لَيْسَ فِيمَا قَدْ مَضَى مِنْ عِبْرَةٍ
أَوْ لَمْ يَرَوْا أَوْ يَسْمَعُوا نَذْرَ الردى
هذِي تُلَوِّحُ بِالوَعِيدِ وتلك تر
جعلوا صحافتهم مظاهرَ كيدهم
صحف يضيع الحق في ألوانها
الحق فيها كل ما شاء الهوى
فليعتبر قومي كفى ما قد جرى
لا تُوجِعُوا تلك القلوبَ فحسبها

صِرْنَا بنى الْعَلَاتِ والأخِياف^(٢)؟
وكننا زينة الخلطاء والألأف
قَصْدٌ ومُشْرَعْنَا نَمِيرٌ صَانِي
للحق في الإيضاح والإيجاف
عن منهج الآباء والأسلاف
في غَرَسِ أَيْدِينَا يَدُ الإِتلافِ
ثوبين ثوب مُوافقٍ ومنافٍ
بالكيد والتفريق والإرجاف
لبنى أبنِي، والأمرُ لَيْسَ بخافٍ؟
تَطْوِي إلينا لُجَّةَ الرَّجَّافِ^(٣)
مينا به في لهجة الأجلاف^(٤)
فتزاورت جنفاً عن الإنصاف
صوراً يزيد بها على الألأف
حُكْمٌ تؤيده بلا استئناف
من ذات خلف بَيْننا وتنافي
جام أصاب من الزمان الجاني

(١) زَفَزَف: شديدة الهبوب في دوام.

(٢) العلات: جمع علة، وهي الضرة. والأخيف: الذين أهمهم واحدة وآبائهم شتى.

(٣) الرجاف: البحر؛ سمي به لاضطرابه.

(٤) الأجلاف: جمع جلف؛ وهو الرجل الجاني.

٢٤٧

عشر كواملُ في الخلاف فهل بها
تسربت من الأيام كل مرثق
أبني أبي، ردوا القلوب إلى الهدى
الوفد منا والحكومة بعضنا
والشر غايته البوار ومن أبي
من ذلك الداء المبرح شافي
من كل مر بالخطوب زُعاف
وتبهبوا فالدهر ليس بغافي
هذا أخو هذا بغير خلاف
فالله للشعب المروّع كافي

أحمد زكى أبوشادى

ولد سنة ١٨٩٢



هو الشاعر المجدد، والأديب الحر المفكر، الدكتور أحمد زكى أبو شادى.

ولد سنة ١٨٩٢ بالقاهرة، من أسرة عريقة فى الوطنية، وأبوه المرحوم محمد أبو شادى أحد كبار المحامين الذين نالوا المكانة الرفيعة فى عالم المحاماة ومن جاهدوا فى الحركة الوطنية، ووالدته السيدة أمينة نجيب من السيدات الأدبيات الشاعرات، وكان أخوها المرحوم مصطفى نجيب^(١) أديباً وطنياً وصديقاً ونصيراً للمرحوم مصطفى كامل.

أتم دراسته الابتدائية ثم الثانوية فى المدارس المصرية، وظهرت مواهبه الشعرية والأدبية فى هذه المرحلة من الدراسة، وكان من تلاميذ مصطفى كامل فى الوطنية، ودخل كلية الطب بالقاهرة، ولم تصرفه الدراسات الطبية والعلمية عن الاستمرار فى دراساته الأدبية، فأحب الشعر وتذوقه، وأقبل على نظمه وهو فى هذه السن المبكرة، وشعره رقيق ممتع، يمجّد الوطنية وينزع إلى الحرية والتجديد والخروج على الأساليب القديمة، واحتفظ بهذا الطابع على تعاقب السنين، وأكمل دراسته الطبية فى إنجلترا، وتعمق فى الآداب الإنجليزية إلى جانب دراسته من قبل للآداب العربية، وازداد تعلقاً بالتجديد فى الأدب والشعر، ولما عاد إلى مصر تنقل فى مناصب الحكومة وصار أستاذاً للبيكولوجيا بكلية الطب بجامعة الإسكندرية ومديراً للمعمل البيكولوجى بالمستشفى الحكومى بها.

كان ولا يزال يصدر فى شعره عن إلهامه وعقيدته وإيمانه، وفى ذلك يقول عن نفسه: وهل كان شعري غير إيمان مهجتي وعشقى وإحساسى ولحنى المرّدّ وكون مدرسة أدبية تزعمها ترمى إلى الثورة على القديم والدعوة إلى الحرية فى الفكر

(١) والد الأديب الأستاذ سليمان نجيب.

والأدب والفن، وكان لهذه المدرسة مجلة أدبية تسمى مجلة (أبولو) الشعرية الأدبية، أصدرها أبو شادى فى القاهرة سنة ١٩٣٢ وكانت ندوة لأنصار الجديد من الشعراء والأدباء، وتكاد تكون المجلة الشعرية الوحيدة التى ظهرت فى العالم العربى، وقد استمرت نحو ثلاث سنوات ثم احتجبت.

وقد صادف أبو شادى فى حياته الحكومية والأدبية عننا وأذى من رؤسائه وأنداده، واستهدف من أجل نزعة الحرمة لشتى ضروب المناوأة، فاعتزم الهجرة من مصر، وهاجر فعلا إلى نيويورك فى سنة ١٩٤٦، وهناك رحبت به الدوائر الأدبية والعلمية ترحيباً عظيماً، وأخذ ينشر فى الصحف والمجلات العربية والأفريقية فى أمريكا ثمار أدبه وشعره، ونفحات آرائه وأفكاره، كما أخذ يذيع من «صوت أمريكا» مرتين فى الأسبوع، وأسس فى نيويورك (رابطة مينرفا) الشعرية الأدبية على غرار (جمعية أبولو) وقدرته الحكومة الأمريكية والجامعات والمعاهد والمؤسسات الثقافية فى العالم الجديد، وانتخب أستاذاً للأدب العربى بمعهد آسيا بنىويورك، وهو يتولاه إلى اليوم^(١) بجدارة تفخر بها مصر، ويعد أبو شادى رائداً من رواد النهضة الأدبية والفكرية الحديثة، وهو رغم هجرته إلى العالم الجديد دائم الصلة بوطنه بواسطة الصحافة فى أمريكا وفى مصر، وبواسطة مريديه وتلاميذه الممتازين الذين اقتبسوا من روحه التقدمية وتعلقه بالحرية وإيمانه بما يقول ويكتب.

وهو فى أحاديثه ومحاضراته لا يفتأ يذكر مصر ويناضل عنها ويحج إليها ويشيد بها وبعلمائها وأدبائها وكتابها وتاريخها، وهو فى غربته خير سفير أدبى لمصر فى العالم الجديد. وله عدة دواوين من الشعر نحي فيها منحنى التجديد والابتكار. وحلّق فى سماء الفن والخيال والسمو الفكرى.

نذكر منها ديوان «أنداء الفجر» وهو أول دواوينه ومختارات من نظمه سنة ١٩١٠. و«أنين ورنين» وهو صور من شعر الشباب. و«الشفق الباكى» وقد ظهر سنة ١٩٢٤. و«الينبوع». و«أشعة وظلال» وقد نشر سنة ١٩٣١. و«أطياف الربيع». و«فوق العباب» وقد طبع سنة ١٩٣٥. و«عودة الراعى» وقد ظهر سنة ١٩٤٢.

ومن آخر دواوينه «من السماء» وقد ظهر فى نيويورك سنة ١٩٤٩ ويضم معظم شعره من سنة ١٩٤١ إلى سنة ١٩٤٩.

هذا ماعدا ما أخرجه من الكتب والمؤلفات والقصص والمسرحيات.

(١) وقت ظهور الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٥٤.

رثاؤه لمصطفى كامل

قال من قصيدة له في فبراير سنة ١٩٠٨، وكان ما يزال طالباً بالمدرسة النانوية يرني مصطفى كامل:

يا مصر حلّق طيرُ اليأس في أفق
مات الرئيس فماتت بعده هم
ذاج بأحزان شعب كان ساليها
قد كان نبراس فكر منه يجليها
إلى أن قال:

سارت به أمة أحياء مداركها
ودّت لو أن صروف الدهر تأتيها
والكلّ يلبس ثوبا للحداد أسى
أبصارها نكست من فوقها كتبت
يامصر الفتاة مرور العمر تذكره
حتى إلى القبر وارت فيه حاميتها
وتلكم النفس هذا الشعب يفديها
على الفقيد وما من ثمت يهديها
عبارة كان صدق الحس يليها
لروحه لم تزل تعدو أمانيتها

مفخرة رشيد

وله في سنة ١٩٢٥ قصيدة وطنية من نيف وستين بيتا، نظمها تمجيذاً لذكرى معركة رشيد التي وقعت يوم ٣١ مارس سنة ١٨٠٧ بين المصريين والإنجليز وفاز فيها أبطال رشيد على الجيش البريطاني الذي زحف على مدينتهم يريد احتلالها، فصدوا له وقابلوه في الشوارع واستبسوا في الدفاع عن مدينتهم حتى صدوه عنها وهزموه وارتد عن المدينة بعد أن فقد في المعركة ١٧٠ قتيلًا و٢٥٠ جريحاً و١٢٠ أسيراً^(١)، وكانت هذه المعركة حقا مفخرة لرشيد وأشاد أبو شادي أيضاً في قصيدته بالمعركة الثانية التي وقعت في (الحمام) وانتهت كذلك بهزيمة الجيش البريطاني.

قال:

رَوَّحِينَا بِأَحَادِيثِ الْجَلالِ
وَأَسْمَجِي (يَا مِصرُ) أَنْ تُرْجِي لهُم
مَاعَزَفْنَا قَدْرَنَا إِنْ لَمْ نُحْزَرْ
وَبِأَمالٍ لِآتٍ غالِبِ
وَبِنَفْحٍ مِنْ هِواهِمْ غَيْرِ بِالِ
مُنْتَهَى فُخْرِ رِجالِ بِرِجالِ
سِيرةً مِنْهُم تُغَدِّينَا بِحالِ
إِنْ آتَى الْمَجْدِ مِنْ ماضِي الخِمالِ

(١) راجع في تفصيل معركة رشيد كتابنا (تاريخ الحركة القومية الجزء الثالث - عصر محمد علي).

خاطئٌ مَنْ ظَنَّ ماضيه بلا
ماتماً شعبٌ بلا جهيدٍ مضى
هى أحلامٌ وأعمالٌ بنّت
هو مهّدٌ وليدّت فيه العلى
لم تجيء طفرةً جيلٍ لآعبٍ
كابرٌ عن كابرٍ قد صانها

مُرْشِدٌ يَهْدِي إِلَى غَالِي الْمَالِ
وَتَبَقَّى فِيهِ تَذْكَارُ الْفِعَالِ
فِي سَنِينَ وَسَنِينَ كُلِّ غَالِ
بَأْنَاءٍ وَكِفَاحٍ وَنَوَالِ
إِنَّمَا جَاءَتْ عَلَى طُولِ اللَّيَالِي
بِمِرَاعَاةٍ وَأَخْلَاقِ الْمَعَالِي

إلى أن قال محيياً ذكرى أبطال رشيد الذين صدوا جيش الغزاة المستعمرين :

رَوَّحِينَا (مصر) مِنْ ذَكَرَاهُمُو
بَلَّغِينَا كَيْفَ أَوْدَى عَزْمُهُمْ
كَيْفَ هَزُّوا قُوَّةَ أَكْبَرِهَا
كَيْفَ ضَحُّوا لِلرَّمَالِ دَمَهُمْ
كَيْفَ أَفْنَوْا مِنْ جُنُودٍ صَوَّبَتْ
كَيْفَ كَيْفَ اسْتَبَسَلُوا فِي وَاجِبِ

تلكَ ذَكَرِي عَنْ بُلُوغِ لِحَالِ !
بِصَعَابٍ قَمَنْ أَقْسَى مِنْ جِبَالِ !
عَالَمُ الْقُوَّةِ وَالْحَرْبِ الضَّلَالِ !
فِي دِفَاعِ الْعَزُّ عَنْ تِلْكَ الرَّمَالِ !
نَحْوَهُمْ أَقْوَى مُعَدَّاتِ الْقِتَالِ !
وَأَقَامُوا الْمُلْكَ وَضَاءَ الْخِلَالِ ؟ !

* * *

يا (رشيد) الذكْرُ حَيٌّ خَالِدٌ
أَنْتَ تَغْرُ نَاطِقٌ فِي رَسْمِهِ

لعظيم الجُهدِ معدومِ المثالِ
حُرْمَةَ المَاضِي (للنيلِ) الزَّلَالِ

إلى أن قال :

مِثْلَ مَا أَذْكَى لَهَا شُبَانِهَا
كَالْجِرَادِ نَشْرُهُمْ فَيْكَ عَلَى
فَإِذَا الْعَادُونَ جَاءُوا مَا بِهِمْ
وَأَتَتْ فَرَقْتَهُمْ فِي نَشْوَةِ
بَيْنَ قَتْلَى وَحِيَارَى هَرَبُوا
ثُمَّ جَاءُوا فِي جَمِيسٍ لِحَبِ

فَتَحَدُّوا خَصَمَهُمْ قَبْلَ السُّؤَالِ
رَبَّوَاتٍ يَرْقُبُونَ وَتِلَالِ
ثِقَّةٌ إِلَّا وَضَاعَتْ فِي مَلَالِ
عَنْكَ فَارْتَدَّتْ خِيَالاً فِي خِيَالِ (١)
وَضَحَايَا لِإِسَارٍ وَعِقَالِ
وَعَوَادٍ لَمْ يَكُنْ جَالَتْ بِيَالِ (٢)

(١) يقصد معركة رشيد.

(٢) يقصد معركة (الحماد) التي تقع جنوبي رشيد بين النيل وادكو؛ وقد وقعت فيها المعركة الثانية بين الإنجليز والمصريين يوم ٢٦ إبريل سنة ١٨٠٧؛ وكانت أشد وأقوى من معركة رشيد، وهزم فيها الجيش البريطاني أيضا هزيمة ساحقة، انتهت بفشل الحملة البريطانية وجلاء الإنجليز عن الديار المصرية في سبتمبر سنة ١٨٠٧.

لِحَسَابِ وَعِقَابِ وَنِكَالِ!
أَسْوَدِ الْوَجْهِ وَإِمْدَادِ مُوَالِ!
فَدَفَعْتَ الْحَصْرَ دَفْعًا بِالْعَوَالِ!
مِنْ شُمُوحِ وَإِبَائِ قَبْلَ مَالِ
بِئْسَ يَوْمُ الْخُسْرِ مِنْ يَوْمِ ارْتِحَالِ

مِنْ مِتَارِسٍ كَفَّتْ رُؤَيْتَهَا
وَعَدِيدٍ بَيْنَ بَاغِي مَدْفَعِ
وَأَبْوَا إِلَّا حَصَارًا هَائِلًا
وَعَنْبَتَ كُلِّ مَا كَانَ لَهُمْ
رَحَلُوا رَحْلَةَ جَانٍ ضَائِعِ

لَا بِخَوْفٍ أَوْ غَلْوٍ أَوْ خَبَالِ
يَعْدَمُ الْإِصْبَاحَ أَبْنَاءُ الْهَلَالِ
فِي مَجَالِ الْحَقِّ شَعْبٌ لَا يُنَالِ
أَحْسَنَ الْأَبَاءِ أَوْلَى بَاكْتِمَالِ
فِي ثَبَاتٍ وَوَفَائٍ وَنَزَالِ

هَكَذَا بِالْبَأْسِ تَحْيَا أُمَّةٌ
هَكَذَا بِالْوَحْدَةِ الْحَسَنَاءِ لَا
إِنَّ شَعْبًا يَتَحَدَّى (انْجَلْتِرَا)
وَبَنِينَ يَنْشُدُونَ مِثْلَ مَا
إِنَّمَا الْأُمَّةُ مِنْ أَفْرَادِهَا

إلى أن قال:

(نافرين) الأَمْسَ فِي مُشْحَى الْمَقَالِ
دُرَّةَ التَّارِيخِ شَعْتٌ كَاللَّالِي
يَحْفَظُ التَّارِيخُ مِنْ غَالٍ وَحَالِ
مِنْ عِظَاتٍ تَمَّ أَضْحَى وَهُوَ سَالِ؟
لَمْ تَكْرَمَ جَمْعَ هَاتِيكَ الْخِصَالِ؟
يَدْعَى أَنَا عَيْبِدُ وَمَوَالِ؟
حَظُّهُ بَلْ قَضَاهُ فِي كُلِّ حَالِ
مَا يُؤَدِّي بِعَلَانَا لِانْحِلَالِ
فَتْرَةَ لِلْهُوَ أَوْ دَوْرًا انْتِقَالِ
كَمْ أَسْوَدَ رَقِدَتْ تَحْتَ الظَّلَالِ!

إِيهِ قَوْمِي قُمْتُ فِيكُمْ ذَاكِرًا
وَأَنَا الْيَوْمَ طَرُوبٌ ذَاكِرِ
فَلَنَا كِلْتَاهَا عِنْوَانُ مَا
أَيُّ مِصْرِي دَرَى مَا لَقَّنَا
أَيُّ جَمْعٍ مِنْ خِصَالِ خِرَّةِ
أَيُّ شَعْبٍ فِي جِلَالِ وَسْنَى
كُنَّا فَرْدٌ لَهُ أُمَّتُهُ
لِأَسْبَاتٍ - هَانَ أُمَّ طَالَ بِنَا -
فِي طَلَابِ الْمَجْدِ - أَنْ تَمْضَى بِنَا
خَابَ مَنْ ظَنَّ الرِّقَادَ مَيْتَةً

سِنَّةَ اللَّهْوِ وَهَيَا لِلْمَجَالِ!
صَارَتْ الْحَرْبُ أَعَاجِيبَ اشْتِغَالِ!

أَنْ رَجَعُ الْجُهْدِ قَوْمِي فَاَنْفَضُوا
بِسِلَاحِ الْعِلْمِ قَبْلَ السَّيْفِ قَدْ

ربّ خيطٍ من نسيج القطن لا
عالمٌ فيه الفنونُ قوّةُ
عملٌ مُستتبعٌ لا ينقضى
يبلغُ المدفَعُ منه كفعالٍ
والصناعاتُ، وليستُ للجدالِ
لاقتصادٍ وانتفاعٍ واشتمالِ

أمتي! أحلى دُعائي دعوّةُ
لك من قلبي بها أسمى ابتهالي؟

رثاؤه لفريد

قال سنة ١٩١٩ من قصيدة له في رثاء محمد فريد:

سلوا (برلين) عن حل فيها
مضى يستوهب الأيام عمرا
قلم يذهب بعلمته طيب
وخرّ على السرير وحب مصر
فيا لهفى عليك وأنت كهل
تموت فلا ترى مثواك أم
ولا يروى ثراك أخ شقيق
يفتت كبده المرض العنيد
تم به المساعي والجهود
ولم يكتب له عمر جديد
على تبريح علمته يزيد
غريب عن أحبته بعيد
ولأخت ولازوج ودود
بدمعته ولاطفل وليد

الحياة كفاح

قال سنة ١٩٢٣ من قصيدة له عن (المجاهد الجريح) يصف الحياة وأنها كفاح وجهاد:

شهدتُ من الدنيا المعارك والمُنَى
فصرتُ كجندىٍ جريحٍ مضمدٍ
ويهرب من حكم الحجا في وثوبه
توالت جراحاتي وأوذيتُ دائما
تسوق الفتى نحو المعارك والخنطُ
يشن ولكن كم يحنُّ إلى الحرب
إلى ساحة الهجاء والموقف الصعب
وهيئاتُ القبي من سلاحى ومن دأبى

يدعو الشعب إلى مجاهدة الفساد

وقال من قصيدة له في ديوانه (عودة الراعى) سنة ١٩٤٢:

يا شعبُ قم وانشد حقو
تك فالخنوع هو الممات

تشكو الغريب وعلة الشد كوى الزعامات الموات

قد عمت الفوضى وقد دب الفساد بكل شئ
فإذا سكنت فلن تُعد مدّ ولن يفى لك أئى حى

ما دمت تقبل أن تك نون من الضحايا كالعبيد
سيسؤمك القوأم والأسد يياد ألوان القيود

يا شعبُ كيف تطالب الغد رباء بالبر السخى
وتطبق مُلكك في محام باقٍ وفي نهب وغى

هيئات يُعطى الحق من ألف التهاون في الحقوق
هذا هو العدل الصحيح وغيره عين المروق

انهض وحاكم بائعيك إلى الهوى وإلى الفساد
أو مت ذليلاً لا يُقا س بذله حتى الجماد

يودع مصر

وقال يودع مصر ويذكر أسباب هجرته في قصيدة له عنوانها (لم ارتحلت؟):

سألوني لم ارتحلت؟ كأنى لم أجهم بسيرتى نصف قرن
شادياً بالطليق من شعري الباكي أغنى لمجدهم ما أغنى
وحياتي لعزهم فى كفاح ككفاح الشعاع فى وسط دجن
مُثل لن تُجد نوعاً وعدا كنجوم السماء فى كل فن
وتبلغت بالعذاب وبالبؤس مرارا وكل حظى التجنى.

في لعصرى أو أنه لم يسعنى
 في وجود بقاؤه محض غيبن
 بنهارى لأجلهم وسط مَنْ
 حينما عزم من يضحى ويفنى
 فوق نسيانهم حقوقى وأمنى
 تد يشقى كالراح في أسردن
 لى جزاء ويهدمون وأبنى
 بعقوقى وما راعوا حق سنى
 يا لفكرى وبين شعبى وبينى
 وحيث الهواء طلق لذهنى
 لبلادى ما غيبت قط عنى

وكأنى وحدى المسىء بإحسا
 ما كفاهم أتى أعانى وجودى
 ما كفاهم أنى أواصل ليلى
 ما كفاهم أنى أضحى بروحى
 ما كفاهم أنى تناسيت نفسى
 ما كفاهم أنى لهم ذلك الرا
 ما كفاهم أنى ارتضيت شقائى
 ما كفاهم هذا وهذا فنادوا
 ثم حالوا بين المثالية العد
 فترحلت حيث تحترم الأحرار
 وأظل الوفى رغم اغترابى

القلب الباكى

ومن قصيدة نظمها في عيد ميلاده عام ١٩٤٨ يتاجى فيها الوطن قائلاً:

أزكى الجنان، ولا عوقبت، لولاك
 به المقادير في قرى، وأهواك
 أنا الغريب فعيدى يوم ألقاك
 لا أن أعبود لأغلال وأشراك
 على فؤادى من ضيم بدنياك
 ذل الجباه لمألون وأفاك
 وضاحك كل ما في قلبه باك

يامصر لولاك ما فارتقت في حرقى
 أهواك في غريبى أضعاف ما سمحت
 ما العيد عندى في مباهجه
 على سلام وفي حرية شملت
 الثلج حولى أحنى في تحرره
 والنفى أسعد أيامى إذا فرضوا
 ياربّ مقترب في حكم مقترب

الحنين إلى الوطن

قال يصف حنينه إلى الوطن وتعلقه به في غربته:

عان، ونفى معذب في وحدتى
 حدّ، فلا ألقى التعميم بنعمتى
 كافحت في وطنٍ به حريقى

نفيان: نفى مغرب عن أمتى
 وحيالى الأفراح شقى مالها
 قالوا فررت وما فررت وإنما

وضربت بالحرمان أمثال الهدى
لم أعن بالأشكال قدر عنايتي
حرق البخور لمن أذلّ بلاده
وجعلت ما عانيت قربانا لها
وطنى! رضيتك منصفاً في قدره
للعاملين وكم شقيت لأمتي
بتمسكي بمبادئى في ثورتى
وحرقت في إعزازها من مهجتي
وأظلل في سقمتى وفي شيخوختى
جهدى وإخلاصى وغاية غيرتى

يتشوق إلى مصر

ومن قصيدة له في حفلة أقيمت لتكريمه في نيويورك سنة ١٩٥٠:

تركت مصر وقلبي لوعة ولظي
فدى لها - لو أباحت - كل ما ملكت
تركتها وبودى غير ما حكمت
وقلت على بعد أشارفها
أثنان خُدت الدنيا لأجلها
لجنة ضيّعت في نوم جنان
نفسى وما وهبت في حبه الجانى
به المقادير في أشجان لهفان
وأفخ الصور إن فاتته نيرانى
الحب والتيل مذكانا بإنسان

الوطن بأبنائه

قال في اعتراف المواطنين بأقدار الرجال وأنه من مظاهر الوطنية السليمة:

إذا عرف الرجال حقوق بعض
فتنتظم البلاد بهم وتسمو
لبعض نزهوا عن كل ضعف
ويغدو الفرد معدودا بألف

تأملات

ومن قوله في قصيدة له بعنوان (أقصى الظنون):

ما الخلق، ما هذه الدنيا ومنشؤها؟
مسائل هي للأحقاب باقية
أجل فرض لها وهم وأيسره
ما الفكر ما الجوهر الباقى وما العدم؟
كنا سيقى الردى والشك والألم
وهم وقد يستوى الدهماء والعلم

الوطنية والعروبة

ومن قصيدة له يعبر فيها عن وطنيته وعرويته:

إن العروبة والكنانة ملتي
فلموطني روحى وكل جوارحى
يكفى لنا النسب العتيد مجمعا
دين يوحدُه الوقي العابد
ولكم حنيني والشعور المسجد
فجميعنا صيدُ رماه الصائد

نداء الحرية

ومن قصيدة له سنة ١٩٥١ يناجى الشعب ويمجد جهاده ضد الاحتلال في معركة القتال:

بوركت يا شعب الكنانة ثائرا
أزجى إليك تحيتي من خاطر
ياأبي النفاق ولا ييوح بغير ما
ليس الصديق هو المقرب وحده
إن كان غيبني العتاة فمهجى
أبي مساومة الطفاة وإن أذق
إن كان يُعوزنا السلاح فربما
حرأ وياوطن البطولة قاهرا
دام ومن قلب يذوب مشاعرا
جعل الحياة نفائسا وذخائرا
ولرب مهجور يُظن الهاجرا
لك أين كنت مكافحا ومناصرا
شر الأذاة، مواليا لك ذاكرا
خلق الإباء بنا السلاح الباترا!

وحش للاستعمار يعمن شره
وكأما حسب العقول نفاية
هل يصلح المذيع من آثامه
حين الفظائع قد خطبُن بألسن
حين الأساطير التي يدلى بها
حين الخرائب صارخات حوله
باسم الحضارة والتقدم ساخرا
للناس، أو بعض الهواجس دائرا
حين الرصاص بصيح أرعن كافرا؟
للنار واعتلت الجراح منابرا؟
سبت بصائر للورى وسرائرا؟
مثل اليتامى لا تمثل عامرا؟

إن كان حسن الظن ذنبا أولا
هو غاية الإجرام للوطن الذى
لن يمنح الوطن المفقدى صفحة
ويرى بالاستعمار بعض خلاصه
فيه، فكيف يعد ذنبا آخرأ؟
عانى وعانى من أذاه خسائرا
لفتى يخادع أو يخادع صابرا
هل كان الاستعمار إلا جائرا؟

أن يحذروه مفاوضا ومشاورا
 مها تقلب في المظاهر ما كرا
 فمن القطيعة ما يكون الزاجرا
 وعد تؤمل فيه بعثا باهرا!
 فعالة، لا ضجة وحناجرا!
 إن السلامة قد تكون مخاطرا
 ذهبوا الضحايا في (القناة) حرائرا
 تبقى لأحقاب تدوم ذواكرا
 مها تلالاً روعة ومفاخرا
 إلا ليُلهم غافياً أو شاعرا
 إن الحقيقة ما تمثل حاضرا
 بشياتكم، لا تجعلوه العابرا
 إن التفوق لا يطيق معاذرا!

قرن من التغيرير عَلمَ نشأنا
 حذرًا بنى وطني! فذاك عدوكم
 لا تمنحوه سوى القطيعة وحدها
 أو ما يكون به الخلاص ليومكم
 حذرًا بنى وطني وكونوا وحدة
 ليست سلامتكم مجالا هيئنا
 لا تأسفوا - مها حزنتم - للآلى
 حمل الأديم من النجيع وصية
 خلوا التغني بالجدود وفضلهم
 فهو الغنى بذاته عن ذكره
 وخذوا بأسباب بلُنة حاضر
 كونوا من الشهداء في إعجازكم
 لا عُثرَ بعد اليوم عند تهاون

يهاجم فاروقاً قبل خلعته

ومن قصيدة له نشرها في مجلة (الشهداء) التي تصدر في حلب - عدد ابريل سنة ١٩٥١،
 يهاجم فيها فاروقاً قبل خلعته بعام، ويشبهه بالكركدن، وهي من بليغ شعره الوطني، قال:

مِنْ دَمْعَةِ الشَّعْبِ وَمَنْ كَدِّهِ
 مَمْلُوكِ الحَدِّ عَلَى صَفْوِهَا
 كَمْ يَجْعَلُ الدِّينَ حَبَالَاتِهِ
 قَدْ عَضَّهَا النُّحْسُ، وَمَا عَضَهُ
 يَمْرِغُ الأُمَّةَ فِي رَجْسِهِ
 عَانَتْ بِهِ وبِأَوْشَابِهِ
 مَتَنَفِّخًا، يَمْرِجُ مَسْتَفْرِقًا
 كَالكَرْكَدَنِ الَّذِي يَزْدَهِي
 لَمْ تَعْطِهِ غَانِيَةً قَبْلَهُ
 أَوْ بَادَلْتَهُ نَكْتَةً حَلْوَةً
 وَمَنْ دَمِ الأُمَّةِ فِي نَرِيدِهِ
 يَالَيْتَهَا تَمَلَّكَ مَنْ حَدَّهُ
 لِيَحْنُقَ المَصْلِحَ فِي مَهْدِهِ
 إِلَّا فَمَ يَرشِفُ فِي وَجْدِهِ
 وَيَسْرِقُ الأُمَّةَ فِي رَنْدِهِ
 فِي قُرْبِهِ الجَانِي وَفِي بَعْدِهِ
 فِي، اللُّهُو كَالصَّائِدِ فِي صَيْدِهِ
 فِي قَبْحِهِ يَسْخَرُ مِنْ قَدِهِ
 إِلَّا كَمَنْ تَهَزَأُ مِنْ رَشْدِهِ
 إِلَّا وَمَغْزَاهَا مَدَى نَقْدِهِ

تَكُن الفاجرَ من قصده؟
 فأصبح الغاشم في حقه
 فأصبح المبدل من حمده
 في روحه العالى وفي زهده
 الشارد الخادع في وعده؟
 حتام؟ والخسة من مجده
 حتام؟ والسوقة من جنده
 حتام؟ بل أهون من عبده
 لو يعقل الميِّت في لحده

حتام يا قوم ضلالتكم
 كنا نرجيّه مثال الهدى
 كنا نغنيه أغاني العلى
 كنا نفديه بأرواجنا
 ما باله أضحى فتى ماجناً
 حتام يستهزىء من مجدكم؟
 حتام يسترسل في غيّه؟
 حتام أعلاكم له صاغراً؟
 أعقلكم دون دفين الثرى

يحيى ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢

وقال سنة ١٩٥٢ من قصيدة له يحيى ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢:

بوركت يا وطنى العزيز محرراً
 لو أستطيع كتبت شعرى من دمي
 لو أستطيع سألت كل خيلة
 لو أستطيع زفت ما أنا عاشق
 لو أستطيع بعثت من ضحك الضحى
 لو أستطيع وهبت كل مكافح
 لو أستطيع أعدت أعواماً مضت
 لو أستطيع بذلت أضعاف الذى
 لو أستطيع غسلت ساحة دوركم
 لو أستطيع هربت من شيخوختى

سَمَحًا، وفي كل القلوب حبيبا
 حتى أزيد بشعري الترحيبا
 وبعثت بالشعر المنور طيبا
 ليكون قربانا أعز قريبا
 كنزا، ومن لطف الغروب نسيبا
 عمراً تكرر في الخلود عجيبا
 لتقص أحلاما رأت ووجيبا
 مُحلت في إشارى التعذيبا
 بدماعى، ورششتها تطيبا
 ورجعت أرقل في الشباب قشيبا

ينادى بإلغاء الملكية

من قصيدة له في أكتوبر سنة ١٩٥٢ يدعو إلى إلغاء الملكية:

اقطعوها وانيدوا من دعاها
 قد خدعنا في الذى قالوا لنا
 نعمة، إنا شعبنا من أذاها
 عن جناها، بس ما يجنى جناها

وأَمَاتِ العَصْرَ^(١) فِي بَغْيِ تَنَاهَى
كَانَ أَحْيَا الأَمْسِ إِصْلَاحًا وَجَاهَا
رَوَّقُوهَا كَى يَعدُّوه إِهْلَا
أَنْ يُضَلُّوا الشَّعْبَ فِي الذَّلِّ فَتَاهَا^(٢)
فَرَأِينَا مَنْ هَوَى فِيمَنْ تَبَاهَى
أُتْمَتِ الأَحْرَارِ، لَا دَعْوَى سِوَاهَا

أَثَرٌ أَحْيَا قَرُونًا سَلَفَتْ
قَلَّتْ «أَحْيَا» لَيْتَهُ الحُلْمُ الَّذِي
إِنَّمَا أَحْيَا شَرُورًا سَلَفَتْ
خَدَعُونَا حَقْبَةً وَاسْتَسَهَلُوا
كَمْ تَغْتَنِينَا بِحُبِّ صَادِقِ
سُلْطَةِ الشَّعْبِ هِيَ الأُمَّةُ الَّتِي

يحيى الجمهورية المصرية

وقال من قصيدة له في ١٩ يونيو سنة ١٩٥٣ يحيى الجمهورية المصرية بعد إعلانها^(٣):

أَبِي الحَقِّ أَنْ يَلْقَى بِهِ العَارَ وَالظُّلْمَا
- وَقَدْ نَلَّتِ مَا تَهْوِينَ - أَنْ تَخْلُقِي الضُّيَا
فَمَنْ يَقْبَلِ التَّفْرِيقَ يَسْتَأْهِلِ الرَّجْمَا

إِذَا الحَكْمُ لِلجُمْهُورِ أَصْبَحَ رَائِدًا
فِيهِ أُمَّةٌ (النَيْلِ) المَبَارِكِ حَاذِرِي
وَلَا تَقْبَلِي التَّفْرِيقَ فِي أَيِّ مَظْهَرِ

* * *

فَكَمْ أُمَّةٌ هَانَتْ بِإِعْزَازِهَا الوَهْمَا
بِحَدِّقِهَا مِنْ حَدِّ مَطْلَبِكَ الأَسْمَى
وَمَا بَرِحَا وَالدَّهْرَ كَالطَّائِشِ الأَعْمَى
وَقَدْ كَانَ كَالْمَحْمُومِ سَكْرَانَ بِالحُمَى
وَمُنْجِبَةً أَعْلَامَ نَهْضَتِكَ الشُّبْمَا
وَقَدْ كَانَتْ الوِيْلَاتُ تَغْتَالُهُ قَضَا
تَلَوْدُ بِهِ خَيْرُ المَوَاهِبِ أَوْ تُحْمَى

أَعِيدُكَ مِنْ وَهْمٍ يَصِيرُ عَقِيدَةً
أَعِيدُ (جَمَالًا)^(٤) وَالعَزِيمِ (مُحَمَّدًا)^(٥)
قَدْ انْتَزَعَا مِنْ قِيلِ حَظِّكَ عَنُوءَةً
تَجَبَّرُ وَاسْتَعْلَى فَرْدَاهُ صَاغِرَا
وَهَا أَنْتِ بِالعَهْدِ الجَدِيدِ طَلِيقَةٌ
فَفِي كُلِّ شَبْرٍ مِنْ ثِرَاكِ خَمِيلَةٍ
وَفِي كُلِّ رُكْنٍ مِنْ رِبْوَعِكَ مَلْجَأُ

* * *

(١) أى العصر الحاضر.

(٢) فتاة، أى فضل.

(٣) أعلنت الجمهورية في مصر يوم ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣.

(٤) جمال عبد الناصر

(٥) محمد نجيب.

٢٦١

على ما كسبتِ اليومَ واغتمى اليوما
تبرُّ بإعجازها كلَّ ما تمَّا
وفنا تهزُّ الغافلين أو الصُّمًّا
أزلتِ بهذا النُّصر من دمك اليُتْمَا
وها هو قد أضحى لكل الورى غنما
وما خصَّ شعبا يستفيق ولا قوما

فيا (مصر) عَضَى بالنواجذ حُرَّةً
وهيأ أعدى للغد المرتجى عُبلً
إخاء وتنظيما وعلمًا وهمة
ولا تشتكى من لاعج اليُتْم بعدما
ألا في سبيل المجد ما قد غنمته
فإنك للأقوام أمثولة الهدى

* * *

تعافُ ذليلَ العيش واليأس والنُّوما
منائرُك الزهراء تستقبل السُّلْمَا
وحسبى - على رغمى - مفارقتى الأما
فمن قلب محروم تهلل إذ يُدمى
تعيشُ على الأضداد مهما تكن غرما

تبارك ربِّي حين يُنصف أمةً
عزيزُ على مثلى البعادُ وقد زهتُ
عزيز وفي قلبى حنان مؤرق
إذا جئت هذا اليوم أزجى تهانئى
ولكنَّ نفس الحر نفسٌ عجيبةٌ

يذكر مصر ويحن إليها

وقال من قصيدة أخرى يذكر مصر ويحن إليها:

دُمعى الذى تأبون بعض مودعها
وأظلُّ أحيًا فى صميم ربوعها
ونوافح الغدران حول ربيعها
والذكريات وهو بها كمنوعها

لا تنهروا روحى لفرط ولوعها
ألقت بي الأحداثُ دون ربوعها
تثب الرؤى حولى بأنفاس الربى
وتهزنى الذكرى فأشرق بالأسى

* * *

معنى السلو وحرقتى لجموعها
كبكائه لسماؤها وزروعها
بحنائها، وتراقصت بولوعها
شتان بين عبادتى وخضوعها

كم واهم أنى سلوت وما درى
إن الفتى الوافى بكى حصاءها
دنيا الصباحة والجمال تلالأت
أجد الخضوع لها أحبَّ عبادة

* * *

غير الندى والشمس غب طلوعها

لو أستطيع طردت عن أزهارها

وجعلت أضلاعى أبرّ دروعها
في عزمها كالشمس بعد هجوعها
سيان بين وضيعها ورفيعها

وحميتها مما أغار تجنيًا
وبعثتها من نومها، وجعلتها
وأثرتها لعظائم ومفاخر

منها الخيار، فخيرها بجمعها
بحياتها وتصورت بصنيعها
فلقد أفاء على حلم بديعها
فلقد جنت عيني طيوف نزوعها
والنفس حيرتها أشد صدوعها
وتبتلت في حبها وركوعها
والدمع والتقبيل يوم رجوعها؛
دمعى الذى تأبون بعض دموعها

مصر الحبيبة جنة لا أشتهى
أهوى لها الإعزاز كيف تمثلت
إن كان عاقبى الزمان بغربى
أو لم تنل عيني شعاع سنائها
وتركننى في حيرة لا تنتهى
ركعت بحراب الجمال بوهها
وأذابت الأحلام في ألحائها
لا تنهروا روحى لفرط ولوعها

ذكرى الشهداء

وقال في (ذكرى الشهداء):

ألق الشموس لها من الأفواف
عمر البطولة بآل كل شغاف
من يحجمون إلى الخلود الصافي
واليوم نقرؤها الحنان الوافي
عبقت بحر شعورها الرفاف
شهم، وليس على الأبي بخاف

ذكرى يرددها الزمان الوافي
شعت على مرّ السنين، وعمرها
متغلغلا بنهى الفوارس، دافعا
اليوم يوم صلاتنا لجلالها
وعلى الثرى نجثو، تقبل تزبة
ما كان بالخافي على مستلهم

ونشيمها في النور والأطياف
وبكل نبع للحقيقة صاف
سمحا على رغم الردى المتلاف

إنا بنى الأحرار نعرف قدرها
وبكل معنى للعظائم شامخ
لا يجد غير الحق يبقى ناصعا

هذى مقابرهه وتلك دماؤهم
هيهات يدركها الطغاة وربما
سبجىء يوم للحساب، قضاتهم
مثل النجوم ونورها الشفاف
سجدوا لها رغبا عن الآناف
تلك العظام، بغضبة الإنصاف!

* * *

يا أمة الأحرار دوى حرة
وبحسبك الشهداء ضمخ ذكرهم
يوم كهذا اليوم تهتف عنده
وتعزه الدنيا التى حلمت به
والتضحيات لك الجلال الكافى
هذا الأثير، وشاع فى الألفاف
مهج الشعوب العانيات هتافى
حلمى، وتزأر وثبة الآلاف!

يهاجم الإستعمار وينادى بالثورة عليه

ومن قصيدة له يهاجم فيها الاستعمار وينادى بالثورة عليه، نظمها سنة ١٩٥٢ لمناسبة الصراع بين الحرية والاستعمار فى تونس، قال فى مطلعها:

نوروا على الظلم العتق جهارا
النار لم تخلق لغير مجاهد
لابد من صهر اليقين بشعلة
خلو الرصاص مديئا من حولكم
هذى البداية للنهاية، لم يدم
مراكش ثارت عليه، وفى غد
لا ترهبوه وإن يكن جبارا!
طلب العظام حين خاض النارا
حتى يخلص رائعا قهارا
لابد أن يهوى وأن يتوارى
حكم أسف به الدخيل فبارا
سنرى الجزائر تصفع الجبارا

* * *

أمم العروبة نخوة وأرومة
خسثوا وضلوا، والخسيس بطبعه
ياويلهم، ومن الضحايا حولهم
وثقافة، أتقدس استعمارا؟
يلقى الكرامة والمكارم عارا
لئن تحدث فى البصوت مرارا

* * *

«فرحات»^(١) ليس بأول أو آخر .
لجرائم روعننا تكرارا

(١) الزعيم العمالى التونسى الذى اغتاله الفرنسيون.

ولو أنها لبست حلى ووقارا
عقبى الذين يلاعبون النارا
واستنطقوا الأدهار والآثارا
ودما، وآلما حوت، وشرارا

ما كان الاستعمار إلا سبّة
يلهو به المستعمرون كأن نسوا
قالوا: «هو النعم الجزيلة فيضه»
فتضاحكت منهم، وفاضت عبرة

إلى أن قال:

أبدا فقد فقدوا لهم أعمارا
في حين يسمع غيرها هدارا
تلك الدماء وتخلق الأحرارا

إن قدر المستعمرون خضوعها
ومن الشعوب الساكنات ثوائر
لن يستطع الذلّ من تجرى بهم

* * *

عبد الحكيم المصري

١٨٨٧ - ١٩٢٢



من الشعراء الضباط. ولد في مايو سنة ١٨٨٧، وبعد أن أتم دراسته الابتدائية دخل المدرسة الحربية وتخرج منها سنة ١٩٠٦ في التاسعة عشرة من عمره، وألحق ضابطاً بالأورطة السادسة عشرة من المشاة في كسلا.

تعشق الشعر والحرية منذ صباه، فغاد بقصائد رقيقة في التغني بالوطنية والحرية.

وظل يغرد بالشعر ويتغنى به إلى أن وفي في يولييه سنة ١٩٢٢، وكان حين وفاته في ريعان الشباب، فكان لوفاته وقع أليم في النفوس.

كانت له في الشعر مكانة ممتازة، عبر عنها حافظ إبراهيم بقوله في رثائه:

لَكَ اللهُ قَدْ أَسْرَعَتْ فِي السَّيْرِ قِبَلْنَا
وَقَدْ كُنْتَ فِينَا يَا فَتَى الشَّعْرِ زَهْرَةً
فَلَهْفَى عَلَى تِلْكَ الْأَنَامِلِ فِي الْبَيْلَى
وَيَا وَبِحَ لِّلْأَشْعَارِ قَبْلَ نَجِيَّتِهَا
تَزُوْدُ مِنْ دُنْيَاكَ ذِكْرًا مَخْلُودًا
وَلِلْمِصْرِيِّ دِيْوَانُ شَعْرٍ مِنْ ثَلَاثَةِ أَجْزَاءِ.

وَأَثَرْتُ يَا «مِصْرِيٌّ» سَكْنَى الْمَقَابِرِ
تَفْتَحُ لِلْأَذْهَانِ قَبْلَ النَّوَاطِرِ
فَكَمْ نَسَجَتْ قَبْلَ الْبَيْلَى مِنْ مَفَاخِرِ
وَوَبِحَ الْقَوَافِي سَاقَهَا غَيْرُ شَاعِرِ
وَذَاكَ لِعَمْرِي نِعْمَ زَادَ الْمَسَافِرِ

فجر الأمل

من قصيدة له نظمها سنة ١٩٠٩:

تَرَعْرَعُ عَهْدُ الْيَمَنِ وَاخْضَلُ جَانِبُهُ
مَضَى زَمَنٌ كُنَّا فَرِيْسَةَ حَرْبِهِ
وَرَدَّ عَلَيْنَا اللَّهُ مَا الدَّهْرُ سَالِبُهُ
وَجَاءَ زَمَانٌ مَا نَزَالُ نَحَارِبُهُ

من الشرق إلا قام ألف يغالبه
فعدد لها بالله ما أنت طالبه
وإما تمشت للقضاء تطلبه
وإما محونا اليوم ما أنت كاتبه
ورواك من ماء المجرة ساكبه
على فوزها أبدى لها الفوز حاجبه

عن البأس حتى أن ترن نوادبه
عن الجحد حتى نظم الدر ثاقبه
فقالوا أبو حفص بدا وكتائبه
وأكتب ما يملى الرسول وكتائبه
وضارب به من لا نطق نضاربه
وفرت من الجفن الحريص سواربه

أطل على واد نمتك جوانبه
بلابله تشدو وتصفو مشاربه
ترامى نواحيه وينهال كتائبه
فألفى رجالا كالأسود تجاوبه
إلى رغبة إلا وقمت رغائبه

فلم يغلج الدهر العصي مجاهدا
فيا شرق قد جاشت بنفسك أنفس
فإما أصابت من منهاها طليبة
تقول له إما احتسبت جزاءنا
جزاكن عنى الله يا خير أنفس
إذا ما النفوس الطاهرات تضامنت

إلى أن قال مخاطبا الزعيم محمد فريد:

(محمد) لا يلو الكرى لك عزيمة
نهزت بأنباء البلاد ولم تمل
طلعت بهم في باسم الصبح عابسا
كأنى وأنت اليوم تدعو إلى الهدى
فجرد شبا تلك اليراعة صارما
لقد روعت منا الهموم جوانحا

ثم قال مخاطبا الكتابة:

فيا غادة في الشرق قد غار نجمها
لقد كان روضا وارفا الظل في العلى
فأصبح تذرره الرياح عواصفا
إلى أن دعا داعى الصلاح حياله
دعوت أناسا ليس يدعوه هو امرؤ

يصف قصر أنس الوجود ويشيد بعظمة مصر

عيني إليك وقلبي للأولى رحلوا
وفي الطلول البوالى ترسل المقل
عيوننا أين كانت دورنا الأول
أدناهم الشوق أو أقصاني الأجل
غير البكاء فقد ضاقت به الخيل

وقف عليك دموى أيها الطلل
أرسلت بالعين في سقياك هامية
لولا ببقية أطلال لما عرفت
ليت الأحبة حين البعد طاح بهم
يا عالما بالهوى أرشد فتاك إلى

أن أبكها وكلانا خطبه جلال
هون عليك كلانا بعد هم طلل
واليم مضطرب والموج مقتبل
وأنت كالركن فيه محمد القبل
في وجهك الطلق لا يبدو بها ملل
شتان ما بين من قالوا ومن عملوا

تبكى على دورهم مثلى وتعذلى
يا أيها الطلل المزورّ جانبه
وقفت باليم رسماً لحرارك به
رِيّاك من جنة الفردوس سارية
الدهر ملّ وآى الدهر كامنة
قرأت فيهن سر العالمين فيا

وختمها بقوله :

فمن يجاريك فيما شدت يسا (أنس) المرء مرتحل والذكر مقتبل

يكرم الشيخ عبد العزيز جاويش بعد خروجه من السجن

ومن قصيدة له سنة ١٩٠٩ في حفلة تكريم الشيخ عبد العزيز جاويش لمناسبة خروجه من السجن بعد استيفائه مدة الحبس (ثلاثة أشهر) التي حكم بها عليه في أغسطس سنة ١٩٠٩ عن مقالة له في (ذكرى دنشواي):

من جائر للمستجير
ك بين سكان القبور
ش تقلّب العاني الأسير
يحنو على ذاك المزور
ل وخفت من سجن الضمير
ز تهون هائلة الأمور

تصف السجون وما بها
أيام كنت تحال نفس
متقلبا فوق الفرا
وتود رؤية زائر
ما خفت من سجن الخيا
في جانب الوطن العزيز

أسود النيل

من قصيدة قالها سنة ١٩٠٩ في الاحتفال برأس السنة الهجرية سنة ١٣٢٧:

هل أطمعتهم مصر في السودان؟
بدم العدى حين التقى الجيشان
أوكارهم شيدت على الأفنان
في الحرب مشتركان مختصمان

مالي أرى السودان طعمه أكل
أنسوا أسود النيل يوم تضرجوا
متسابقين إلى الحصون كأنها
متقاسمين العاديات كأنهم

صوت الشعب

من قصيدة له يخاطب الخديو عباس الثاني ويطالبه بالدستور:

رُدِّ الوديفة لا مالا ولا شانا لم نرجُ في جانب الدستور إحسانا
لولا ولاؤك لم نبسط إليك يدا من الرجاء ولم نسألك غفرانا

يناجي الحرية

من قصيدة له في مناجاة الحرية سنة ١٩١٠:

حَلَّاهَا البينُ فانجابت عن المقل ولم تودع قبيل السير من رجل
كأنما لم يصفها القوم في بلد ولم يؤهل بها في منزل حفل
إلى أن قال.

عودى أطلُّ علينا إننا نفر إن جِلَّتْ عنا فإننا عنك لم نحل
الدهر غيرنا حتى إذا بصرت بنا الديار غدت منا على دخل
رُدِّي علينا عهداً منك ناضرة يارُبِّ عهد تولى ثم لم يؤل
كنا وكنتِ وكان الدهر، فانقرضت أيامنا وتولينا على عجل
أصبحتِ في غير وادي النيل ثاويةً والشمس في الحوت غير الشمس في الحمل
أيسجنون يراعاً لم يُثر فتناً ويعقلون لساناً غير منعقل^(١)

وختمها بقوله مخاطباً المواطنين:

أتى زمان نهوضٍ وانقضى زمنٌ كان البكاء يُرى فيه من الحيل
فراقبوا الله يوماً في كنانته إن الكنانة أضحت مطمح الدول

(١) يشير إلى تقييد حرية الصحافة.

عزير فهمي

شاعر الحرية والشباب
١٩٥٢ - ١٩٠٩



هو الدكتور عزير فهمي، من أعلام الحرية والأدب، وأبطال الوطنية والجهاد.

ولد سنة ١٩٠٩ بطنطا، وهو نجل الأستاذ عبد السلام فهمي جمعه رئيس مجلس النواب السابق ومن المجاهدين في الحركة الوطنية.

تلقى علومه الابتدائية والثانوية في المدرسة الابتدائية ثم في المدرسة الثانوية بطنطا، ثم انتقل إلى مدرسة الجيزة الثانوية حيث نال منها شهادة البكالوريا.

وبدت عليه منذ أن كان يتلقى التعليم الثانوي ميوله نحو الحرية والأدب والشعر وأنشأ وهو في مدرسة الجيزة الثانوية مجلة أدبية كان ينشر فيها آراءه وأشعاره.

وانتقل إلى التعليم العالي بالقاهرة، وجمع بين دراسة الحقوق في كلية الحقوق ودراسة الأدب بالانتساب إلى كلية الآداب، فنال ليسانس الآداب سنة ١٩٣٢، والحقوق في سنة ١٩٣٣، وكانت رسالته التي قدمها إلى كلية الآداب في المقارنة في الشعر العربي بين العصر الأموي والعصر العباسي.

وكان طموحًا إلى الاستزادة من العلوم والآداب، فسافر إلى باريس سنة ١٩٣٣، والتحق بجامعة وحصل منها سنة ١٩٣٨ على الدكتوراه في القانون وكان موضوع رسالته (الامتيازات الأجنبية في مصر ومعاهدة مونترلو)، وكانت أول رسالة من مصرى عن هذه المعاهدة، والتحق في الوقت نفسه بالسوربون للحصول على الدكتوراه في الأدب.

وقد شبت الحرب العالمية الثانية وهو في باريس، فعاد إلى مصر سنة ١٩٤٢ مملوءًا وطنية وتضحية، مستكملاً دراساته العلمية والأدبية.

وشغل منصب وكيل نيابة بالمحاكم المختلطة وقتا قصيرا، ثم ضاق صدرا بالقيود الحكومية، فاستقال مؤثرا العمل الحر والجهاد الحر، واشتغل بالمحاماة والصحافة، ووقف قلمه ولسانه، وقلبه وجنانه، على الجهاد في سبيل الحرية، ومكافحة الاستعمار والطغيان والفساد.

كان أديبا شاعرا، وخطيبا مفوها، يجمع بين بلاغة العبارة وسلاسة الأسلوب، وقوة التفكير، وغزارة المادة، والشجاعة الأدبية، كان يدافع عن الحرية بقلمه ولسانه على صفحات الجرائد، وبلسانه فوق المنابر، وفي ساحات القضاء، وتحت قبة البرلمان.

وقد اعتقل وحقق معه غير مرة بتهمة العيب في الذات الملكية، أو التحريض على الإخلال بالنظام، وكان في المحاماة يدافع عن الحرية وعن المتهمين في جرائم الرأى، ويهاجم الطغيان والقلم السياسى والإجراءات التعسفية.

دخل البرلمان سنة ١٩٥٠ نائبا عن دائرة الجمالية بالقاهرة فكانت صفحته في دار النيابة أقوى صفحات حياته التي قضاه في الكفاح الوطنى، وعلى أنه انتخب مرشحا من الوفد، فإنه لم يتقيد بسياسة الحكومة الوفدية، وعارضها فيها يستحق المعارضة من تصرفاتها، وله في ذلك المواقف المشرفة، وظهرت مواهبه البرلمانية كخطيب ومناضل برلمانى من الطراز الرفيع، كان يناضل عن الحرية في كل مناسبة، وله المواقف المشهودة في معارضة نظام الاشتباه السياسى، ومعارضة القانون المعدل لنظام مجلس الدولة وهو القانون الذى قدمته الحكومة الوفدية إلى البرلمان للانتقاص من سلطات المجلس واستقلاله، ودوى صوته مجلجلا معارضا مشروعات تقييد حرية الصحافة سنة ١٩٥١، وكان لمعارضته هذه المشروعات دوى كبير وصدى استحسان عظيم في الرأى العام، وبلغت مكانته الوطنية والبرلمانية ذروتها في معارضته هذه المشروعات حتى انتهت بسحبها من البرلمان، فكانت هذه النتيجة أعظم انتصار للفقيد في حياته السياسية والوطنية.

ولما شبت معركة القتال بين الفدائيين والإنجليز عقب إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ في أكتوبر سنة ١٩٥١، سافر إلى منطقة القتال، وساهم في حركات المقاومة ضد القوات البريطانية، واستهدف للقتل غير مرة، فكان ذلك منه غاية البذل والتضحية.

وكانت وفاته يوم أول مايو سنة ١٩٥٢ في حادثة فاجعة، بل مأساة أليمة، إذ كان يعتزم السفر إلى الفشن في صبيحة ذلك اليوم ليرافع أمام محكمتها في إحدى القضايا، وكان يتوى السفر بالقطار، ولكن مواعيد السفر كانت قد تغيرت ابتداء من أول مايو لحلول الصيف، وقد فاته أن يعرف الموعد الجديد للسفر، فلم يدرك قطار الصباح، فاستأجر سيارة ركبها قاصداً الفشن، وفيها هى تسير في الطريق الزراعى وقع لها قبل العياط ببضعة كيلو مترات حادث فجائى، قلبها رأساً على عقب وهوى بها في التربة المحازية للطريق، فمات الفقيد غريقا.

وكانت وفاته فجيرة للوطن وبنيه، إذ فقدوا بوفاته مجاهدًا صادقًا بين المجاهدين الأحرار. كانت وطنيته فوق حزبيته، وعقيدته أساس شخصيته، كان يرى في الحياة السياسية رسالة يؤديها، لا يبتغي منها لنفسه مغنا ولا نفعًا، ولا يقصد إلا وجه الله والوطن، فلا غرو أن حزنت الأمة لوفاته حزنا عظيما.

اسلمى مصر

قال رحمه الله من قصيدة له سنة ١٩٣١ بعنوان (اسلمى مصر):

اسلمى مصرُ على مرَّ القرونِ . حُسْبِكَ اللَّهُ نصيرًا ومعينُ
 لن تُضامى أنت يا مهد الخلو د وهذا بعض أشبال العرين
 من تكن ليلاه مصر لا يهن ساعة البذل ولو ذاق المنون

إلى أن قال:

لا رعاكَ الله يا عهدًا مضى عهد بغى وافتتات وأفون
 محنة لا عهد للناس بها جزع الصبر لها، والصابرون
 عصفت بالحرث والتسل معا وأعادت عهد كسرى ونرون
 ونضت سيفًا بتوكا كلما هب، ذُقنا حديّة المنون
 دولة الحجاج أن قيست بها مثل في الرفق عند المنصفين

وهوى الأوطان للأحرار دين

إلى أن قال في تمجيد التضحية:

في يمين الله ما ضحيتمو لا يُضيع الله أجرَ المخلصين
 في هوى مصر يضحي عن حجباً ورضاء كل مُسْتَبَقٍ ضنين
 لن يُضيع العرفُ عند الله إن ضَيَّعَ الخيرَ أصيل وهجين
 هو عند الناس جودٌ ووفاء وهو عند الله إيمان ودين
 وليانات الهوى شتى كنا ر، سلر التاريخ عنها والمنون
 فهوى ليل قيس متعة وهوى الأوطان للأحرار دين

هى ليلانا جميعا فانظروا
 هل جمعنا من أفانين المنى
 ليتنى أحيأ إلى يوم أرى
 لا أبالى أعظامى بعده
 لا سقاك النيل يا مصر إذا
 ونُعدُّ مجدًا سلبيا غابرا
 هل قسطنا ما علينا من ديون؟
 ما تمته على مرّ السنين؟
 فجرّ مصر فيه وضاء الجبين
 فى سهوب^(١) من تراها أم حزون
 لم تقرب من أمانيك الشطون
 ونُعيّرُ بِلِواكِ العالمين

لا يخشى الموت

كان رحمه الله يتنبأ بأن لا يطول به العمر وأنه سيموت فى ربيع الحياة، فكان يستعد للقاء الموت، ولا يهابه ولا يخشاه، وينشد الخلود.

قال فى هذا المعنى من قصيدة له سنة ١٩٣٣ بعنوان (لحن الموت):

أيها العرّافُ هل عند النجوم
 كاذبٌ علمك ما لم تُنبئني
 جهلَ السرِّ أناسٌ قبلنا
 حملوا العبء وقد ناءت به
 ولكم ساءلتُ نفسى حائرًا
 ما وجودى؟ ما سبيلى؟ من أنا
 سرُّ هذا الكون أو عند المنون؟
 جرّتُ والله ولجّتُ بى الظنون
 وجهلنا فوق جهل الأولين
 أمم من قبل عادٍ و(أمون)
 حيرة السارى بليل ذى دجون:
 ما جهادى؟ ما مصيرى بعد حين؟

يا بنى أمى لقد جدّ نوى
 لا تقولوا مات فى شرخ الصبا
 ليس مئى من بكافى فارعوا
 وغدا يجمعنى واد شطون^(٣)
 ذلك الحق تجلّى واليقين
 لن يردّ الدمع محتوم المنون

(١) السهوب، كالسهول: الأراضى المستوية؛ والحزون: جمع حزن وهى الأرض الصلبة.

(٢) الشطون: البعيد.

(٣) الشطون: البعيد.

لا تقولوا ليته عاشرا فقد فارق الأصفادَ عصفورٌ سجين
شاقني الخلد كما شاق القطا سلسيل في عقاب وقرون^(١)

يا قارئ الكف

وقال في هذا المعنى سنة ١٩٤٤ من قصيدة له بعنوان (يا قارئ الكف):

يا قارئ الكف ماذا أضمر القدر؟ ولا عليك إذا لم يصدق الخبر
وما اهتمامك باسمي؟ هبهُ عنتره وهبه زيدا.. وجدى عمرو أو عمر
عليك بالكف فاقراً بين أسطرها ماذا يدل عليه الخط والأتر؟

أطالعُ اليمن أن الخط متصل وأية النحاس أن الحد منبتر؟
وما الشيات^(٢) على جنبى ثمانية تبدو كوشم وتخفى حولها غرر؟
خيرٌ عن الفأل لا تجفل فسانحةً عندى كبارحة والشر ينتظر
هل أنساً الله في عمرى إلى أجل يلح فيه علىَّ الهمُّ والكبر؟
وهل أبُلغُ آمالى؟ وأبعدها عندى كأقربها ناءٍ ومحتضراً
هبنى ظفرت بآمالى على ظمأ إذا ارتويت فماذا يعقب الظفر؟
وهل أوسدُ حزننا حرَّةً وحصى فى جوف هاربة أغوارها حجر
أم هوَجلاً^(٣) قذفاً^(٤) تنبو براكيها لا البيدُ عبدها يوماً ولا الحضر
قفراء جرداء لم تكلاً حشائشها إلا السواقى ولم يعلق بها مطر
أم تُقذحُ النار من حولى فتطمعنى حياً وأشوى بها أيان تستعر
أم أن فى مسبح الحيتان منقلبي يوم الرحيل إذا نادانى السفر^(٥)

(١) جمع منه: طريق فى الجبل وعمر، وقرون؛ جمع قرن؛ القطعة من الجبل.

(٢) السيات، جمع شية؛ العلامة.

(٣) الهوجل: المازة البعيدة لا علم بها.

(٤) القذف: البعيدة.

(٥) كأنه فى هذا البيت كان يتنبأ بموته غرقاً، وقد نوى رحمه الله غريقاً سنة ١٩٥٢.

قل ما بدا لك واهرف غير مبدع
 اللحد كاللحد والأكفان واحدة
 والمال كالعُدم لولا أنه أمل
 والسعد حال على الإنسان طارئة
 لولا التشابه في الأقدار ما صدقت
 فالرجم بالغيب - لو تدرى - هو الهذر
 ولا خيار لميت حين يدثر
 إن الغنى إلى الأموال مفتقر
 (وعند صفو الليالي يحدث الكدر)
 عرافة الحى من توفى لها النذر

الشورى

قال من قصيدة له سنة ١٩٤٣:

بني مصر هذا الحق أبلج واضح
 إذا شتم الشورى فذلك حكمها
 تولى زمان الحاكمين بأمرهم
 تولى زمان الفرد لا عاد عهده
 وهذا صراط يستوى عنده القصد
 وإن شتم الفوضى فليس لها حد
 ولم يبق في الدنيا مسود ولا عيد
 وبدل بالدستور سلطانه الفرد

الضمير

وقال يصف الضمير من قصيدة له سنة ١٩٤٤:

صاحبٌ وسان من طول السهر
 كلما غافلته في سكرة
 فإذا كُفرت عن وزر عفا
 ليس ملموساً فتدرى كنهه
 وتواريه فيغضى ساعة
 ليس عقلا أو شعوراً خالصاً
 فهو عقل باطن أو ملهم
 كم جرعت الصاب من ترياقه
 أنتما الدهر طريد أبق
 أينما وليت أحصى مُرجئاً
 إن تم ناداك أو تنس أدكر
 من أمانيك تجنى أو عذر
 وإذا عدت إلى إثم ثأر
 وهو ما كتمت يدرى ما تسر
 ثم يستيقظ في لمح البصر
 بل تُراثاً من شعور وفكر
 وهو إحساس قديم مدخر
 واستسغت الشهد مما قد هصر
 وغريم طارد أو منتصر
 موعداً حتماً فأيان المفقر؟

يتراعى شاحياً أو إمعاً وهو جبارٌ عنيفٌ تارةً وهو إعصارٌ وريحٌ صرصر وهو كالبحر إذا البحر طغى وهو كالسهم إذا السهم رمى أمرٌ ناهٍ وعاصٍ طيغٌ لا ينام العمر إلا ساعاة ساعة إن نمت عنها غافلاً أيها الساهر نم أو لا تتم إن جنينا فعلينا وزرنا

فهو كالظل إذا الظل انتشر وهو أحياناً ضعيفٌ يأتمر وهو كالسيل إذا السيل انهمر وهو كاللوح إذا الموج انحسر وهو كالسيف إذا السيف بتر وهو الأمر وهو المزججر فترقبها وبالغ في الحذر عدت كالمخمور أو كالمحتضر وترفّق وتجلد واستبعرُ وإذا نحن أنبنا فاعتذرُ

ومصر تناديهم وصوتى يردد

وقال في يونيو سنة ١٩٤٦ وهو معتقل في سجن الأجانب:

كفأك عزاء أنك اليوم أوحدهيون عذاب: السجن والليل موحش وقد يؤسر الليث المتبع عرينه أهبت بقومى أن يذودوا عن الحمى أهبت بقومى والخطوب زواحف وأنذرت حتى بح صوتى ولم أزل

وقد يسكن القعد الحسام المجردهويذهب عنك الحزن فيه تجلد ويرهب منه الصوت وهو مصفد ومازلت أدعوهم ومازلت أشهد تلم بهم طوراً وطوراً تهدد ومصر تناديهم وصوتى يردد

نذرت نفسى قرباناً لفاديها

ومن قصيدة أخرى نظمها وهو في سجن الأجانب سنة ١٩٤٦:

شكت إلى الله من عدوان أهليها واحرّ قلباه من يأس يصباعها فزعت من غدها علما بحاضرها وقفت قلبى عليها في شبيبته

وعات غاصبها في أرض راعيها يكاد لولا بقايا الصبر يردبها ورضت نفسى على نسيان ماضيها فشاب منها ومن عدوان ساليها

لما أفقت من الماضي بلا أمل نذرت نفسي قربانا لفاديها

ذكرت مصر فهاجتي مواجعها ذكرت مصر فهاجتي مواجعها
يا لائمي وأنا الجاني على كبدى يا لائمي وأنا الجاني على كبدى
كلُّ يغنى ليشجى سامرا وهوى كلُّ يغنى ليشجى سامرا وهوى
وليس لى سامر فيها ولا وطرٌ وليس لى سامر فيها ولا وطرٌ
وإنما هى آلامى أكتمها وإنما هى آلامى أكتمها

نزحت عنها فلم أعدل بها وطنا نزحت عنها فلم أعدل بها وطنا
وصنت شعرى إلا عن مفاتها وصنت شعرى إلا عن مفاتها
ورق شعرى كما رقت جداولها ورق شعرى كما رقت جداولها
وما رأيت كناساً فيه جؤذره وما رأيت كناساً فيه جؤذره

لما رُدِّدت إليها رد لى أملى لما رُدِّدت إليها رد لى أملى
وقد طويت إليها اليم واقتربت وقد طويت إليها اليم واقتربت
فكاد يظفر قلبى من توثبه فكاد يظفر قلبى من توثبه
وحال قلبى دموعا عند ما اتادت وحال قلبى دموعا عند ما اتادت
سجدت لله عرفاناً لنعمته سجدت لله عرفاناً لنعمته
فكيف حالت حياتى عندها سقراً فكيف حالت حياتى عندها سقراً

جارت عليها صروف الدهر واختلفت جارت عليها صروف الدهر واختلفت
راشوا لها السهم مسموماً فشتتها راشوا لها السهم مسموماً فشتتها
واثخنوها جراحاً فى مقاتلتها واثخنوها جراحاً فى مقاتلتها

إلى أن قال:

فزعتم من شرك يلقى غاصبها قبل الجلاء لعل (الوعد) يغريها

وما الجلاء إذا شدت^(١) بسلسلة من القيود و(شرط الحلف) يلبها
 تشعب الرؤى والأحزاب سادرة ومصر صابرة والصبر يضيها
 وكيف تنهض من أسر يكبلها والقيود أمرها والقيود ناهيها

بني وطني أهبت بكم زماناً

وقال في نوفمبر سنة ١٩٤٦ يندد بالإنجليز على أثر الاعتداءات الدامية التي وقعت منهم في القاهرة والإسكندرية، ويدعو المواطنين إلى البذل والتضحية:

سلوا من سامها^(٢) هذا العذابا ومن شرع الأسنّة والحرابا
 سلوا جلادها تبّت يدها بأى شريعة فرض العقابا
 أما ينهأ عقل أو ضمير يرد له المحجة والصوابا
 ضلال أن يعاتب مستبداً و أولى بالمسود أن يعابا
 وجهل أن يخاطب غير أهل فلا تحزن عليه إذا تغابا
 يصعّر خده صلفاً وحمقاً ويوردها على ظمأ سرايا
 وكم أسدت إليه وكم تجنى ولم يحسب لعاقبة حسابا
 بأى جريرة وبأى عدل تجرع مصر كأس النصر صابا؟
 ولولا مصر ماغنموا فلاة ولو مصر ما غلبوا ذبابا

* * *

سلوا (دنكرك) هل نهضوا بعبء وقد غنموا السلامة والإيابا
 سلوا (الصحراء) عنهم كيف طاروا وهل نخذوا النعمان لهم ركابا
 سلوا (العلمين) هل نبتوا بأرض وقد سبقوا مع العدو السحابا
 فكيف تعاضموا بعد انكسار وكيف تبدلوا أسداً غضابا
 سلوا (الميثاق)^(٣) هل وأدوه صيحاً وهل نسجوا من الكفن الإهابا
 وكيف جرى على فمهم كذابا وسال على سواعدهم خضابا

(١) الإشارة هنا إلى مصر.

(٢) يقصد الإنجليز

(٣) ميثاق الأمم المتحدة.

فأضحى الحق عندهم اغتصابا
جزاء صنيعة وتسد نابا
ونؤبان ومن غلب الذئبا

وكيف استبدلوا شرعًا بشرع
كذلك تلذع الأفعى كرميًا
وبين الناس رقط وابن آوى

إلى أن قال:

إذا نكأت حملناها عذابا
يشاطره الفجيعة والمصابا
يروع يبطشه السبع السغابا
وإن سام الجياد حمى العرابا
وأينع روضة وزكا ترابا
فضج النيل واجتاح الرحابا
ومن أضحت نفوسهم خرابا
مع الحلف المرافق والرقابا
إلى الرضوان واستبقوا الثوابا

ويا وطني فديتك من جراح
وهل يأسو الجريح سوى جريح
وكم من قسور ورد المنايا
إذا كرت عليه الخيل فرّت
روى دمه ثراك ففاح مسكا
وأخر في (الجنوب) ثوى شهيدًا
لحما الله الخوارج والمطايا
ولا كان الجلاء إذا أحلوا
وطوي لأولى ذهبوا فداء

فلما بح صوتي قيل هابا
لأسمعه الصدى عنكم جوابا

بنى وطني أهبت بكم زمانا
ولو نطق الجماد كما نطقنا

على الغايات



من شعراء الوطنية ومن المجاهدين القدامى، اعتنق مبادئ مصطفى كامل منذ أن استمع إلى خطبته الكبرى التي ألقاها بالإسكندرية في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧، وصار من تلاميذه وأنصاره الأوفياء المحافظين لعهد طوال السنين.

انضم إلى أسرة الصحافة منذ صباه. وعمل في صحف الحزب الوطني المتعاقبة. واتجهت نفسه إلى الشعر، فنظم قصائد تفيض وطنية وإخلاصاً. وقد جمعها في ديوان أصدره سنة ١٩١٠ بعنوان «وطنيتي» وله مقدمتان، إحداهما بقلم محمد فريد، والثانية بقلم عبد العزيز جاويش. وكان لهذا

الديوان قضية أنرت في مجرى حياة الشاعر. فقد أقيمت عليه الدعوى العمومية وحوكم على قصائد من هذا الديوان عدتها الحكومة وقتئذ عيباً في ذات ولي الأمر (الخدوي عباس الثاني) وتحريضاً على كراهية الحكومة والإزدراء بها، وتجهيلاً للجرائم (السياسية)، وحكم عليه من محكمة جنايات القاهرة في أغسطس سنة ١٩١٠ بالحبس سنة. وقد صدر الحكم عليه في غيبته، إذ اذ كان قبل محاكمته قد ارتحل إلى الاستانة، ثم إلى سويسرا حيث أقام في (جنيف)، وأصدر بها سنة ١٩٢٢ جريدة (منبر الشرق) بالفرنسية، وجعلها وقفاً على الدفاع عن قضية مصر وقضايا الشرق عامة. وظل في منفاه حتى عاد إلى مصر سنة ١٩٣٧ واستأنف فيها إصدار صحيفته (منبر الشرق) بالعربية حتى اليوم^(١) - مد الله في حياته - وهي صحيفة وطنية شرقية إسلامية أخلاقية، تدافع عن القضية الوطنية وقضايا العروبة، وتناضل عن الحرية والاستقلال للشعوب الشرقية جمعاء.

إلى مصطفى في حياته

من أول شعره الوطني قصيدة نظمها سنة ١٩٠٧ وقدمها إلى مصطفى كامل عقب خطبته بالإسكندرية، قال مخاطباً الفقيه:

(١) أى حتى وقت ظهور الطبعة الأولى من الكتاب سنة ١٩٥٤.

اصدع بقولك إن أردت مقالا
لم تدر مصر سوى حماك تؤمه
أقبل على الوطن العزيز بصارم
وختمها بقوله
فادأب على إنهاض أمتك التي
ترجو وراء خطاك الاستقلالاً

وطن يناجى ربه

قال من قصيدة له بهذا العنوان:

رب أن البلاد أرهقتها الظلم وحاقت بأهلها البأساء
رب إلى الصدور أخرجها الوجد وأودت بحلمها الأرزاء
فتدرك بلطفك النيل حتى لا تجارى حياة مصر دماء

قصائد حوكم من أجلها سنة ١٩١٠

من قصيدة بعنوان (طيف الوطنية):

وعداة ملكوا الأمر ولم
وولاة أقسموا أن يسجدوا
رب ماذا يصنع المصري إن
طال يوم الظلم في مصر ولم
هل يرى المحتل أننا أمة
أو يرى الظالم فينا أننا
زعموا زورا، فما من أمة
كتب النصر لشعب ناهض

ومن قصيدة له يندد بالخديو عباس الثاني:

أعباس هذا آخر العهد بيننا
أيرضيك فينا أن نكون أذلة
ونبأس من آمالنا فيك كلما
وأرضيت أعداء البلاد وأهلها
رويدك يا عباس لا تبلغ المدى
فلا تخش منا بعد ذلك عتابا
ننال إذا رمنا الحياة عقابا
قضيت علينا أن نكون غضايا
وأصليتنا بعد (الوفاق) عذابا
ولا تستمع للظالمين خطابا

فما يبتغى (جورست) إلا مكيدة تحول أقلام السلام خرابا
وها قد رمى حرية القول رمية بسهمك تجنى للبلاد خرابا

يهاجم الوزارة

وقال في هذه القصيدة يهاجم وزارة بطرس غالى التي كانت تتولى الحكم وقتئذ:

ألا أمطر الله الوزارة نقمة ولا بلغت مما تروم مراما
تحاول أن تقضى علينا بإثمها ولكن ستلقى دون ذلك أناما
وزارة خدّاع أقامته بيننا يد الحاكمين الآثمين فقاما

ومن قصيدة أخرى له يندد بهذه الوزارة على أثر امتناعها عن حضور جلسات مجلس شورى القوانين فرارا من مناقشات الأعضاء:

يا أيها الوزراء ماذا نابكم حتى هجرتم صورة النواب
إلى أن قال:

فتزلزلت أقدامكم من هولها وهرعتمو فزعا إلى الأبواب
ورضيتمو الهرب المعيب لأنه خير من الإفلاس عند حساب
عارٌ عليكم أن يقال وزارة لم تدر إن سئلت بيان جواب

ومن قصيدة أخرى له سنة ١٩١٠:

طال ليل البلاد والشعب سار لا يرى غير هذه الظلمات
ظلمات من المظالم أودت بضياء الحياة بعد الحياة
يشتكى الشعب والقضاة خصوم فلمن يشتكى خصام القضاة

ومن قصيدة له يخاطب الشيخ عبد العزيز جاويش عندما حكم عليه لأول مرة سنة ١٩٠٩ ونشرها في ديوانه (وطنيقي):

يا ساكن السجن الكريم وأنت نعم الأكرم
ما السجن للشرفاء إلا رفعة وتنعم
أنت البريء ومن يخا لك مجرما هو مجرم

هذا ما وعته الذاكرة وما وسعنى الجهد فى استقصاء الشعر الوطنى، ولعلنى بإخراج هذا الكتاب أحقق أمنية كانت تجول فى خاطرى منذ عدة سنوات. ولا زلت أكرر اعتذارى عما عسى أن يكون قد فاتنى تدوينه من الشعر الوطنى. وإنى لمتدارك هذا النقص فى المستقبل القريب إن شاء الله^(١).

* * *

راجع هذا الكتاب

الأستاذ حلمى السباعى شاهين

المستشار بإدارة قضايا الحكومة

(١) لم أستطع تدارك هذا النقص كما وعدت القارئ فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب بسبب ما ألم بى من مرض مازلت أعانيه. أدعو الله الشفاء.

وفاة المؤلف

وعقب الانتهاء من مراجعتى هذا الكتاب بأيام معدودة كان يوم مصر الحزين، يوم ٣ ديسمبر سنة ١٩٦٦. حيث فقدت مؤرخها الوطنى المحقق. فروع الشرق لوفاته. وخرجت جموع الشعب ظهر ٤ ديسمبر سنة ١٩٦٦ تودعه إلى مقره الأخير. إلى ضريح زميليه فى الكفاح المرحومين مصطفى كامل ومحمد فريد بميدان القلعة بعد أن أدى الفقيد الكريم رسالته فى جميع الميادين التى خاضها - محامياً صادقاً ونقيباً للمحامين وأباً روحياً لهم، وبرلمانياً جريئاً، ووطنياً مخلصاً ثابتاً على مبادئه. ومؤرخاً حراً محققاً - جمع لمصر تاريخها القومى فى مؤلفاته العديدة، فى مختلف عصورها، فأليك أيها الفقيد العظيم بكائى، بل دعائى، وما أنت فى حاجة إليه، بل نحن أحوج ما نكون إلى تسجيل تاريخك وكفاحك، ليكون هادياً ونبراساً للجميع، وهو دين فى عنقى لعلنى أوفيه لهذه الأمة العظيمة، أما أنت فمشواك الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والأبرار...!

ابنك الروحى
حلمى السباعى شاهين

١٩٦٦/١٢/٢٥

فهرست الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة الطبعة الثانية
٥	مقدمة الطبعة الأولى
٩	رفاعة رافع الطهطاوى
١٥	عبد الله نديم
٢٠	محمود سامى البارودى
٣١	إسماعيل صبرى
٤٢	أحمد شوقى
٩٣	حافظ إبراهيم
١٤٨	خليل مطران
١٧٥	أحمد محرم
١٩٦	أحمد نسيم
٢١٣	أحمد الكاشف
٢٢٨	محمد عبد المطلب
٢٤٦	أحمد زكى أبو شادى
٢٦٣	عبد الحلیم المصرى
٢٦٧	عزيز فهمى
٢٧٧	على الغاياتى
٣٨١	وفاة المؤلف

للمؤلف

حقوق الشعب :

يتضمن شرح المبادئ والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الإنسان . طبع سنة ١٩١٢ .

نقابات التعاون الزراعية :

يتضمن تاريخ التعاون الزراعي ومنشآته في أوروبا ، ونشأة التعاون في مصر وتاريخه ونظامه ، وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية . طبع سنة ١٩١٤ .

الجمعيات الوطنية :

صحيفة من تاريخ النهضات القومية يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية في طائفة من البلدان مع شرح أصول الدساتير ، والنظم البرلمانية فيها والمقارنة بينها . طبع سنة ١٩٢٢ .

تاريخ الحركة القومية (في جزأين) :

الجزء الأول : يتضمن ظهور الحركة القومية في تاريخ مصر الحديث وبيان الدور الأول من أدوارها وهو عصر المقاومة الأهلية التي اعترضت الحملة الفرنسية في مصر . وتاريخ مصر القومي في هذا العهد (الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩)

الجزء الثاني : من إعادة الديوان في عهد نابليون إلى عهد ولاية محمد علي (الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩) .

عصر محمد علي :

يتناول تاريخ مصر القومي في عهد محمد علي (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٠)

عصر إسماعيل (في جزأين) :

الجزء الأول : يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢)

الجزء الثاني : وفيه ختام الكلام عن عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢) .

الثورة العربية والاحتلال الإنجليزي (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٧) .

مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال :

تاريخ مصر القومي من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٢) .

مصطفى كامل : باعث الحركة الوطنية

تاريخ مصر القومي من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٩) .

محمد فريد : رمز الإخلاص والتضحية

تاريخ مصر القومي من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤١) .

ثورة سنة ١٩١٩ في جزأين :

تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١ (في جزأين) الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦ .
الجزء الأول : يشتمل على شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة . وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى شوبب الثورة في مارس سنة ١٩١٩ ثم وقائع الثورة في القاهرة والأقاليم .
الجزء الثاني : وفيه الكلام عن مهادنة الثورة واستمرارها ومحاکمات الثورة ولجنة ملنر . والحوادث التي لايستها ومفاوضات ملنر واستشارة الأمة في مشروع ملنر . والتبليغ البريطاني بأن الحماية علاقة غير مرضية . ونتائج الثورة في حياة مصر القومية .

في أعقاب الثورة المصرية (ثورة سنة ١٩١٩) : في ثلاثة أجزاء :

الجزء الأول : تاريخ مصر القومي من أبريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة سعد زغلول في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧)
الجزء الثاني : تاريخ مصر القومي من وفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧ إلى وفاة الملك فؤاد سنة ١٩٣٦ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨ - سنة ١٩٤٩) .
الجزء الثالث : تاريخ مصر القومي من ولاية فاروق عرش مصر في ٦ مايو سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥١ (الطبعة الأولى سنة ١٩٥١) .

مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ :

(الطبعة الأولى سنة ١٩٥٢)

الكفاح في القتال سنة ١٩٥١ - حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ .
وزارات الموظفين - أسباب الثورة - فاروق يمهد للثورة .

ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ :

تاريخنا القومي في سبع سنوات ١٩٥٢ - ١٩٥٩ (طبع سنة ١٩٥٩)

تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة :

من فجر التاريخ إلى الفتح العربي (طبع سنة ١٩٦٣)

تاريخ مصر القومي .

من الفتح العربي حتى عصر المقاومة والحملة الفرنسية طبع بعد وفاة المؤلف

مذكرواتي (١٨٨٩ - ١٩٥١) :

خواطري ومشاهداتي في الحياة .

شعراء الوطنية في مصر :
تراجمهم . وشعرهم الوطني . والمناسبات التي نظموا فيها قصائدهم الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤

أربعة عشر عامًا في البرلمان :

مجموعة أقوال وأعمال في البرلمان :

في مجلس النواب سنة ١٩٢٤ - ١٩٢٥

وفي مجلس الشيوخ من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٥١ (طبع سنة ١٩٥٥) .

كتب مختصرة

مصطفى كامل :

باعث النهضة الوطنية (طبع سنة ١٩٥٢)

بطل الكفاح . الشهيد محمد فريد : (طبع سنة ١٩٥١)

الزعيم الثائر أحمد عرابي :

(الطبعة الأولى - يناير سنة ١٩٥٢)

جمال الدين الأفغانى : (طبع سنة ١٩٦٦)

بحث وتحليل معاهدة سنة ١٩٣٦ :

استقلال أم حاية (طبع سنة ١٩٣٦)

كتب لطلبة المدارس الثانوية :

(طبعت سنة ١٩٥٨ - ١٩٥٩)

مصر المجاهدة في العصر الحديث :

في ست حلقات تشتمل على كفاح الشعب في عهد الحملة الفرنسية ثم كفاحه في العهود التالية إلى بداية

ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ .

(تحت الطبع)

مختاراتي من دواوين الشعراء في الجاهلية والإسلام .

١٩٩٢/٩٠٤٢	رقم الإيداع
ISBN 977-02-3873-4	الترقيم الدولي

١ / ٩٠ / ٧٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذه الأعمال الكاملة

بظرواى عبد الرحمن الرافعى على أنه جردى مصر الحديث .
فقد عكف طوال عمره على كتابة التاريخ المصرى فبداه بتاريخ
الحركة القومية فى عصر المماليك والحملة الفرنسية . حتى ثورة
٢٣ يوليو فى سبع سنوات . وإلى جانب هذه الحقبة التاريخية
يكتب أيضا مؤلفات اخرى هامة
وكتابات الرافعى تنسم بالصدق والدقة والخبرة فهو يبدأ
بذكر أسباب الحادث ثم سرده ثم رأيه فيه . ومن ثم فإن فكر
الرافعى يسود هذه المؤلفات ويعبر عن كفاح الشعب المصرى فى
مواجهة القوى المختلفة والملايسات التى احاطته
وذاى المعارف تقدم هذه الأعمال الكاملة للقرائى العرفى
حتى يقف على تاريخ وطنه العظم . وكفاحه المشرف
ومطالبته الدائمة بالحرية والحق والديمقراطية

